أحمد يوسف داود

الخيول

رمزي

رواية

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

الخيول

رواية

دار الحصاد للنشر والتوزيع

دمشق ص. ب: ٤٤٩٠

هاتف. ٢٤٦٣٢٦

الطبعة الأولى ١٩٧٦

الطبعة الثانية ١٩٩٢

مطابع المجلوني ــ تلفون ٤٣٥٩١١

جميع الحقوق محفوظة

لدار الحصاد

أحمد يوسف داود

رواية

الجزء الأول

الفرس الشقراء تدخل مزرعة

« بيت عاصي »

- ١ -

تتأرجح الرأس الصغيرة ، ومقص الرجل المنحني ما يزال يطقطق .

العشرون من آب عام ١٩٤٧ . الحر شديد ساعة الظهر وليس أمام دكان راشد العلي غير رجلين وصبي واحد .

تتحرك الرأس يميناً وشمالاً كلما أصدر المقص نقراته المتوالية قرب الأذن . والرجل المنحني يصرخ بصوته الرخو المخشخش :

ـ أصحيح إنك لاتستطيع أن تهدأ؟!

يريد الصبي أن يضحك ، أن ينفجر بضحكة واسعة لا آخر لها على هذه اللهجة الرخوة السيّالة ، ولكنه يرفع عينيه سريعاً إلى الجالس قبالته غير بعيد ، فيرى نظرته الزاجرة التي يرسمها عامداً على ملامحه ، وسرعان ما تنتهي تلك الرغبة الشيطانية ، ويحس بجفاف في حلقه ، ويحاول جاهداً ابتلاع ريقه ، ثم يغمض عينيه مستسلماً دون صوت .

إنه لايخافه . . وهو يعرف نظراته ومعانيها عن ظهر قلب . . . ويحس نحوه بالشفقة أكثر ما يحس ، ومع ذلك فهو لايدري تماماً لماذا يحدث له مثل هذا الأمر ؟ !

وأبو حامد ينظر نحوه الآن بفرح داخلي رغم نظرته الزاجرة ! !

من الحقول لايرتفع غناء ، ولا تأتي نسمة . الحر وحده يتوهج بعيداً ويتراقص ، وصاحب الدكان في الداخل أغمض عينيه وأغفى بجانب قرون الفاصولياء المفروشة على قماش متسخ في الأرضية المتربة .

تتأرجح الرأس ثانية ، ولكن الصبي يبذل جهداً واضحاً لتثبيتها .

احتقن وجهه وتصلبت عنقه وجذعه . . . وضغطت قدماه بصندلها المتآكل على [illegible] كرسي القش . . . ولكن الرجل المنحني لايرضيه شيء ! إنه لم يتوقف عن الصراخ [illegible] :

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

- ارفع رأسك .
- اخفض رأسك .
- لاتمل إلى الشمال .
- لاتنحنِ [illegible]

وعاد المقص يطقطق عند أذنه ، ثم قبض على شعرات فوقها ، وضغطت أصابع الرجل المنحني . فالتوت الشعرات دون أن تنقطع ، وارتفع المقص فشدها معه ، وهمس الصبي متوجعاً وقال الرجل المنحني كلمة غامضة . . سباباً غير مفهوم ، ثم استقام بعد أن رفع المقص . . ثم انحنى على حقيبته التنكية العتيقة .

خشت الأشياء فيها خشيشاً ربما بينما كان الصبي يتنفس بحرية ، ويحرك عنقه . . ثم عاد فتجمد ثانية حين رأى إباه لم يمحُ عن وجهه نظرته الزاجرة .

أحس بالشعر المتسرب تحت قميصه الوسخ ، يخزه وخزاً ناعماً وممضاً . . « آه لو كان حراً! إذن لمد يده وحك مكانها . . إذن لقفز هارباً عن هذا الكرسي اللعين!! » ولكن « هو » يجعل الجلسة مقبولة رغم كل شيء .

عاد الرجل ينحني!

في فمه الآن سيكارة تنشر غيمة من الدخان حول الرأس الصغيرة . . ثم غيمة ثانية ثم ثالثة . . وضاق صدره وأخيراً توقف الرجل ؟ ووضع سيكارته جانباً ثم انحنى قائلاً :

- هئة . ! وأنت يا أبا حامد . . ألن تبيع زيتاً « على التسليم »؟

وتنبه أبو حامد فجأة وردد بآلية :

- زيت على التسليم ؟ ! !

كانت عيناه تعبران الحقول قبل أن يجيئه الصوت .

ظن أن أشجار الزيتون تتيبس تحت ذلك الوهج . . ومسح عرقاً خفيفاً على جبهته . هذه المرة الثانية التي سيضيع فيها التعب هدراً إن لم يأذن الله بالمطر !

« زيت على التسليم » ؟ ! أين سطوة أم حامد إذن ؟ تلك المرأة ذات اللسان الذي لايهدأ والتي كتب عليه أن يكون زوجها ! ! . .

« زيت على التسليم » ؟ ! نعم . . . لقد جرب ذلك منذ عامين ، في لحظة استثنائية من الشعور بالسلطة التي له على بيته . . أو تلك التي يجب أن تكون له . .

الرجل ذو اليد المقطوعة يأتي دائماً على فرس شقراء . . . عبه منتفخ بمختلف الأوراق الملونة الثمينة . وخلال شهور السنة ، الناس يقصدونه في قريته القريبة ويأخذون منه شيئاً من تلك الأوراق ليسددوا الحساب زيتاً في الموسم ! !

في داره الكبيرة المبنية على مستودعات سفلية لايستطيع أحد أن يدعي أنه رآها من الداخل وعرف ما فيها . . كان يجلسهم في الغرفة المشرفة على وادٍ قريب ، فوق مقاعد مغطاة بجلد ، وتبدأ يده الوحيدة المتبقية تتحرك باستمرار ، مشيرة إلى « سوء الأحوال ، وقلة المال ، وضآلة قيمة الزيت . . » ومع ذلك فقد كانوا يعودون دائماً بما يطلبونه بعد أن يوقعوا سندات بيع : « الرطل بليرتين ! » والحق أن هذا السعر في شباط أو نيسان مثلاً كان يبدو لهم كبيراً . . غير أنه كان يقفز غالباً في الموسم إلى خمس ليرات أو أكثر ! !

ولقد تغيرت الأحوال اليوم شيئاً ما !

إن الرجل ذا اليد الواحدة يركب الأن فرسه ويدور على بيوتهم فيحرر سندات ، ويدفع أوراقاً مالية زاهية . . ويخرج بعد أن يلقي فيضاً من الكلمات المعسولة . .

كان ثمة منافسون قد ظهروا ! !

وأبو حامد لم يكن يعرفه شخصياً . . ولم يكن يهتم كثيراً بوجوده . إنه بفضل حكمة أم حامد وسلاطة لسانها ، يميل إلى أن يكون دائماً مكتفيا بما تغله أرضه الصغيرة وعنزاته وبقرته . . .

لقد عرفت أم حامد كيف تجعل منه مغارساً في قطعة أرض جيدة يمتلكها عاصي أفندي الذي كان أيام الفرنساوي مأمور التجنيد والسوق في المركز . . إلى جانب أفضل مغارسيه الآخرين في القرية . . . ولقد عرفت أكثر ، كيف تقيه شر الديون والسندات ! !

« القمح من الأرض ، والبصل من الأرض ، والسلق والتين والعنب والزيت . . . . » وتستمر أم حامد دقائق في عد الأصناف التي تخطر على بالها قبل أن تسأله سؤالها المستنير « فلماذا يستدين الناس ؟ »

إن أم حامد لاتنسّ يوماً أن تشفع الحديث بكلمة سباب متواضعة إلى المرحومين آباء وأمهات أولئك الرجال ذوي الأكف المبسوطة التي « تزرب » في كل اتجاه ! ! !

ولم يكن أبو حامد قد عرف الرجل ذا اليد الواحدة ، حتى رآه مرة منذ عامين يُظهر نقوده الورقية المتراكمة بعضها فوق بعض في سطر كبير . . .

سال لعابه وغصت حنجرته بكلمة كان يود أن يقولها . . ثم أطرق إلى الأرض بينما أخذ ذو اليد الواحدة يعد : « عشرة . . عشرين . . . . ثلاثين . . . » وعاد أبو حامد يعطس عطاساً مفتعلاً ثم أدار وجهه جانباً فتمخط بأدب ! ! كان الآخر قد انتهى من عده ! !

وراح الرجال يلغطون حول كرسي القش الكبير ، والوحيد ، الذي أجلسوا عليه ذا اليد الواحدة .

إن حالة مرح خاصة تستولي عليهم في تلك اللحظات الفريدة التي يشعرون فيها « بملكيتهم » وبقدرتهم على التصرف « بشيء ما » وها هم يتناولون ثمن الزيت مقدماً .

الملامح تنبسط . تغمرها حالة ابتسام مبطنة ، وتبرق العيون بريقاً سعيداً .

وفي مثل اليوم الذي يكون قد تحدد مرعداً للقاء المشهود لاتستطيع أن ترى ذقن غير محلوقة ! فمنذ المساء وحتى قبيل ظهور الفرس الشقراء على الطريق المقابلة للقرية تبدأ الحلاقة . . . بعضهم يستعير شفرات جديدة أو قديمة ، والوجهاء بينهم ينتظرون « زهوان » الحلاق ذي العلبة التنكية التي لن تظل طويلاً قبل أن يحق لها دخول المتاحف الأثرية ، إنهم يواعدونه على المجيء مبكراً ، إذ يجب أن يظهروا بالمظهر اللائق أمام ذلك الرجل . . كأنما هم قادمون إلى عرس . . .

« زيت على التسليم » ؟ . . مسح أبو حامد عرقه ثانية وقال :

ـ منذ عامين جربت . . . ليس فيها غير الخسارة يا زهوان !

قال الرجل المنحني وهو يتوقف ويتناول سيكارته ثانية :

- الموسم جيد . . . وأخشى . . .

تطلع يميناً وشمالاً قبل أن يكمل ، كأنما يخاف أن يسمعه أحد وتابع كمن يهمس :

- أخشى أن يكون السعر رديئاً هذا العام ! ! دبر رأسك . . .

ثم عاد إلى رأس الصبي فأمالها بأصابعه وهتف:

- يلعن والد من لايتمنى لك الخير ! !

ضحك أبو حامد ضحكة فارغة دون أن يفهم شيئاً كثيراً أو يقول كلمة . وأحس بالاشفاق الشديد على هذا الرجل البائس الذي هجرته امرأته . . ثم هاهو الآن يتخذ وضع الرجل الحكيم الفهيم . . .

وتحرك صاحب الدكان النائم ، وانقلب . . . وملأت أنف الصبي الجالس أمام الحلاق رائحة خمرة مخلوطة برائحة فم غير نظيف . . فأدار وجهه بسرعة عن وجه الحلاق الذي يقابله ، وضرب هذا مقصه الضربة الأخيرة . . ثم تناول بهدوء فوطته البيضاء المتسخة فانتزعها عن صدر الصبي ونفضها ثم نفخ له على نقرته بفمه ثم ضربه بكفه ضربات متوالية خفيفة على الكتفين ، فتساقط شيء من الشعر المقصوص . . ونفخ ثانية على الصدر فقفز الصبي بعيداً وهو يغلق أنفه أمام الرائحة المقززة . . وقال زهوان :

- ماذا حدث لك ؟ ألا تريد أن تنفض الشعر ؟

لم يكن يملك فرشاة ، ومع هذا فلم يكن يرى أن من اللائق أن يخرج زبونه الصغير من بين يديه إلا نظيفاً مرتاحاً ! ! وقال الصبي :

- سأنفضه لنفسي !

وطوى الرجل فوطته ثم رمى مشطه ومقصه في الحقيبة فأصدرا خشخشة قوية، واختلج النائم وفتح عينيه ثم أغمضهما غير مكترث . . وعاد إلى النوم . ومد أبو حامد يده إلى جيب صدارته التي يرتديها فوق قميصه فأخرج قطعتين ذات العشرة قروش فناولهما للحلاق الذي قال دون أن ينظر إليهما :

- تسلم يدك !

ثم مدهما من الباب نحو الرجل النائم صارخاً به :

- قم ! تحرك وأعطني كأس عرق خذ . . .

وفتح راشد العلي عينيه ثم مد يده فتناولها . . . ثم نهض متثاقلاً وفرك أجفانه وقام واقفاً . . وصب عرقاً من ابريق فخاري في كأس طويلة ضيقة . .

كان أبو حامد قد ذهب مع ولده . . وتناول زهوان الكأس فمص منه مصة وقال :

ـ يلعن والديَّ إذا لم يكن أصلكم « نَوَراً » !

فسأله راشد وهو يتثاءب :

ـ لماذا يالعين ؟ !

ـ لأن الساعة صارت واحدة بعد الظهر ولم أذق لقمة من هذه القرية !

عندئذ مد صاحب الدكان يده إلى الرف الخالي فتناول صحناً صغيراً مغطى برغيف أسود وناوله إياه . . ورفع زهوان الرغيف فوجد حبة بندورة وإلى جانبها بيضة مقلية بالزيت . . فوضع الصحن أمامه وجلس يأكل ويشرب . واضطجع راشد من جديد وهو يقول :

ـ هل سيأتي عاصي أفندي اليوم ؟

ـ الأفندي لايتأخر عن مواعيده ولكنه لن يجيء والرجل ذو اليد الواحدة هنا .

ـ لماذا ؟

ـ الأفندي يا ولد رجل عظيم . . . وهذا الأبتر كلب ابن كلب . . . والأفندي لايحب الكلاب ! !

قال راشد :

ـ لو اشترى الأفندي الزيت من الفلاحين لما رأيت الأخر هنا .

ـ أنت حمار ! ! الأفندي لايرضى أن يقوم بهذا العمل يا ولد . . .

أغمض راشد عينيه . . لم تكن لديه رغبة في الرد على فلتات هذا اللسان الطويل . . ليكن ما يكون مادامت أمور الدكان تسير على مايرام . . .

قال زهوان :

ـ إنهم ينتظرونه منذ الصباح !

ولم يجب راشد بشيء بل انقلب على جنبه مديراً ظهره له فتأمله لحظة ثم قال :

ـ أنت لست أكثر من جيفة . . .

ثم سرح بصره عبر باب الدكان ولم يلبث أن هتف :

ـ قم فانظر يا ابن الكلب . . . ها هي الفرس الشقراء قد أقبلت .

ولم يبد على راشد أي اهتمام ، فما كان من زهوان إلا أن تناول كأسه فجرعه دفعة واحدة ثم التقط حقيبته وأسرع نحو بيوت القرية بينما كانت الفرس الشقراء تتقدم براكبها رويداً رويداً .

- ٢ -

بين القرية والمقبرة ، فضاء من الصخر ، وسراديب متوالية تغوص فيه ، وحين تنفخ الريح باتجاه ما في أيام الشتاء يسمع لبعضها دوي ، مثل أنّة كبيرة خشنة أو لهاث ثور مذبوح يرتعش ارتعاشته الأخيرة . . .

وكان هذا يجعل الطريق من هنا غامضة رهيبة ، مثقلة بحزن مجهول منذ لحظة انحدار الشمس وحتى ساعة متأخرة من السحر القادم . .

وفي الصيف يقال إن أفاعي عجيبة تخرج من مكامنها في السراديب وتتجول ، على حواف الطريق أحياناً ، وعلى الطريق ذاتها أحياناً أخرى .

وعلى قمة فضاء الصخر المتمعج هذا ، أشجار سنديان عالية كثيفة متوحدة ، تبرز من بينها قبة بيضاء « لمزار » عتيق ، ويستدير الجبل عن يمينها منحدراً إلى المقبرة ، وعن شمالها إلى القرية ، وبينهما الدرب المخيفة التي لايدري أحد متى سموها : « درب الأموات » ، كما لايدري أحد متى بني ، على منتصفها تقريباً ، بيت « حسين السعيدي » الذي ورثه عن أبيه ، وأصبح منذ سنين لايجوي واحداً من المخلوقات البشرية غير « حسين » نفسه ، أو الشيخ حسين كما سماه بعضهم في لحظة مجهولة ، والذي يعيش هو الآخر حياة عجائبية مجهولة أقرب إلى القداسة في نظر بعض أهل القرية وإلى السحر في نظر قسم آخر . . وإلى الشعوذة والدجل في نظر آخرين . . .

ويزداد حرص « الشيخ حسين » على طلاء بيته بالحوار الأبيض كل عام فيبدو من خلال بعض الأشجار الكبيرة التي تعلو حوله « مزاراً » يتافس الذي على القمة ويتحد معه في تكوين أسطوري عصي على الفهم .

ولد الشيخ حسين في القرية ولكنه عاش منذ السادسة وحتى الخامسة عشرة في قرية أخواله البعيدة . . كان أخوته يولدون ثم يموتون صبية . . وظن والده أن «تغيير الهواء » ربما نجاه ! وحين عاد كانت أمه تضع رجلاً على حافة القبر وأخرى على الأرض . . وقد تعلمت أن تكون امرأة صموتاً في هذه الرقعة الموحشة . إنها تعرف أسرارها ولكنها لاتتكلم ، وتكفيها نظرة واحدة من زوجها الحازم ذي التكوين المهيب كي تفهم مايريد فوراً .

وحين ماتت بعد عامين كان الأب قد أخذ يلقن الصبي طقوسه وتعازيمه التي عاشوا منها جميعاً . . ويعلمه ، أكثر ، كيف يعتاد عزلته ويحبها .

وذات مساء قال الشيخ الأب لابنه :

ـ يا حسين . أنت الآن في الثانية والعشرين . . لقد علمتك كثيراً من الأمور التي تنفعك . . وبقيت حكمة واحدة . . ويجب أن أقولها لك اليوم فربما لاتتاح لي فرصة أخرى .

وصمت الشاب ناظراً إليه . وتفرس الأب في ملامح ابنه الصارمة ثم طاف بنظره على جسده الضخم الفتي الذي يملأ المكان بحضوره . . وقال :

ـ تعلم ألا تفكر في أمر بعد أن تفعله . . تعلم ألا تندم على شيء والا تخشى شيئاً ! !

وسرى الصمت ثانية . . وفي الصباح وجد الأبن أباه ميتاً قرب أحد الصخور وهو يجمع في لحظات الفجر « عشب الأسرار » كما كان يسميه فاحتمله دون صوت إلى البيت وفي الساعة الواحدة تصاعد أذان تحت المزار القديم . . ودفن الرجل الميت . . ولكن أسلوب حياته ظل حياً ، وتكامل في أسلوب حياة « الشيخ حسين » الذي أصبح ، هو الآخر ، يُرى كل فجر باحثاً بين الصخور عن عشب الأسرار الذي كان يداوي به المرضى من القرية ، ويحرقه في التعازيم التي يجريها للمحبين خفية . . . أو يعطي قليلاً منه للنساء اللواتي لايحبلن . . أو لاينجبن غير البنات . . أو يخشين أن يتزوج أزواجهن ثانية . . . كل ذلك يجري مشفوعاً

بطقوس لايعرفها أحد إلا أولئك الذين مارسوها بكل خضوع وخشوع أو خوف وأمل . . . وأخيراً بصمت تام شامل . . . ذلك إنها أسرار متبادلة تحميها الجن المكلفة بها ، والأرصاد الساهرة عليها ! ! !

ولقد كان من الممكن أن ينظر الرجال إلى الشيخ حسين نظرة استهانة وعداء لولا أن عزلته كانت ظاهرية فقط . . ولولا أن تكوينه يملأ للقلب مهابة . . ولولا أن تلك السنين من حكم « الفرنساوي » كانت شاقة ومضنية حقاً ! !

إن الشيخ حسين يدخل الآن في الخامسة والثلاثين . ولكن الجميع يقبلون يده بنوع من الطاعة ، والنساء بشيء من الشبق ، يكتمنه وهن يختلسن نظرة إلى فمه الشهواني ذي الخطوط الطافحة بالقوة .

إن مالايفهمه الرجال ، هو أن يتحدث أحدهم مع امرأته حديثاً خاصاً عن الحاجة إلى طحين أو كساء أو غيره . . . وفي اليوم الثاني ، عند القيلولة ، أو العصر ، أو المغرب يصادفه الشيخ في مكان ما فيناوله شيئاً ملفوفاً وهو يقول له هامس :

ـ أعرف أنك بحاجة . . . خذ هذا استعن به حتى تفرج عليك !

ويقول الرجل مستغرباً :

ـ مولانا . . .

ـ لا ! ! إني أعرف . . . ونحن إخوان . . دَيْن مستور حتى الفرج .

ويسرع الشيخ الخطا . . ويقف الرجل مذهولاً . . ثم يهز كتفيه بنوع من الفرح والطمأنينة والخشوع . . ويمضي .

أحياناً ، يتصادف أن يقع أحدهم في المرض ، وفي الليلة الأولى أو الثانية ، وقبيل النوم يدخل الشيخ حسين ، يسلم بهدوء ويسأل عن المريض ويراقبه جيداً ثم يقرأ شيئاً على رأسه ثم يتناول قنينة شراب فيسقيه جرعة ثم يعطي أهل البيت جرعة ثانية للصباح وثالثة للظهر ويخرج موصياً بكتم خبره ليعود في الليل التالي . .

وأحياناً لايعطي شراباً وإنما يكتفي بالتعزيم . . وحين يشفى المريض تكون كرامة الشيخ قد ظهرت ! ! أما إذا مات فقد « انتهى أجله » ! ! !

ولم تكن هذه هي « البراهين » الوحيدة . . . فهو مثلاً قد طلب مرة من سرحان السليم ألا يصافحه . . .

وحنق الرجل وأبدى استغرابه فقال الشيخ :

ـ لا آخذ عليك شيئاً . . . فأنت حر في أن تفعل بحياتك ما تريد . . ولكن . . .

ثم مال هامساً بحيث لم يسمعه إلا محسن السلوم وكان رجلاً كتوماً :

ـ لقد ضاجعت امرأتك اليوم ولم تغتسل بعد ! !

وأطرق الرجل خجلاً ، وتابع طريقه دون أن يتكلم . . وشاع الخبر . . تحدث سرحان السليم نفسه برؤية الشيخ النافذة ، وبصيرته المكشوفة . . .

ونادراً ما كان سراج الشيخ يشتعل إلا في ساعة متأخرة من الليل . . ولكن ليس هناك من يعرف شيئاً عن ذلك فعزلته ـ التي أصبحت شبه قدسية ـ لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب منها . . وإذا تصادف أن لمحه امرؤ في أزقة القرية أخر السهرة فلا يشك أبداً في أن هناك مريضاً أو ملهوفاً . . . أو غاية يجري إليها الشيخ . . تفوق ما ينبغي لغيره أن يعرفه . .

ويمضي الشيخ حسين إلى غايته . . ويصلي الآخر على النبي ثم لايلتفت وراءه بعد ذلك . .

* * *

يستطيع المرء أن يعد : سرداباً . . اثنين . . ثلاثة . . أربعة ، ثم بيت الشيخ الذي تخيم صخرة كبيرة عالية على سطحه كأنها تحتضنه ثم سرداباً . . اثنين . . ثلاثة . . . خمسة فالمقبرة ، والقبور المتواضعة التي تكاد تمحي . . .

وفي القرية ، لم يكن أحد يعرف ، باستثناء امرأة أو امرأتين . . أن وراء جدار البيت الخلفي سرداباً ممهداً ، سويت جوانبه وأرضه قليلاً ، مثل كهف من كهوف الأزمنة الأولى . . .

ومع أن الشيخ قد وضع فيه آلة العمل وموّه بوابته بحيث أصبحت جزءاً من الحائط فيما يبدو ، إلا أنه نادراً ماكان يلجأ إليه في غير لحظات استثنائية فريدة .

أشعل سراجه الليلة ، ووضعه على مسرجه . ثم وضع بين يديه كتاب « الحكمة » الذي ورثه منسوخاً . . . وراح يتشاغل وهو ينتظر . .

فتح الصفحة الثالثة بعد أن تخفف من ثيابه . . قرأ شيئاً ثم ضحك بخفوت ، وردد الكهف صدى الضحكة (أيها القارىء بحق الأسرار الموضوعة بين

يديك . . بحق النقش الذي على خاتم سليمان لاتستعمل مافي هذا الكتاب إلا في الحلال) .

ضحك للمرة الثانية وهو يتابع قراءة الكلمات . . .

« أبناء القحبة ! ! يبتلعون . . ويضاجعون . . ويكذبون . . ثم فوق ذلك يصبحون ذوي كرامات ! ويريدون أن يتم كل شيء بشرف . . . بالحلال نعم ! ! ! »

في الصفحات التالية تبدأ التعليمات . . وصفات للحب . . للحمل . . حسابات للأبراج . . استحضار للجن . . « ليتم كل شيء بشرف ! ! »

هز رأسه مبتسماً « يا أبناء الحرام . . الآن ينتظر تلميذكم حسين السعيدي ! تعلم كل شيء ! ! يحرق البخور دون أن ترتجف يده . . ويعزّم أحياناً على البطن المكشوفة . . ويسأل أسئلة ساخنة بطريقة جليدية . . . وتفور الدماء ويعرف تلميذكم من عبق الجسد لحظة الشهوة المضطرمة . . . »

تأمل ملياً جسده القوي الناضج . . هذه القوة التي تتدفق في خلاياه أين يذهب بها ؟ ؟

الصفحة الخامسة يحفظ مراسيمها عن ظهر قلب ! !

ولكن ذاك الذي مات عند الفجر وهو يجمع عشب الأسرار قال له يوم موته : لاتندم على شيء ! !

وها هو جسده يصبح المحور الذي يدور حوله أولئك الأغبياء كما يدور الذباب على قطرة دبس !

ينتظر متلهفاً كما لم يحدث له من قبل ! يغوص في الصفحة العاشرة . . . اشارات مبهمة . . أية لغة هذه ؟ !

(اكتب هذا في ورقة وضع عليه شيئاً من العشب المذكور . . ضعه جافاً ومفتتاً . . ثم أشعله . . ثم . . .)

أغلق الكتاب . .

« العشب المذكور . . عشب الأسرار يا أبناء الحرام ! الهنديا البرية ! ! ما الذي كان سيحدث له لو لم يكن يزور المدينة مرات في العام ويقرأ كتباً تتحدث في المعارف الطبية البسيطة ؟ ما الذي يحدث لو لم يكن يشتري تلك الحبوب والأشربة

وغيرها ؟ ؟ . . . أحرق عشباً ! ! كرامات ! ! ! »

يتسمع عبر السكون المسدل . . ويحس بارتعاش وشبق . . تصعد نار خفيفة من منطقة الحوض وتسري في الظهر . . . طال الانتظار . . . هي لن تأتي إذن ؟ ! !

أعد كل مايلزم في الداخل . . . وفراشاً أيضاً . . .

أمس عند الغروب قبلت يده وهي ذاهبة إلى « العين » . . مسح جسدها بنظرة محترقة . . ولم يبن في وجهه شيء غير الوقار . . خيل إليه إن عينيها تبرقان بريقاً خاصاً . . قال لها :

ـ كنت أقول إنك ستطلبين مني شيئاً ما ! !

ـ سيدي الشيخ ! أنت تعرف إذن ؟ !

ـ نعم . . ولكنه لن يتزوج . . ستنجبين أنت ! خمس سنوات ولم تنجبي . . هذا شيء عادي !

برقت عيناها ثانية . . ربما بدمعة . . أو بشيء مشابه . . وقال في نفسه إن الدمعة وبريق الشهوة لايختلفان . . وبين حزنها واشتهائها خط ضئيل

همست متضرعة :

ـ ساعدني يا سيدنا الشيخ . ساعدني !

أطرق قليلاً ناظراً إلى استدارة وركيها على الجانبين ثم قال لها :

ـ لعلك تنجبين بدون حاجة لتعزيم . . لا أريد أن يعرف عني شيء كهذا .

ـ سيدي . . سيدي أقسم لك أن أحداً لن يعرف أبداً .

جمع فمه بطريقة خاصة . . إنه يعرف تماماً هذه اللحظة التي يجب أن يضرب فيها ضربته . جمع فمه بطريقة يعرف أنها تثير الشهوة في المرأة التي يحدثها . إنه يفعلها حين تتدفق فحولته عارمة في جسده . . ولمحها كأنما تتلاشى من الداخل ويبتسم طرفا ثغرها ويرتعشان . . همس لها :

ـ ذلك يحتاج طقوساً خاصة يا سعدى ! طقوساً خاصة .

ـ سيغيب غداً يا سيدي . سيذهب ليشتري قمحاً من قرية بعيدة . . وسينام هناك . . .

ـ طيب . . توكلنا على الله . . ألديكم حمام ؟

أفراخ وعتيق يا سيدي الشيخ !

ـ فرخ أبيض يا سعدى . . أبيض ليس فيه نقطة سوداء . . اذهبي إلي في أول الليل ! !

قبلت يده ثانية . . أحس بشفتيها تخترقان أعصابه بنعومتها . . ورشقها بنظرة وهي تبتعد !

« فرخ أبيض يا سعدى ! نعم فرخ أبيض . . ليكن ناصعاً كجسدك . . آه أيتها المرأة كنت أعرف منذ ستة أشهر أنك ستقعين في الشرك ! »

أول الليل . . وهو ينتظر !

غاب « نجم الدين » اليوم رآه يسوق باكراً ثلاث حمير . . وينحدر بعيداً إلى الطريق في قلب الوادي .

اهتز الباب بنقرات صغيرة . . . فتح كتابه وأسنده على الحصير ثم ركض يفتح الباب تاركاً فتوته تتوهج من حنايا القميص المفتوح .

أغلق الباب ثانية ووضع المزلاج خلفه « اطمئني يا سعدى ! في درب الأموات لم يتبعك أحد . . من يجرؤ على اختراق كل هذه القدسية العاتية ؟ »

سعدى ترتعش . . في وجهها ملامح خوف حقيقية . . مسح بيده على كتفها كائناً تلذذه :

لا تخافي . . . لماذا أنت خائفة ؟ . أنت بأمان معي !

برودة الكلمات انسكبت هدوءاً على قلبها . . تقدمها وهي تصر بفستانها على فرخ الحمام الأبيض . . فتح باب الكهف وحمل السراج . . وعبق المكان بالرطوبة !

فاجأها خوف جديد ، ولكن الشيخ بدأ يتحدث مبتدأ وحشة اللحظات العجيبة :

ـ سعدى . . هل عرف أحد بمجيئك ؟

. . .

ـ اطمئني إذن . . لن يعرف أحد . . هذه الأسرار يلزم كتمانها ! إنها شيء أساسي من الحكمة !

تغمرها الكلمات الكبيرة بالخشوع مع أنها لاتفهمها . . وهو يحدثها منصرفاً

إلى إعداد البخور في مجمرة فخارية . . ورفع بصره إليها . . ماتزال واقفة . . أشار لها إلى الفراش :

ـ لاتخجلي ياسعدى .

وضعت فرخ الحمام أمامها وهي تجلس فجثم على الأرض باستكانة يرقب المشهد ، قال الشيخ :

ـ لن يتزوج . إني أقرأ مستقبله . . سيكون لك أنت بنون وبنات ! كنت أراك عارفاً أنك ستطلبين معونتي . . أشهد جمالك يذبل مع كل يوم يمر ، دون أن تفعلي شيئاً . . ومع ذلك . .

اشار بيده وهو ينتهي من إعداد مايلزم . . وأحست باطمئنان يتسرب شيئاً فشيئاً إلى صدرها . .

وقف أمامها يتأملها . . وفجأة سألها :

ـ سعدى . . هل أنت . . نظيفة ؟

عضت شفتها السفلى بأسنانها « الشيخ نفسه يسأل ؟ » غمرها خجل جعل الدم يصعد إلى وجهها .

سعدى . . الحكمة تقضي . . .

« والشيخ أيضاً ياسعدى ! ما فائدة أن أوقد لك كل هذا البخور وأجعل العواصف تهب في جسدك . . وأنت عاجزة عن تلقي هذه الفحولة ؟ » .

ـ إذا ظللت خجلى هكذا سيكون الأمر صعباً .

لمحته وهي تبتسم ، متحررة شيئاً فشيئاً . . تاركة لأنوثتها طريقاً واسعه ، وهمست :

ـ نظيفة تماماً .

ارتعشت ذكورته ، وتفتحت مسام الجسد وصممت هي ألا تلقي بالاً . .

قال وهو يوقد بخوراً جديداً في المجمرة :

ـ ساعة ميمونة !

« نعم ساعة ميمونة يا شيخ . . كل التذكر البشري للخطيئة الأولى يرتعد بين سرتك وركبتيك ! وهي تجلس وادعة . . . كفرخ الحمام الأبيض الصامت . أوقد . أوقد . ربما مر وقت طويل قبل أن تنفذ إلى داخلها وتقيم ملكوت أسيادك

أصحاب المجامر والصندل » .

انتشرت سريعاً رائحة البخور . . تنفستها برهبة أولاً ثم خالجها شعور بأن القضية كلها حلم . . وأن الشيخ ليس إلا شبحاً . . ثم عاد جسده فملأ العينين تاركاً سحابة الدخان خلفه ، وشمت رائحة مسكرة تعبق من جسده . . رائحة خليطاً بين الطيب وعرق الجسد ، واشعاع فحولة مكتومة تبحث دائبة عن مستقر لها .

فتحت أنفها واستنشقت بعمق « لو لم يكن الشيخ ! » .

جلس أمامها تماماً . . وأصبح وجهها قبالته وبشكل غريزي تهيأ جسدها . . ثم مسحت هذه الفكرة مسحاً ! كيف تجيز لنفسها أن تحس « بذلك » في هذه اللحظة الكريمة ؟ ومد يديه إلى كتفيها . . فشعرت بارتعاشتها :

ـ سيدي الشيخ ! !

ـ يجب أن تضطجعي ! نعم . . هكذا . . .

أماها مستسلمة على الفراش . قبض بكفيه على جنبيها وألصقها . . لم تقل شيئاً ولكنها أخذت تعاني احتراقاً هادئاً خشيت أن يدنس هذه القدسية العجيبة قرّب كتابه منه ، وجلس عند وركها . . واضعاً سراجه على يساره . . قال لها :

ـ أغمضي .

وأغمضت أجفانها وتركت أهدابها الطويلة تسيل في رقة على خط العين التي تستقر الآن على حلم .

ـ فكري فقط « هنا » وفيما سأقوله لك !

ـ سأفعل ! !

تنتظرين المعجزة إذن ؟ هذه هي ! ! أسبلي أهدابك يا حلوتي . . أسبليها . . اتركي الحلم الوهاج يتسلل إليك . . سأفتح نافذة وأنا أداعبك وأحدثك . هذه هي المعجزة ! ! »

ـ هل يضاجعك بانتظام ؟

ـ همه ! !

« بانتظام ؟ نعم يا ابن الكلبة بانتظام ! كيف تريد إذن ؟ . لن يكون الأمر هيناً . . فلتستخدم كل أساليبك ! » .

- هل تحسين باللذة معه ؟
- ليس كثيراً ! لماذا يا سيدي ؟
- لا ياسعدى . . لاتفتحي عينيك !

« ليس كثيراً . إنه لايضاجع بفعل الشبق إذن . هذا يجعل الأمور أسهل » .

مد يده فرفع ثوبها حتى بانت سرتها ورأى أصول الشعر على الكثيب السفلي . . فتوهج . . بدأت ذكورته تفور فوراناً « هذا هو الجسد الذي تشتهي . . يوشك أن يصبح ملكاً لك ! » مسح بكفه على بطنها في منطقة السرة فمدت يدها بحركة تلقائية . . ونشر البخور غيمة جديدة . . ضم أصابعها تحت يده برفق . تأوهت دون أن تفتح عينيها . راقب وجهها « لم يحن الوقت بعد ! » ترك يدها . فباعدتها بعفوية . « إنها تدخل عالم النشوة بتهيب ! من يدري . . ؟ ربما لم تجرب مثل ذلك أبداً » .

عاد يمسح ثانية على البطن مقترباً من كثيب الشعر الأسمر « لاتنس نفسك يا شيخ حسين ! »

راح يدمدم جاعلاً يده تتسلل نحو سروالها ثم يزيحه بهدوء نحو الأسفل . . ولفح وهج حار يده . . فتألق كأنما شهب تتساقط على أعصابه . .

الحرقة اللانهائية الحادة توغل بعيداً حتى آخر قطرة دم في جسده وتحيلها جمرة كبيرة . يدمدم دون أن يقول شيئاً ، مستسلماً لتفاصيل موضع التقاء الفخذين الأبيضين باعدهما مداعباً بنعومة ، فانفتح عريها كاملاً كأنه يتأهب . . وتأوهت المرأة مغمضة . . والتصق فرخ الحمام أكثر بالأرض . . واغمض هو الآخر ! ونبض في السكون تاريخ كامل للجنس البشري يبدأ من لحظة اشتهاء حتى حلم الولادة . . ثم المقبرة التي تقبع في آخر طريق الأموات يا سعدى ! !

وخرج من الكهف كل العراة الذين أودعوا هذه الأجساد دفقها الشبقي الأخاذ . . وسعدى تستسلم مأخوذة بالمعجزة المنتظرة . . سعدى وحيدة مع الحلم والرجل ! وحيدة مع لمساته المصاعدة النازلة . . مع شبقه المكتوم المغلف بالأسرار . . وهو يترك ذكورته تنهمر ، كمطر خراقي وحشي . . يتسلل إلى جسدها ويملؤه ، ويصعد حتى وجهها المحمر بالنشوة والخجل . . واستمر يدمدم ، ثم عصر « المكان » بأصابعه عصرة خفيفة ، واختلجت المرأة النائمة ناسية كل شيء وباعدت

بين فخذيها العاريين . . وصعق الرجل المأخوذ بالحركة التلقائية . . وتمددت النشوة فيه حتى أطراف أصابعه . . وغمره شعور حارق . . حارق . . وذهول كثيف . . وتحركت قوى مكتومة متفجرة بضجة صاعقة عربيدة . . وتطوّح رأسه وكتفاه وذراعاه بآلية الانقياد النشيط ، وانهمرت على الكفين وخزات الاسرار الممنوعة . الأسرار الأزلية الكامنة في عري امرأة مستسلمة ، لبطأ حصانك هذه الأرض المحرمة . ولتكن مغمورة بالدم كليلة انقضاضها . . عذراء . . لك . . لك . . لك . . » .

وطنت أجراس وحشية وتسلقت كفه الضائعة المتشنجة جسد الفرخ المستكين . وفي لحظة كان رأسه يطير بعيداً إلى الجدار الكهفي الرطب . وترك الجثة المتخبطة الصغيرة تنزف من شرايين العنق الناعمة دماً أحمر قانياً لزجاً وحاراً على البطن الحريرية المكشوفة .

وأنت المرأة وتمطت . . ورأى أصابعه تكتسي هي الأخرى دماً حاراً لزجاً . . . فأحس بالتدفق يبلغ مداه ، يصير سيلاً من نار وانبهار . وقوة ماحقة عاتية تعبر خلاياه وتدوسها . فخار خواراً مكتوماً كثور متوحش ودفع جسده الملتهب فوق عريها ، تاركاً فمه يحتضن شفتيها . . . واختلجت المرأة تحته اختلاجة مقيدة ، ثم بدأت شمس حمراء جهنمية تسطع لافحة أركان الجسد الأربعة . ورياح اسطورية تعصف عاتية . . عاتية . . في عالم غريب . . غريب . . وغارق في جنون أخاذ .

* * *

وأخيراً بدأ كل شيء يهدأ ويسترخي مشعثاً منهاراً ، كما يحدث لوجه الأرض بعد عاصفة . ثم انقلب لاهثاً خائراً ، مثبتاً عينيه في السقف الصخري للكهف العتيق .

* * *

لم يسبق أن حدث له شيء مثل هذا ! ! !

النفق الخلفي ما يزال يعبق برائحة البخور التي لاتجد مهرباً ، والظلال

تنسكب بعيداً في الطرف الداخلي حتى تصبح ظلمة . . .

والشيخ يستلقي على الفراش وحيداً ، يزحف على قلبه ليل كثيف ، وحداد مبهم . . . عاجز عن كل حركة . . عاجز عن كل تفكير . هش خاو كجذع شجرة هرم منخور .

أغمض عينيه . .

ثم عاد يتسلق بهما سقف المغارة ثم طاف على جوانبها المتعرجة المتكسرة حيث لايصل الضوء ولا النسيم ، على الأعماق التي كتب لها أن تظل هكذا مثقلة بلونها الجنائزي الكئيب . . ثم عاد فزفر متخلصاً من دبق الأنفاس المحتقنة وراح يحدق ثانية . .

فراغ في فراغ . . .

لهذه المغارة نهاية . ولكنها الآن تضرب بعيداً بعيداً ، دون أن يلمح أي ضياء ، وتبدو بعمق لانهايتها المبهمة ، ملكوتاً من الظلام والفراغ والصمت الثقيل . .

لم يسبق ذات يوم أن حدث له شيء مثل هذا .

عانت المرأة في صمت تلك اللحظات الجهنمية الدنسة ، ثم نهضت فور تحررها من جسده مستعيدة وضعها المألوف دون أن تنطق بحرف . رآها تستدير خارجة من البوابة الداخلية ملتفتة لتلقي إليه تلقفها أولاً كنداء ، ثم كمطرقة ، أحس برأسه ينهار تحتها . وومضت العينان فجأة ثم انسحبت المرأة مسرعة وخيل إليه أن ثمة دمعة قد انحدرت على وجنتيها فقفز كملدوغ ، صارخاً بفحيح :

ـ سعدى . . سعدى . . !

يريد أن يقول كلمة واحدة . . أية كلمة . أن ينفض ثقلاً زحف على صدره دفعة واحدة . ولكن المرأة لم تلتفت ولم تنطق . عالجت الباب بهدوء فأز مفسحا طريقا لها ، وارتمى الرجل بائساً ملوثاً مرفوضاً ، متروكاً لوحده مع ذلك البريق المعجل في عيني امرأة عرفها رجل ليس لها . . بريق صامت قاطع كالسيف . . .

وأن الرجل من جديد وهو يزفر من أعمق أعماقه : « سعدى . . سعدى ! ! »

ورجّع الكهف الصدى . وانقلب الشيخ حسين تاركاً للفراغ والسواد أن يخترقاه ، وللندم أن يتسرب حتى أطراف أظافره ، وأخذ دبق ملوث يعلو جسده . .

ثم مازال يتكاثف . . بتكاثف . . بتكاثف . والرجل يئن وينهار مستلقياً . . مهزوماً . ينهار دون أن يلامس أرضاً ما . وتحدرت صخور مجهولة على صدره ، وعلقت أعصابه على عاصفة ، فانقلب على وجهه متشنجاً قابضاً بأظافره على الفراش المدنس في لقطة وحشية كلقطة هر . . . ثم رويداً رويداً بدأ يتراخى كخرقة منشورة في الريح . . وحين انقلب على جنبه امتدت يده بغير ارادته لتمسح دمعتين . . وأحس أنه قد بدأ يستريح كأنما حل فيه شيطان ثم غادره ! !

لم يسبق ذات يوم أن حدث له شيء مثل هذا ! !

المرأة التي تركته يفعل ما يريد ، جعلته ينهار كطفل أشعل النار في ثيابه .

المرأة التي لم تمد يدها إلى جسده منحته اللذة حتى أقصاها . . ومنحته الهاوية حتى مستقرها ! !

هذا الجحيم الذي تخلفه وراءها كيف يمكن أن يتكون دون كلمة ؟ ؟

امرأة سرحان السليم تجيئه كما تجيء عاهرة .

تعرف ما عليها ! يقيهان معاً طقوس الدنس . هنا في نفس المكان وعلى نفس الفراش ، بلذة متبادلة ، وبلا لذة أحياناً . . .

هي الأخرى امرأة لاتلد . ولكن زوجها يسحق حياته في رحى الخمر والقمار ، ويجبرها معه تاركاً جسدها وروحها وحياتها كلها تتهشم دون أن يعيرها التفاتة . نجمه يوشك على الانطفاء . . . باع قميصه مرة ، ومرة أخرى حذاءه . . ثم عاد فبدأ يبيع الأرض . . ولن يلبث طويلاً حتى ينتهي منها . . ولا يعرف أحد أين نهايته ؟ وكيف ؟

والمرأة قد نفضت يدها منه . . وراح كل منهما يتدحرج وحيداً إلى جحيمه الخاص .

قالت لحسين ذات مرة إنها ستتزوجه يوماً ما ! وانقلب الشيخ بضحكة هستيرية . . وضحكت هي الأخرى ثم قالت له :

ـ أنت لاتصدق . . مع ذلك سترى ! !

وبدأ قولها يخيفه ! ولكن شيئاً ، لم يكن قادراً على منعها من المجيء . . .

تريد أن تأتي . . أن تتشمم جسده . . أن تراقبه وهو يتحرك مالئاً برجولته ودفئه فراغ المكان ! ! ولم يشعر مرة بالندم !

أماهذه . . ؟ ! ! « آه ياسعدى » !

جاءته بكل سذاجتها وبراءتها ، فدمرت كل شيء ! ! « ماالذي يحدث لو خطر لهذه المرأة خاطر مجنون ؟ »

عبَرَه خوف فاجع ، رجه رجاً . . ثم لم يلبث ان استقر . .

وأخيراً عزم على أن ينسى القضية . .

خرج مسرعاً الى البيت ثم عاد بكتاب عتيق ذي ورق أصفر وزجاجة مليئة حتى ثلثيها « بالعرق » وكأس ، وابريق ماء من الفخار المدهون . .

عب شيئاً من الكأس ، وتمطق . . وتوهج فمه بحرارة لاذعة ، وشعر بالاحتراق الناعم يتسرب إلى حنجرته ، وفتح صفحة من الكتاب ، ثم مالبث أن أغلقه ورماه إلى جانبه . . ثم عاد يشرب دون أية متعة .

يحدق في السقف للمرة العشرين . يبحث عن طفولته في ذكريات ضوء نسيه تقريباً . طفولته في القرية الأخرى . وامرأة خاله منحنية على طفل ميت وهي تبكي . . ورجال يقولون « كلنا أموات ! » كان ذلك من زمان بعيد . .

الذكريات تخونه قليلاً . . . مضوا به إلى القبر ، وبكى هو . . ثم على الساقية المنحدرة من « العين » بين شجرتي حور كبيرتين ، ينصب في الظل طاحوناً من القصب . يقضي وقتاً طويلاً في شق القصب وفي ادخاله متصالباً بعضه في بعض . . ثم يعود من جديد فيصالب قطعاً صغيرة معترضة مع الرؤوس الأربعة . . ثم يدخل عوداً قصيراً في المنتصف ثم يحفر حفرة ضيقة في الساقية . . وتدور الطاحون . . تشفط الماء إلى الوراء . . ولكنها تدور . . تدور ! ! إلى الوراء . . نعم ! ولكنها تدور ! !

قال الرجال : كلنا أموات ! ! والطاحونة تدور . . والمرأة تصرخ أياماً بلياليها دون توقف .

وهو في لحظات عجيبة ، يركبه شيطان . . نعم شيطان يحس به يدخله ، فلايملك إلا أن يحطم شيئاً . ثم يتظاهر بالبراءة تاركاً بيت خاله يغرق في دوامة الصراخ . . يطلق الجدي الصغير على ضرع أمه أو يترك الجرة الفخارية الوحيدة تنقلب وتنكسر دون أن يشعر به أحد . . ثم يعود رافعاً براءته على ملامحه الجذابة مستمتعاً بالخلاف الذي ينشب ، حالماً بالدموع التي ستنسكب من عيني المرأة

المضروبة . . المرأة التي يكرهها !

امرأة خاله تلك . . يكرهها كثيراً دون أن يعرف السبب !

هو الآن يشرب . يضع كأسه على فمه وينقلب الكهف جانباً .

تواريخ مظلمة مجنونة تتداخل ، في عمق الكأس وفي عمق المغارة : « كلنا أموات ! » ولكنها تدور ! « ابكي أيتها المرأة . . لن تجدي من يكرهك مثلي ! »

في عرس ما ، وقف بين امرأة ورجل . . قرص مؤخرة المرأة بهدوء ووقف أمامها . . والتفتت هي ثم بصقت في وجه الرجل . . واستمتع بالمنظر كما لم يحدث له مرة أخرى . . وصعد الشجار حتى صار ضجة اقتتال ، وهو يرقب ، كاتماً تلذذه . وسال دم من جبين واحد من المتشاجرين . . وفي آخر الليل لم يستطع النوم . ظل يبكي حتى بلل المخدة .

لم يكن أحد يعرف شيئاً من ذلك . عاش في تلك القرية منفرداً ، مكتفياً بوحدته . جاعلاً أسراره الخاصة ملكاً له دون شريك . ومع ذلك فالجميع كانوا يحبون « الصبي الجذاب الهادىء ، الذي تحسبه لوقاره ابن السبعين . . »

هكذا كانوا يقولون عنه . . وهو الذي تمتع بانفراده طوى جناحه على ألم خاص لم يستطع أحد أن يعرفه . وحتى هو نسي التفاصيل المهمة فيه !

ماالذي يهم الآن ؟ انه يشرب ! ! والعجوزان اللذان استيقظ ذات يوم على صراخهما بعد منتصف الليل ماتا الآن !

سمع بأذنه مالم يكن قادراً على تصديقه . . أشياء لايجرؤ على تذكرها ! ! ثلاثة أخوة صغار قد ماتوا تباعاً . . وها أمه تصرخ أن أفعال « الشيخ محمود السعيدي » « الشيطان محمود السعيدي » هي التي قتلتهم . « الله يمهل ولا يهمل يا عدو الله ! »

هكذا اذن تخاطب أباه ؟

وضرب الرجل بجماع يديه الاثنتين ظهر المرأة وكتفها وصدرها ورأسها دون أن ينقطع تعدادها لافعاله الشائنة . .

أبوه يفعل كل هذا ؟

تلك الأحلام السعيدة التي ينسجها لنفسه لن يكون لها مكان بعد الآن إذن ؟ وأبوه هو . . الشيخ محمود السعيدي يفعل كل ذلك ؟ ولكن المرأة لم ينقطع صوتها ،

تعدد أشياء كثيرة متحدية أن يرد . . والرجل يضرب . . يضرب . . يضرب . . وهو جاثم كفرخ من الحمام لايجرؤ على حركة .

وأخيراً تصرخ المرأة بصوت مقلوب . . ويقفز ، هو الصغير ، هلعاً صارخاً . . وفجأة يتوقف كل شيء . الرجل بملامحه الحازمة الصارمة الغاضبة ، ينظر إلى يديه ويتراجع مدمدماً مزبداً والمرأة تكتم صراخها حتى يصبح بكاء متقطعاً ثم زفرات متهدجة محترقة. ثم بجلسان هنا وهناك يدير كلٌ ظهره للآخر ، وهو يتوقف بينهما دون أن يقول له أحد شيئاً ، ويظل بكاؤه يسيطر على الجو المشحون بالغضب حتى يتهاوى في مكانه أخيراً .

وقبل أن يغفو يصيح ديك ثلاث صيحات متواليات . . الفجر يقترب وعيناه المخضلتان تتوقفان عن البكاء . . ويستيقظ في فراشه صباحاً ممتلئاً برعب الليل الذي بقي مقيماً في عروقه الصغيرة . . .

وقبل مساء اليوم التالي كان قد رحل إلى قرية أخواله ! !

« أيها الشيخ السعيدي ! ! . نعم . . هكذا . . » يشرب الآن ثم يشرب . بينما الطفولة تتراجع لاهثة معذبة . . « تشفط الماء إلى الوراء ولكنها تدور ! كلنا أموات يا شيخ ! » يشرب الآن مستسلماً لغبش الرؤية المتساقط على عينيه . بين الطفولة والكأس حكايات لاتكاد تنتهي ! ! « حجابات » الشيخ محمود و « حجابات » الشيخ حسين ! ! حفظ صلوات لم يعثر لها على أثر في القرآن ولا في السنة . تعلم أشياء مدوخة ، وحضر محافل مليئة بالرهبة الفارغة .

بين الطفولة والكأس يقوم اكتشاف العبث الرهيب الذي يغمر الاشياء . . وتقوم صلوات ملفقة ساخنة . . ووصايا الشيخ محمود السعيدي ! « حاول أن تكون سعيداً . الجنة هنا على الأرض ! ! » ذلك الرجل قال إنه اكتشف أنه قد عاش خدعة كبرى ! ! ! وكان بالطبع عاجزاً عن الفهم ولكن الشيخ السعيدي شرح أشياء باهتة . . ثم قال أخيراً : « استعمل راسك يا حسين ! ! » وعرف حسين أنه يعيش في فاجعة تبدأ من تلك اللحظة وأنها لن تنتهي إلا بانتهاء حياته . قال الشيخ السعيدي : « يا حسين لقد عشت معذباً بالشك في كل ما عرفت . . وقد جربت العالم ولم أخرج بغير الندم ! تعلمت أن اندم يا ابني ! ! منذ كنت مثلك حدث ذلك . . وعليك أنت أن تعيش دون ندم ! جرب العالم يا ولدي . . لكن . .

دون ندم ! ! »

يهتف من خلال الغبش المتساقط على عينيه « أيها الشيطان السعيدي ما علمتني ؟ ! ! اهكذا يفعل الآباء ؟ » كيف يمكن لرجل أن يعيش بلا ندم ؟ . كيف . . كيف ؟ ؟

هاهي سعدى تأتي . أو كان الشيخ السعيدي يعرف ذلك ؟

الندم والموت بين المقبرة وأول بيت ! والكهوف العشرة يصلّ في أحدها رعب التوقعات المقبلة . . . « كان شكل سعدى شكل من يستعد لإثارة فضيحة » ! الندم والموت . . . ! ! فلتكن ظلمة أبدية ! !

وبين الكأس والطفولة ضفتان : واحدة للدنس . . . وأخرى للأدعية التي تكتم أسرارها تحت أشكالها المقلوبة . . .

وتأتي النساء بين هذه وتلك ، يستسلمن معه للظلام : ظلام الدنس أو ظلام الأدعية الملفقة ، الملفوفة « كأحجبة » . . والغبش يتساقط ، والكأس يميل على الفم المحترق ثم يرجع ، ثم يميل من جديد . . وتنزلق خمرة إلى أعماق الجسد ، والتلوث يتكاثف . . . يتكاثف ، مثل مخاضة من الطين والروث ! !

تأوه دون أن يعرف ، آهة مكتومة مختنقة . . ورن الصدى ، فاحس كأنما مسلات من الفولاذ تثقب أذنيه . . خيل إليه أن الكهف يتكلم ! . الحيطان الصخرية المتعرجة بظلالها المفتوحة إلى الداخل كمظلة من السواد الثقيل تتكلم الآن ! !

لم يمتلىء بالرعب دفعة واحدة ، ولكن الخوف غزاه بهدوء . هذا الظلام تسكنه اشباح تتأوه . . .

زفر ثانية وسمع الصدى ، لابد انها حية . . . حقيقية . . . وإلا . . فمن أين ؟ ؟

بين الكأس والطفولة كل هذا الفراغ وهذا الصمت الذي يتحرك الآن ! ! ! فيه روح إذن ؟ هذه الظلمة تتكون لمفردها ؟ هل تتكلم وحيدة دون فم ؟ ؟

تأوه مرة ثالثة بقوة . . وردد الكهف . . بقوة أيضاً . هكذا . . هكذا . . هكذا .

يا حسين السعيدي ! في الظلمة التي تتبسط أمامك روح مستورة تستفزك . فليملأك رعبك القادم . . رعبك الذي لن تهرب منه أبداً .

الشيطان الذي يغزوك حينما تكون وحيداً في لياليك مع هذه الأوراق المصفرة الملفقة ، الغامضة ، والسراج الواهن الذي لايكاد ضوءه يبين من أين يخرج ؟ وأين يستقر ، إذا لم يكن لهذا الكهف روح ؟ ! روح حقيقية تقيم فيه بينك وبين الظلال العميقة الواسعة ؟ ؟ تغزوك من ضفة الكأس أو من ضفة الدنس التي ترسو فيها أحلامك ، أو تسبح فيها خيالات النساء ذوات الأرداف المستديرة والرغبات الغامضة . . .

في اللحظات الفاصلة ، قد يخرج رجال . . . وربما رجال عراة . . وربما يكتسون بالجلود كما في حكايات الجن والسحرة ، وأنت وحيد هنا ملوث بخمرك ودنسك . . . فيقيمون لك عرساً خرافياً ، رقصة شعائرية رهيبة ، كتلك التي تمارس بعض طقوسها على رائحة البخور في حضرة امرأة تعطيك ثقتها وعريها بانتظار معجزة ما ! فليزحف خوفك إليك وليملأ دمك فأنت بين المقبرة وأول بيت هناك ، داخل هذه الكهوف العشرة . . وحيد وحيد . . وحيد ! !

تشرئب عروق جسده كأنما تريد أن تغادره ، ويدور الدم سريعاً ، سريعاً ، ويحترق وجهه في لحظة شقها صراخ قطة بائسة حلت المكان . .

يشتعل جسده كله . . ثم يصير رماداً بارداً مثلما تنصعق شجرة . . ثم تقف أشعار جسده ويتيبس الكأس في الفراغ القائم بين الأرض والفم ثم يسقط ! ! ويتأوه معزماً بكلمات متنافرة مضطربة . . ثم فجأة يقوم فيحمل السراج ويخطو نحو الظلمة .

وبينما أخذت تتبدد ، راحت الحيطان تتراقص ، والغبش يتساقط في العينين المتعبتين . وأخيراً وصل إلى أقصى المغارة وقفزت القطة الحبيسة هاربة عبر البوابة وقد علق أنفها برائحة دم طري . . ويعود حسين السعيدي راكضاً نحو الفراش كمجنون ! ! ! وداس على شيء لزج تمعج تحت قدمه . . شيء رخو كقطعة من اللحم . . .

وانهرس جسد فرخ الحمام تحت قدم الرجل الثقيلة ، التي انزلقت . . . وأحس حسين السعيدي أنه ينطرح أرضاً ، وأن السراج ينقذف بعيداً

وينطفيء . . . ثم لم يعد يذكر شيئاً ! ! !

وحين أفاق كانت الشمس تتسرب من شقوق الباب الأمامي عابرة الى البيت الساكن . . . وفرك عينيه ، وتطلع حوله : الكهف مضاء بنور قليل . . .

وثمة فراش ، وكأس مقلوبة وزجاجة ، وسراج متباعد قليلاً مقلوب ومنطفيء ؟ ! !

فرك عينيه محاولاً أن يتذكر وبدا الأمر كما لو كان مجرد كابوس شيطاني مسحته تلك الأشعة المتسللة ، مسحاً . . . تاركة مكانه حزناً غامضاً لكنه هادىء وعميق ! ! !

- ٣ -

داخل القرية الهادئة يتسع ظلماً حارق ! يتسع منتشراً في الدائرة الصغيرة الممكنة ثم يصطدم بالجدران التي لاترى ، ثم يرتجع حاملاً تلوثها الأزلي المتراكم . . . فتملأ الجو خيبة ناعمة تغل في الأجساد الحية النشيطة التي تبدأ الليل بترتيب مقلوب لاعمال الامسيات الهادئة . . .

ويشعر الرجال بالفراغ الكبير الهائل أسوداً ، مسيطراً ، مجنوناً ، وتنبض بعنف وجودي يائس رغبة التحرر منه دفاقة مشعشعة . . . ثم تنحط موزعة ضائعة لتصير نوعاً من اليأس الغامض يجعل الدهشة من الأشياء ـ اية أشياء ـ امراً غير ممكن ، ويدفع أولئك الذين يتميزون بحساسية خاصة إلى الإغراق في تصور مغامرة صامتة : في لعبة الورق . . . أو في كأس خمر جماعية تنتهي غالباً إلى غضب مشلول ! ! وفي آخر الليل تحتمل النساء عبء انتظارهن اللامجدي . ويرقبن في كثير من النقمة ، تساقط تلك الاجساد الصلبة مصهورة في دمار تصوراتها الغامضة وحنينها المجهول ، دون أن يحملن لذلك أي اشفاق خاص أو مشاركة . ويغوص الرجل في وحدته مثقلاً بالهموم الماضية والآتية ، دون أن يجد لذلك تفسيراً مقبولاً . .

والأيام التي تتلو مجيء « الفرس الشقراء » عادة تشهد اندفاعات محمومة إلى مغامرات هزيلة ، يعرف أصحابها سلفاً أنها لامستقبل لها ! إلا أن نوعاً من التحدي المشوب بالغضب واليأس يجرف الرجال في تياره . . فيندفعون أكثر بعاصفة

النقمةعلى الحياة والخوف منها إلى شكل من التأكيد على الوجود الذاتي . . . الوجود الذي تحكمه دائرة المال البعيدة ، تلك التي يتعلقون بأذيالها في كبر وفي عناد . دون أن يقود الأمر إلى شيء . . . سندات يوقعونها ببصمات الإبهام . . . يعطون « كلمتهم » وينفذون في تسام محرق ، من أجل أن يشعروا بفخر لحظة الامتلاك . . اللحظة المتساقطة مثل شهاب ! !

وفي الدكان الذي يجدد خمره كل يوم يجتمعون كأنما هم في حفل سري صامت ، ويغلق الباب من الداخل ، ويسنده بظهره أحد اللاعبين ، أو المتفرجين الذين ينتظرون دورهم ، امعاناً في الاطمئنان . ويمنع الأطفال من الاقتراب ، ويتوافد رجال من قرى أخرى ، يشتركون في الجمع الهادىء ، ويقامرون دون أن يتنفسوا ، وتشتري النساء حاجاتهن من النافذة الخشبية الضيقة نصف المغلقة . ومع ذلك فالاسرار تتسرب . والنسوة يندبن حظهن أحياناً أو يقذفن صاحب الدكان بألوان من الشتائم . . . فيغلظ راشد العلي في الأقسام أنه لم يرَ زوج هذه منذ الصباح ولا زوج تلك منذ يومين . . وانه ربما ذهب بعضهم إلى البلدة القريبة . . أو تلك القرية أو التي تجاورها . . ثم يغلق نافذته ويعود ليرفع شيئاً من النقود ، عن الطاولة العامرة التي يقامر عليها الرجال في وجد صوفي يستغرقهم حتى أعمق أعماقهم .

قال أبو حامد مخاطباً جاره وهما يتكئان مساء على مصطبتيهما المتجاورتين :

لقد حل الشيطان في هذه القرية يا أبا محمود . . . منذ باعوا الزيت وأغليهم لاتعثر له على أثر ! !

وتنحنح أبو محمود وهمهم :

ـ يقول المثل : الثعلب بلع المنجل . . . أ . . . أنت تعرف التتمة ! !

ـ ولكنهم لايفعلون مثل هذا بعد الحصاد ؟ !

بعد الحصاد ؟!بعد الحصاد ! ! هه . . ما الذي لايفعلونه ؟ بعد الحصاد . . نعم ! ولكن أيام الحصاد ذات طعم خاص . . مرّ ودبق ومدوخ . . أيام الحصاد تعيدهم إلى الأرض فتحنيهم كما تفعل العاصفة بالزرع الصغير . . . والحصاد هجرة ، تبدأ منذ أواخر أيار وتمتد حتى نهاية حزيران . . . هجرة نساء ورجال يتركون البيوت والأطفال برعاية الأولاد الكبار ، ويرحلون شرقاً نحو سهول حمص

وحماه ، بثيابهم الممزقة وكوفياتهم العتيقة ، وقد عصبوا المناجل بورق سميك وربطوها بالخيطان كي لاتنثلم . . .

يهاجرون ويعملون . . . ويعودون . . جماعة واحدة ! إنهم يخافون أن يتفرقوا في « ذلك العالم المجهول » المليء ـ كما يدعون ـ بالعدوان واغتصاب الأجور ! ومع أنه لم يحدث مثل هذا الأمر لواحد منهم تقريباً ، إلاّ أن ذلك كان ـ في نظرهم ـ بسبب هذا التضامن الذي لاينفك حتى ترجع الجماعة . . .

قال أبو حامد وهو يلف سيكارة بهدوء وفور :

ـ ولكن . . . تلك أيام ! !

ومسح أبو محمود لحيته البيضاء وهز رأسه :

ـ أيام . . نعم أيام !

نكاد الذكرى تعود به إلى أيامه الخاصة !

إنه الآن رجل عجوز فارقه الأولاد وبقي وحيداً مع أم محمود التي لايتوقف لسانها عن ذم كناتها وفضح « غباتهن الاسود » وسوء تدبيرهن ، معلنة أن ذلك لابد أن يقود أبناءها المساكين إلى كارثة . . وكان الرجل يهز رأسه دائماً ويمسح لحيته دون تعليق بينما توالي حديثها الغاضب ، الذي لايلبث أن يتلاشى كفقاعة صابون .

تلك أيام . . نعم . . . إنه لاينسى يوم كان يرحل هو وأم محمود أيضاً !

ينام على البيدر شهراً كاملاً ، معبئين بغبار الزرع وحسك السنابل المتطاير وعرق النهار المتصبب من كل خلية في الجسد تحت وهج الشمس التي لاترحم !

ورغم كل شيء فإن أحداً لايستيقظ حتى الفجر ، بل يغفون مثقلين بالتعب الشامل المضني . . .

يستريحون في التاسعة حين يجيئهم الإفطار . . تمر أسود وخبز . . واحياناً لبن . . ويستريحون في الظهر ساعة الغداء . . حتى إذا مالت الشمس للمغيب عادوا إلى بيت « معلمهم » يجرون أقدامهم جراً فيتناولون شيئاً من الطعام . . ثم يذهبون إلى البيادر القريبة ، ليلقوا بأجسادهم على أول مكان ممهد يصادفهم ! !

تلك أيام . . نعم ! تلك أيام ! !

ناول أبو حامد جاره علبة الدخان وهو يقول .

ـ ولكن أموال الحصاد يبذلون من أجلها عرقاً وجهداً . . ولذلك فهم أكثر

حرصاً عليها !

ـ إنهم يبذلون الجهد دائماً . . ومع ذلك . . أنت ترى ! إنهم لم يتوقفوا عن اللعب حتى يوم كانت تنكة الذرة بثلاثين ليرة .

وعقب أبو حامد ، وهو يرقب ولده قادماً في طريق الحارة :

ـ أيام « الميرة » ! ! كان الفرنسيون يصادرون كل شيء ! الميرة . . لعنة الله على الميرة[1] !

هو يتذكر جيداً يوم هرّب تنكتين من الذرة من قرية في سهل عكار . . كان موظفو الميرة يصادرون الحبوب . . أية حبوب ! وكان الامساك برجل يرتكب هذه الجريمة يعني الحبس والضريبة الباهظة ، إن لم يتوفر في جيبه شيء من المال يدسه في يد رئيس الدورية خلال كلمات الاستعطاف الباكية .

قال أبو محمود وهو يستعيد ذكريات سنوات طويلة من الجوع :

ـ لعن الله تلك الأيام ! !

وقفز حامد على مصطبة أبي محمود ثم قرب وجهه من وجهه وهو يقول :

ـ أبا محمود . . أحزرك حزورة ؟

وضحك الرجلان بهدوء ومحبة هذا الصبي الذي يذهب إلى المدرسة الوحيدة في المنطقة قاطعاً في المطر والوحل أربعة كيلو مترات مرتين كل يوم مغرم « بحزورات » الجد أبي محمود . . يقضيان في معالجتها سهرات طويلة ، وغالباً ما كان الصبي الذي نجح الآن إلى الصف الخامس يفلح في حلها . . كانت النجابة ظاهرة عليه . وها هو الآن يوشك أن يصبح « صاحب شهادة » وربما موظفاً يحتاجه الناس ويتمنون رضاه . . من يدري ؟

وكانت أم حامد « بحكمتها » التي تتجلى غالباً في لسانها السليط ، هي التي جعلت أبا حامد يتوجه ذات يوم إلى المدرسة ويكلم مديرها الذي نصحه أحدهم بأن يخاطبه دائماً بقوله : « يا ابانا » . .

ومع إن أبا حامد أحس بلسانه يتلجلج حين عرف أن المدير خوري فرنسي

---

(١) كان نقل الحبوب ممنوعاً خلال الحرب وكانت المؤسسة التي تتولى مصادرة كميات الحبوب مهما كانت ضئيلة تسمى «الميرة».

وأنه يتكلم العربية بطلاقة ، فقد خدمته مصادفة سعيدة !

ذلك إن حامد رأى صورة أرنب معلقة على الجدار. وسرعان ما أدار ظهره لمن حوله وراح يتأمل الصورة مأخوذاً بمدى ما تشبه الأرنب الحقيقي ! !

قال له الخوري :

ـ هل تعرف هذا ؟

ـ إنه أرنب ! !

لم يبد على الصبي أي تعثر . . وتمنى أبو حامد أن يوبخه على هذه الجرأة غير اللائقة . . ولكن القس ابتسم له قائلاً :

ـ لابد أنك رأيت كثيراً من الأرانب إذن ؟ !

ـ نعم يا سيدي ، وفي أول هذا الصيف ساعدت واحداً منها على التخلص من ثعلب !

ـ أوه أنت ؟ ! إنك تتذكر الحكاية إذن ! ! لابد أنها حكاية ممتعة !

ـ نعم ياسيدي . . كان فرخاً صغيراً . . .

ثم أخذ يروي حكاية جعلت الخوري المهيب يغرق في الضحك وهو يتخيل الثعلب وقد أوقعه هذا الصبي الضئيل ، ذي الوجه الوسيم في مأزق حرج . .

لم يكن باستطاعة أبي حامد أن يجزم ما إذا كانت تلك الحكاية حقيقية . . . أم أن الصبي قد سمعها من أحد ، فظنها حدثت له . . ولقد ضحك من كل قلبه وهو يرى ابنه يصورها بحركاته مقلداً الثعلب حيناً ، والأرنب حيناً ، ونفسه حيناً ثالثاً . .

وسأل الخوري وهو يربت على كتفي الصبي ويشده نحوه :

ـ هل سبق وتعلمت شيئاً من القراءة ؟

ـ نعم . . أقرأ . . وأكتب ، ولقد درست القرآن منذ عام عند الشيخ !

ـ كم عمرك إذن ؟

ـ تسع سنوات !

ـ أوه مسيو حامد ! سأضحك إذن في الصف الثاني وسنكون صديقين دائماً . . .

هاه ؟ !

ولقد بر الرجل بوعده فأغدق على حامد رعايته ومحبته ، حتى إنه يوم غادر البلدة بعد عام عائداً إلى فرنسا لم يتمالك أن يبكي وهو يودع الصبي النجيب .

إن حامد يتمتع بحيوية تجعله لايكاد يستقر . ومع ذلك فحين يبدأ أبو محمود بأول حرف من حزورته الجديدة الساذجة ، يلبد في الأرض كأنه جزء منها ، منصتاً بكليته إلى الأحرف المتكسرة التي تخرج معوجة من بين الاسنان الخربة في فم الشيخ !

أما هذه المرة فحامد هو الذي يلقي لغزه على الرجل .

قال له أبو محمود مداعباً :

لاتجعلها صعبة . أنت ابن مدرسة وأنا رجل جاهل .

ـ لا . . لا . . إنها سهلة جداً .

ـ هات إذن !

وتنحنح الصبي وتلفت ثم قال :

ـ سؤال خارج الحزورة . . هل تعرف بكم باع سرحان السليم زيتاً ؟

واستغرب الرجل العجوز السؤال وأجاب وهو يغرق في التفكير :

ـ بمئتين وعشر ليرات .

ـ كنت حاضراً إذن ؟ !

ـ نعم ! ولكن لماذا هذه الأسئلة ؟

ـ لاشيء . . لاشيء ! هنا تبدأ الحزورة

وهمس الأب زاجراً عن الخوض في هذاالحديث ! فليبع سرحان السليم ما يريد ! وليفعل ما يحلو له . . رجل لايحسب لآخرته حساباً . . يبيع . . يشرب . . يسكر . . يقامر . . ثم في النهاية يذهب جزء من الأرض الصغيرة التي ورثها . . ويزداد هو امعاناً في استهتاره ! خلق هكذا ، ما الذي يريده الآخرون مني ؟ ، امرأته ، نفسها ، تعلمت أخيراً ألا تحتج . . وألا تسأل . . لا أطفال . . لامسؤوليات ولقد صرحت أنها ستضطر إلى تركه ذات يوم .

وكان ذلك منذ ثلاثة أعوام . . ولكنها لم تفعل شيئاً حتى الآن .

ـ ليفعل سرحان السليم مايشاء . ما دخلنا نحن ؟

قال الصبي :

المسألة يا أبي ليست سراً . . وهو لايخجل منها . . دعني استمتع بحزورتي !

وقال أبو محمود وهو يعيد تمسيد لحيته :

ـ هات . . هات . . من المفيد أن نعرف ما يجري حولنا .

أحس الصبي أن الجو قد فقد الكثير من متعته وحرارته بعد نصائح والده التي لايرى لها سبباً ، ومع ذلك فقد خضع لإلحاح الرجل الشيخ أخيراً وقال :

ـ كنت سأطلب إليك أن تحزر بالضبط كم ليرة خسر سرحان السليم في القمار مع العلم أنه لم يبق معه شيء !

وهتف الشيخ بحماس :

ـ واضحة ! . . مئتين وعشر ليرات ! !

ـ خطأ ! لك أن تحزر مرتين اثنتين أيضاً ثم تعلن عجزك .

ـ مئتين ؟

ـ خطأ !

ـ مئتين وخمس ليرات ؟ !

ـ خطأ . . خطأ . . أعلن عجزك ! !

ضحك العجوز وقال :

ـ عجزت صحيح ! ولكن هذه ليست حزورة .

ورد الصبي بحماس مؤكداً :

ـ بل هي حزورة . انتبه جيداً . لو كنت تعرف شيئاً عن سرحان السليم كنت تعلم أنه يحتاج إلى خمسة كؤوس من العرق يومياً لاتزيد ولا تنقص . خمسة كؤوس ثمنها ليرة واحدة ، إذن . . تكون الخسارة في القمار مائتين وتسع ليرات ! !

وأغرق الرجلان في الضحك . . ثم ماليثا أن استولى عليهما حزن غامض على مصير ذلك الرجل المنكود ، سرعان ما تلاشى مع صوت الصبي الذي قال :

ـ هل تعرفان من يقامر هناك أيضاً ؟

ورد الأب مغرقاً في أفكاره :

ـ دعنا من الحديث . . .

« نعم . . دعنا من الحديث ! من هو الذي لايقامر ؟ من ؟ لسوف تعرف ذلك قريباً ! المتفرجون واللاعبون يا صغيري . . يسقطون أخيراً عن نفس

الحافة . . يفتحون لهم حفرة ضيقة . . . يوسدونهم على الجانب الأيمن ملفوفين بالقماش الأخضر . . ثم يتركونهم وحيدين في ذلك الليل الأبدي ! ينصبون لهم شاهدة على القبر . . ويتحدثون عنهم اياماً ثم يميل التراب على الجانبين ، وتتكفىء الشاهدة وتغوص . . وتعود الأحاديث إلى الأحياء . . بعيداً . . بعيداً . . بعيداً ! ! »

وزفر أبو محمود بحسرة وقال :

ـ الملك لله !

ـ ولكن عاصي أفندي نفسه يلعب اليوم . . كان يتحدث مع الشيخ حديثاً هامساً مليئاً بالتوقف والاشارات وهما يجتازان « درب الأموات » وينحدران بين البيوت . . ثم توقفا طويلاً وأخيراً تصافحا ودار الشيخ نحو الحارة الأخرى ، بينما انحدر الأفندي إلى الدكان . .

عاصي أفندي ! عاصي أفندي ! ! تأملا الصبي وهو يتحدث . . ثم خفضا بصريهما . . منذ أن عرفا عاصي أفندي وهو يلعب ! انه يأتي من البلدة ليقيم هنا طقوسه الخاصة . يشرب حتى يدوخ . . ثم يبدأ اللعب . .

عاصي أفندي يستطيع أن يخسر حتى يموت دون أن تنتهي أملاكه ! نصف زيتون القرية يملكه عاصي افندي ! كان موظفاً في التجنيد أيام فرنسا وبعضهم يتذكر أنه كان « مأمور السُّوق »[1] ايام «سفر برلك» فمن يستطيع أن يحصي الأموال التي تدفقت على عاصي أفندي ! ! . .

عاصي أفندي يلعب ؟ ؟ . . هه . . منذ وطئت قدماه هذه القرية وهو يلعب ! يخصص لها أياماً من كل اسبوع . . يأتي فينادم سرحان السليم ولطيف التامر ومحسن السلوم ومهدي العبود . . . وينادمونه . ثم يعقدون « الطاولة » مشمولة برعاية الأفندي : « الدنيا بلا شراب خراب ! » يقذف حكمه ويروي حكاياته دون أن يفارقه مرحه حتى ترنحه الخمر . يلاعب الصغار والكبار . . . « ضع ليرة على الطاولة والعب ! » ذلك هو شعاره ! « على الجميع أن يتعلموا اللعب . . فماذا نفعل إذا خلت الدنيا من اللاعبين ؟ » أحياناً ينثر نقوداً أو يوزعها

---

(١) مأمور السوق: لقب يطلق على من كان يتولى سوق الرجال إلى الجندية أيام العثمانيين.

في لحظات شعور عميق بالتفوق . . لحظات أبوية ! خاصة على أولئك الذين يعملون في أرضه . . يمنحهم بركته ، يعظهم . . ثم يقبلهم على خدودهم وجباههم . . ثم . . ثم يلاعبهم ! ! ! وكانوا والحق يقال ، مأخوذين بروعة هذا العطف الاشراقي العظيم ، يذوبون وجداً في كلماته . يستمعون إليها في حالة أشبه بالمعاناة ، وتدفعهم نخوة عارمة لرد الجميل بالجميل . . واللطف باللطف . . « انهم مستعدون كل ثانية كي يلقوا بأنفسهم عن صخرة عالية تجاه اشارة من اصبعه » أو هكذا كانوا يقولون ! ! « بيننا خبز وملح ! إنه أبونا . . ولحم أكتافنا من خير الله وخيره ! » وكان « المغارسون » منهم مطمئنون إلى أن حقوقهم محفوظة رغم أنه لم يكتب لهم سندات بشيء !

ومع أنه لايتسامح بقطرة زيت ، ولا بحبة قمح واحدة ، بل يأخذ دائماً أكثر مما له ، إلا أن ذلك عدل ! والحق يعلو ولا يعلى ! ! ان كلمة منه تساوي مواسم العالم كله ! ! « يقولون هذا موقنين بأنهم إنما يؤدون واجبهم تجاه تلك المشاعر العميقة الحارة التي يطوقهم بها . . وكان بعض الخبثاء يبتسمون ساخرين بينهم وبين أنفسهم !

والحق أن الرجل نادراً ما كان يمنع شيئاً عن فلاحيه رغم أن وكل شيء بحسابه ! ! » ومؤخراً بدأ يتردد هنا وهناك ، أن الرجل يقل ما بيده ، وأنه قد باع كرماً في تلك القرية وبستاناً في الأخرى . . . لكن مرحه مايزال كما كان . . . وأبوته لاتنقطع عن الظهور في مواعيدها ، بل أنها قد أخذت تظهر في اندفاعات متجددة بعد أن أشرف الرجل على السبعين ، وزاد اقباله على اللعب والشراب ، وفي ذات يوم من شهر تموز الماضي همس زهوان الحلاق لأبي حامد راجياً منه حفظ السر :

ـ الأفندي سيبيع جزءاً من الأرض هنا ان لم يكن كلها . . خلافه شديد مع أولاده ولكنهم لايجرؤون على فتح أفواههم في هذه المسائل ! خذ مني الصحيح . . أنا كاتم أسراره ! اتركها بيننا . . .

ولم يتكلم أبو حامد في الموضوع أبداً فالأسرار يجب أن تصان!! وشعر حامد أنه عاجز عن متابعة الجلوس في هذا الصمت الثقيل ، فتململ قليلاً ثم قذف بجسده تحت حافة المصطبة ، ودار مارقاً في المنعطف الصغير ولم يلبث أن

توارى . . . وتثاءب أبو حامد دون أن يتكلم . . وأحس بالجوع يغزوه . وقال أبو محمود :

ـ طالت زيارة أم محمود وأم حامد !

ـ ماذا تفعل ؟ ! النساء اذا دخلت واحدتهن بحديث نسيت كل ما وراءها !

ـ لعل المرأة مريضة مرضاً ثقيلاً ! من يدري ؟

وفكر أبو حامد قليلاً ثم هز رأسه متضاحكاً :

ـ هه ! حيل نسوان ! نجم الدين يريد أن يتزوج . . . وسعدى خائفة . . عملت نفسها مريضة منذ ليلة أمس . . لعله ينصرف عن التفكير بالزواج !

ـ من يدري يا أبا حامد ؟ من يدري ؟ ؟

وتوقف الرجلان عن الحديث مستسلمين لرطوبة المساء بعد حر النهار ، بينما أخذت النجوم تلتمع في المساء واحدة بعد الأخرى !

- ٤ -

كالعادة ، كان عاصي أفندي محاطاً بضجته الخاصة وحشده المألوف حين اقترب من الدكان ! شباب من « فلاحيه » يتباهون بأنهم يسيرون معه جنباً إلى جنب أو على مسافة قدم واحدة لأكثر ! ! وهو . . هو الذي لاتكاد عيناه تستقران على مكان ، يلقي نظرة مطولة نوعاً ما ، على رقعة واسعة من أملاكه ، راقدة على السفح المقابل ، ويرمي بآخر نكتة له ، ويبتسم ابتساماً خفيفاً ، تاركاً لضحكات الرجال حوله أن تتفجر وتتسع بالغة مداها . . .

يتقدم حتى الباب ثم ينقر برجله ، أسفله المتشقق الذي يفصل عالم القرية الراكد مثل بركة . . عالم الهدوء ذي الحزن الغامض المكتوم ، والنساء المنتظرات ، والأطفال والدواب العائدة مساء من الحقول . . . عن عالم المغامرة الضيقة المجنونة الصوفية المثقلة بأحلام الانتظار المجهولة ، عالم دكان راشد العلي ، والرجال الذين استسلموا لانبهارهم المتفجر وعجزهم المشلول . . .

يدخل بأبهته وتفوقه ، راسماً خطاً جديداً على ضباب السكائر المحتقن ، خطاً من الانفتاح والحرية المقلوبة . . حرية أن يقامر الرجل دون أي اكتراث لكل ماوراءه ! ! ! وبينما اندفع الرجال واقفين مرحبين ، عبرته لحظة تقزز من الرائحة الحبيسة الخاصة ، رائحة أنفاس الرجال والخمر وعطن الأشياء الموزعة على الرفوف ، ودخان السكائر ، فتقلصت شفته العليا وتثنت جوانب أنفه الكبير . . ثم

لم يلبث أن استعاد قدرته على مواجهة كل ذلك ، واعتلاء عرش اللحظة التي تنتظر تفتحه وعظمته ، بانفلاش فوري لطاقم المقامرين !

ـ حيف على الرجال ! تغلقون الباب كي تقامروا ؟ يا ابني من يخاف من امرأته فليضع ذيلاً على قفاه . .

قهقه بمرح معجباً بنفسه ، وضحك الرجال بخفوت ، ولكن زهوان وحده ، ترك ضحكته الرخوة تتمعج في أرجاء الدكان ، والتمعت أسنانه المسودة على ضوء القنديل الذي أشعل منذ فترة ، ثم رفع كأسه التي لم يبق فيها إلا القليل فسكبها دفعة واحدة داخل فمه وهو مايزال يتقد بالضحكة . . .

ـ أنت هنا ياملعون ؟ ! كيف تسبقني ؟

ربت عاصي أفندي على كتفه بأبوة . .

« هنا ؟ » لماذا السؤال ؟ انه هنا منذ أمس . . وحيث يظهر عاصي أفندي يظهر زهوان دائماً ! ! هو جاره في البلدة ، وخادمه في اللحظات التي تحتاج إلى رجل « رجل ! ! » هنا ؟ . . نعم هنا . . وأين اذن ؟ مادام الأفندي سيجيء اليوم فزهوان ينتظر . . . ساهراً أو نائماً . . . مضمخاً برائحة الخمر حتى يأذن عاصي أفندي بالتحرك . . فيتحركان مترنحين ، ويبدأ يحكي حكاياته على طول الطريق ، تاركاً لشمس الأبوة ولإشراق التفوق الزاهر أن يضيئا أعماق الأفندي ، وأن يغمراه ، هو الحلاق البائس بنوع من الشعور : انه مادام مقترباً كل هذا الاقتراب من عظمته فلابد أن يكون هو الآخر أكثر فهماً وأكثر بشرية أيضاً من أولئك الذين ينامون ، لاتفصلهم عن دوابهم غير فواصل ضئيلة من ظلمة الليل ، وأرضية البيت المدهونة بخليط الروث والطين . . .

ـ أعط زهوان قدحاً على حسابي يا راشد . . . ألا ترى أن كأسه قد فرغت ؟

غمغم زهوان هاماً بالرفض ، ولكن الأفندي يرمقه بنظرته الأبوية ، وهو يجلس في الصدر وراء الطاولة المسودة من القِدم والاتساخ ، ويتساكن الحلاق شاكراً ويقول الأفندي مداعباً :

ـ لو كنت لاتسكر . . فكيف كان بإمكاني أن أرافقك في آخر السهرات ؟ كنتَ مثل هؤلاء الذين يريدون أن يقامروا بنظافة . . . ها ها ها . . أرأيت يا زهوان ؟ توقف قليلاً وجال ببصره في الحضور ثم استأنف :

ـ كيف حالكم اليوم ؟ الحقيقة لا أشعر أبداً بالارتياح إلا بينكم . صدقوني أنكم رغم خوفكم من نسائكم تستأهلون أن يكون بينكم رجل مثلي . . .

يضحك هو . . . ويغمغم الرجال بكلمات مبعثرة ، تتطاير في أرجاء الدكان متداخلة حتى تصير زمزمة ، وينتفخ الأفندي قليلاً ، يسحب من جيبه علبة تبغه رافضاً بازدراء علبة أخرى قدمت له فيلف سيكارة ويناول أقرب رجل ، مشيراً إليه أن يدور بالعلبة على الجميع ، يشعر بسعادة حين يرشف زهوان أول رشفة من كأسه الجديدة ويقول :

ـ يلعن والدي ، لو أن كل الأفندية مثلك إذا كان في الدنيا غير الفرح والمرح . . .

يغضي الأفندي مترفعاً عن الملاحظة ويسحب أول « نَفَس » من سيكارته ثم يتمطق تاركاً الدخان يخرج من فمه وأنفه ثم يسأل :

ـ كيف رأيت هذه السيكارة يا محسن السلوم ؟

ويسحب الرجال جميعاً وفي وقت واحد نفساً من سكائرهم ويلوحون برؤوسهم معجبين ويقول محسن السلوم :

ـ دخان أفندية ! معلوم . . هكذا فليكن الدخان يا ابراهيم الحمود ! ! تعرف يا عاصي أفندي ؟ شربت منه منذ يومين سيكارة ونمت ليلتها والليلة التي تلتها وكابوس ملعون يلاحقني لاأدري . . . منام . . . أرى فيه رجالاً يمسكون يديّ ورجليّ ، وواحداً منهم يحشو أنفي وفمي بزبل محروق !

ويقهقه الأفندي مغتبطاً ويقول ابراهيم الحمود :

ـ أنت ذوقك فاسد ! ماذا أفعل لك ؟ مع ذلك فالحقيقة لم أذق دخاناً له مثل نكهة دخان الأفندي . .

ويؤكد الرجال ثانية ، روعة التبغ الأشقر المفروم فرماً جذاباً . . . ويعلن هو كأنه يلقي موعظة :

ـ يا ابني هذا دخان « شك البنت » ! توصية خاصة من جرد « جبلة » لعمكم عاصي أفندي !

يرشف زهوان رشفة جديدة ثم يصرخ براشد العلي :

ـ ياابن الكلب ماذا تنتظر ؟ لماذا لاتصب عرقاً للأفندي ؟ ألا تعرف

عادته ؟ . . تأملوا هذا الوجه المقلوب ! حمار مثلك يلزم له دكان ؟ ! !

ـ الحمار من تتركه امرأته ! !

يقولها راشد ويضحك جامعاً أجفانه حتى تكاد عيناه تختفيان ، ويشرب زهوان جرعة أخرى ويقول بلهجة وقورة حازمة :

ـ أم سنا لم تتركني ! أم سنا تعبدني عبادة ! !

يعيد راشد ضحكته العجيبة هازئاً :

ـ أم سنا عرفتك « تنبلاً » في الفراش . . .

ويتناول زهوان أم راشد بالفاظ مقذعة . . ويستمر راشد في ضحكته مستفزاً الرجل ، حتى يفرغ رأسه من كل ألفاظ الشتائم التي يعرفها ، والجماعة غارقة في الضحك على مشهد التهريج المبتذل الذي يرعاه الأفندي بكل غبطة ، ثم حين يتلاشى صوت زهوان قائلاً لراشد :

ـ أنت كلب ابن كلب ! من بعض الكلب إذا عضه ؟

ينفجر هو بضحكته الأخيرة على الخاتمة الموفقة ! ! ويأمر لنفسه بكأس صغير ، ويطلب من أحد فلاحيه الشباب أن يشتري له « فروجين » وأن يعد العشاء ويحضره إلى الدكان ثم يناوله نقوداً باليد اليمنى ، متلمساً باليسرى أوراق اللعب التي مانزال مستلقية على الطاولة . . . ثم ما يلبث أن يحركها بيديه الاثنتين متفرساً في الوجوه ! ! ذلك أن اللقاء الحقيقي يوشك أن يبدأ . . « صدام الرجال بالرجال » كما يسميه ! أو « لقاء الفرسان بالفرسان » كما يعبر عنه بعد أن يشرب كأسه الأولى .

وسأله محسن السلوم وهو يختلس نظرات إلى يديه المتحركتين على الورق بعصبية ونفاذ صبر :

ـ هل صحيح يا أفندي أنك ستبدأ بتقدير موسم الزيتون على فلاحيك غداً ؟

محسن السلوم أكثر أهل القرية ادراكاً لطبع الأفندي ورغباته . . ولذلك فهو أكثرهم ربحاً منه في اللعب . . . انه يقامر معه بهدوء واتزان في البداية ، منهزماً أمامه في أغلب « لعباته » تاركاً الأفندي يشعر بأنه يسحقه سحقاً ، حتى إذا ما بدأت الخمرة تلعب برأس الرجل المزهو بنفسه ، بدأ يضرب « ضربات » كبيرة متباعدة ، ويحشو جيوبه خلسة ببعض ما يكسب . . فإذا ما أوشك اللاعبون على النهوض بدت أرباحه ضئيلة . .

واعترف له الأفندي بأنه خاض « المعركة » ببراعة « حربية » فائقة ! ! ولا ينسى أن يسرد شيئاً من تاريخه العسكري ، المجيد طبعاً ، في حرب سفر برلك . . أيام كان شاباً لايستطيع عشرة رجال أقوياء أن يقفوا في وجهه ! ! راكباً حصانه الأبيض ، مشرئباً فوق سرجه ، مبتسماً خفية لعشرات النساء اللواتي يحيينه بغمزات عيونهن من شبابيك اسطمبول نصف المغلقة ! ! !

كان هو أيضاً يخوض كل « معاركه » ببراعة ! ! ثم يختتم حديثه بنكتةٍ يتعتعها السكر . . . منقلباً بعدها على قفاه من الضحك . . بينما يتثاءب محسن السلوم وهو يجمع بقية نقوده قائلاً : « صدقت يا أفندي ! ! » ثم يحشوها في جيبه دون أن ينسى وضع ليرتين أو ثلاث في يد زهوان الذي يغمز له على الأفندي ، شاكراً حامداً ! !

ومعارك الأفندي تنتهي غالباً بهذه النهاية المرحة مثلما تبدأ بتلك العصبية ونفاد الصبر اللذان يظهران الآن في حركاته وهو يقلب الورق ويستمع بضيق إلى السؤال السخيف الذي وجهه محسن السلوم . . .

وتأمله قليلاً ثم قال له :

ـ اليوم خمر وغداً أمر ! انهض واجلس هنا . قبالتي . . .

ـ مايزال في الوقت متسع يا أفندي ! الجميع متخمون من اللعب وأظننا لن نجد من يسامرنا هذه الليلة . . وحتى أنا . . لولا معزّتك عندي لما فعلت ! ! الواقع . . .

ـ هه . . ماذا عندك ؟ هل بدأت أيضاً تخاف من امرأتك ؟ أريد رجالاً على الطاولة ، رجالاً شجعاناً ! فلا يصادم الأبطال غير الأبطال ! ! وإذا وجدت أنك صرت جباناً فلا تقترب . . . أين مهدي العبود . . ولطيف التامر ؟ . . ها . . لطيف موجود ! ! لماذا لاتتكلم أيها الخبيث ؟ خسرت اليوم أم ربحت ؟ ؟

ـ بين بين يا أفندي ! !

كان لطيف التامر في الحقيقة متعباً ولذلك فقد أغفى قليلاً منذ أن دخل الأفندي ! ومع أنه كان شاباً لم يبلغ الثلاثين بعد . إلا أن الأفندي كان مغرماً بمجالسته . . انه يعتبره واحداً من أحب « رعيته » إلى نفسه ، أو بالأحرى واحداً من أحب « مخلوقاته » إليه .

كان لطيف التامر قد بدأ اللعب بليرة واحدة منذ سبع سنوات . . ثم عاد الأفندي فخلط عجينة لطيف وجبلها وصاغها وفق « حكمته » العميقة ، ولقنه أسرار الحياة كما عرفها : « من لايلعب ولا يشرب ولايطرب فهو واحد من الأموات ! ! هكذا قال الشاعر عمر الخيام ! ! »

ولم يكن لطيف يعرف لا عمر الخيام ولاغيره من الشعراء . . وقد فهم أنه لابد أن يكون نسخة صادقة تامة عن الأفندي !

ورغم اقتناعه بتلك الحكمة السامية فإن مجلس الانس المعتاد كان يفتقد « لطيفاً » أيام هجرة الحصاد وأيام الحراثة . . وجمع الزيتون . . وشهر الحرير . . فوالدته العجوز تركت أخوته الثلاثة وبقيت معه ، وهي لاتنفك تذكره بأن أرض أخوته أصبحت أفضل من أرضه وأن عليه أن « يعمل شيئاً » يجده قدامه يوم يحظى ببنت الحلال ! !

ولم يكن لطيف ممن تنقصهم الهمة . . وكان فوق ذلك قوي الشكيمة . . وحين كانوا يتحدثون في القرية عن « أراضي المغارسة » ، كانوا يجدون أنه لابد من الإشادة بأرض لطيف ، ذلك إنه كان يصارعها صراعاً شديداً كي تكون أفضل الأرض . . كان « يأكلها أكلاً » كما يعبرون ! !

وكان الأفندي يلاحظ أن أفكار أخرى غير « حكمته السامية » تحاول أن تستولي على الشاب فجاهد مستميتاً كي لاينهزم في هذه المعركة التي هي معركة « تحقيق رسالة » إذا صح التعبير ! !

واعتبر الرجال أن دعوة الأفندي للطيف إلى مائدة اللعب إنما هي تكريم خاص له ، وأنه لايليق به أن يدير ظهره لتلك الرغبة الميمونة من جانب الرجل الخطير . . . فبدأت كلمات التحريض تنهال عليه داعية إياه إلى النهوض . . وقال زهوان وهو يرشف الرشفة الأخيرة من كأسه متوجهاً إلى الرجل الكبير :

ـ يلعن والدي لو دعوتني للسفر إلى باريز إذا لم أذهب .

وأمر الأفندي له بكأس آخر إلا أن زهوان رفض محاولاً أن يستر إشارته إلى انتهاء الكأس قائلاً :

ـ أتركه حتى يحضر العشاء !

ـ كل ساعة ولها ملائكة يا زهوان ! !

وصرخ راشد العلي من بعيد وهو يملأ الكأس :

ـ أريد الآن يا زهوان أن تقول لي من هو الحمار ؟ كيف ترفض رغبة عاصي أفندي ؟

وضحك زهوان ضحكته الرخوة بينما كان لطيف التامر يجلس إلى يمين عاصي محاولاً كتم زهوه وقال الأفندي :

ـ هيا يا محسن السلوم . . هيا ! أنا أعرف أن نارها ترعى قلبك فلماذا تظهر الإعراض ؟ قم كفاك دلالاً قم ! !

وغمز زهوان بعينه لمحسن السلوم الذي نهض قائلاً :

ـ رغبتك أمر يا أفندي !

وأخرج الأفندي رزمة كبيرة من النقود الورقية وضعها أمامه وهو يرتشف آخر جرعة في كأسه الأولى ويناولها من وراء ظهره لراشد العلي . . ثم تأمل الرجال ملياً وقال :

ـ ولكن المقامرة ثلاثة ، عيب وعار على المتفرجين . . آه . . كدت أنسى ! ابن سرحان السليم ؟ أين ؟ ؟ لعنة الله على الشيطان كدت أنساه والله !

قال واحد من الجالسين بعيداً لم يتبينه الأفندي جيداً :

ـ ستلعبون اليوم بغير سرحان السليم !

لكن الأفندي لم يهتم للملاحظة . . بل أحس بشيء من التحدي فصمم على ألا يلعب بدونه :

ـ ذلك رجل حقاً ! ليس في هذه القرية رجل مثله ! ! وهمهم رجال ، وابتسم آخرون بسخرية :

ـ ذلك رجل يعمل حياته كاملة ! أما الكثيرون منكم . . فماذا ؟ تأكلون . . وتشربون . . وتنامون . . هل هناك غير ذلك ؟ الماعز يفعل هذا أيضاً ! هه . . راشد أين سرحان ؟

ـ إنه نائم في فراشي هناك !

وأشار بيده إلى ما وراء قاطع القصب المدهون بالطين ، والذي ينتصب حاجزاً بين الدكان وبين المكان الذي يستعمله راشد للنوم والأكل والاغتسال وبقية حاجاته الضرورية . .

ـ ايقظه . . كيف ينام الآن ؟ ايقظه . . قل له الأفندي ينتظرك على الطاولة . .

همس راشد في أذن الأفندي بشيء ، ولكن هذا صرخ واقفاً :

ـ سرحان السليم ليس معه قرش ؟ أتعرف ماذا يساوي عندي سرحان السليم ؟ ؟ أنا نفسي لا أعرف رقماً يوازي ظفر ابهامه . . مامعه معي . . وما معي معه . .

قال رجل من الجالسين :

ـ سألعب أنا بدلاً منه يا أفندي !

التفت الأفندي بازدراء إلى الرجل وقال له :

ـ يابني انت اذهب والعب الاستغماية مع امرأتك ! أريد رجالاً على الطاولة . . رجالاً حقيقيين يليقون بمقامي . . سرحان السليم ! سأحضره بنفسي !

وتجاوز جمع الرجال المصطفين جلوساً إلى جانب الحيطان البيضاء المتسخة ، وعبر البوابة . . وعبر خلفه راشد . . ومد محسن السلوم يده إلى رزمة النقود فعدها ثم أعادها مبتسماً ابتسامة ماكرة ، ورد الرجال جميعاً بابتسامات ذات مغزى ، وقال زهوان هامساً وهو يغمز بعينه :

ـ الأفندي اليوم طبعه صعب ! سيبيع قطعة أرض في وقت قريب ان لم يكن قد باعها ! اسألوا الشيخ حسين !

همست أصوات متباعدة :

ـ الشيخ حسين :

ـ نعم الشيخ حسين . لقد سمعت اسمه في حديث يحكيه عاصي لأحد أصدقائه . سيبيع شيئاً من الأرض وربما كان الشيخ حسين وسيطاً أو شريكاً .

ـ أبو سلطان ؟ ! ها . .

وعاد عاصي أفندي يجر سرحان من يده ، وهو يفرك عينيه بالأخرى ، فحيا الجميع . . وظل واقفاً في المنتصف ، بينما جلس الأفندي فأفرد خمسين ليرة من الرزمة وضعها في المكان الخالي مشيراً إلى سرحان بالجلوس . .

ـ ولكنني متعب من اللعب . . ثم أنا معي الكثير ، من خيرك ! !

ومد يده الى جيب سرواله . إلا أن الأفندي نهض واقفاً وهو يصرخ :

ـ والله ستلعب ! ووالله لن تلعب إلا بهذا . . فلا تضيع علينا الوقت ! !

لا أحد يعلم إلى أي موقف كان سرحان السليم سينتهي لولا مبادرة الأفندي المحمودة ، فالجميع يعلمون أنه لم يعد معه قرش واحد ، بعد اللعب المتواصل طيلة اليوم ، وابتسم رجال في اطراف المجلس الأربعة دون أن يقولوا شيئاً . ولكن آخرين كانوا يعرفون أن سرحان قادر على ابتداع أية كذبة تساعد على انقاذ الموقف . . انه يتصرف دائماً بثقة . . ويكذب دون أن يخالجه الشك في أن ما يقوله كذب وأنه ليس الحقيقة أو قريباً منها ! ! انه يبتدع أساطير عن نفسه لايملك أحد أن ينفيها رغم أن واحداً ممن يعرفونه لم يصدق منها حرفاً ! ان كلامه الجميل الهادىء المتمق يتسرب من فمه ، فلا يسع الجميع الا أن يطأطئوا أمام هذا الكذب الذي يسيطر عليهم حتى أعماقهم . . وأمام تلك الحيل التي تستخرج من أي منهم ، أي شيء يريده الرجل الطويل النحيل الذي يشهدون نهايته تقترب ويكتشفون حيله واحدة ، واحدة . . لكن . . بعد فوات الأوان .

وأخيراً التأم مجلس اللعب ثانية ، ومع أول دورة للورق بدأ الأفندي يتفتح مثل زهرة عطشى جاءها المطر أخيراً ! !

* * *

محسن السلوم ما يزال ينسحق تحت هجمات الأفندي المحكمة ، وحنكته المدهشة ! ! فعاصي يرسم أفخاخاً وكمائن « لو رسم نابليون مثلها لما انهزم ! !وماذا تعرفون انتم عن نابليون يا ابني ؟ ! نابليون كان ملك فرنسا منذ أكثر من مئة وخمسين سنة ، وحارب روسيا نفسها وانتصر عليها يا ابني . . انتصر على كل العالم ! ولكنه كان دائماً ينهزم في هذه اللعبة أمام ملكة التمسا . . »

يرشف رشفة كبيرة بعد هذه الكلمات الكبيرة التي لايلقي إليها احد بالاً ، وان تظاهروا بأنهم يستمعون . . ثم يفتح أوراقه متقلقلا مضطرباً بعظمة على كرسيه « العلم بحر يا ابني ! العلم بحر . . انني اعرف تاريخ هذا الفارس المغوار يوماً بيوم . . لم يغلبه في الحرب والنزال إلا فارس انكليزي حاصره عند مضيق جبل طارق . . ثم بارزه وقتله . . »

يفتح دورة اللعب بليرة واحدة . . ليرة كاملة غير منقوصة . . ويتطلع مختلساً نظرة إلى أعين الرجال وقسماتهم مراقباً مدى تأثير علمه وفهمه في أنفسهم . .

انه واثق من أن واحداً منهم لم يسمع بنابليون وهو نفسه لايذكر أين قرأ اسمه ونبذة عن حياته نسي أغلب ما فيها . . « ومع ذلك فبين هؤلاء . . أغبى الأغبياء حكيم ! ! » ينسحب الرجال من اللعب ويصرخ مقهقهاً :

ـ أرأيتم كيف يهزمكم الأسد ؟

ويتظاهر الرجال بالأسف على أنفسهم وبالاعجاب بالأفندي الخصيف الذي بدأ يبتلع كأسه الثالثة ، ويستند هو بظهره على العمود الخشبي الذي يحمل سقف الدكان بينما يدور الورق . .

ـ تعرف يا زهوان ؟

يميل زهوان رأسه المترنح رافعاً عينين محمرتين إلى وجه عاصي الذي يراقب الرجال وهم يتأهبون لتلقي كلماته العظيمة . . ويقول زهوان بلسانه الذي لعثمته الخمرة :

ـ أمرك يا أفندي . . نعم ؟ ! أنا بين يديك ! !

ـ تعرف لو أن نابليون لم يقتل في تلك المبارزة إذن لملكت فرنسا العالم . . العالم كله .

وهمهم الرجال ، وتلقى عاصي أوراقه دون أن ينظر فيها ، وهو يهم بشرح شيء جديد عن تلك المبارزة الملعونة . . ولكن صوتاً رفيعاً وَاضحاً فاجأ الأفندي :

ـ نابليون لم يقتل قتلاً لا في مبارزة ولا في غيرها . .

قال حامد ذلك ، وهو يتكلم لأول مرة من الزاوية التي لبد فيها بعد دخول عاصي بضجيجه وجوقته ، وأحس الأفندي بطعنة جارحة في كرامته . . هناك إذن من يتهمه بالجهل . . بل بأسوأ من ذلك ، بالكذب ! !

وضع ورقه على الطاولة ومد كفه فوق عينيه محدقاً عبر الضياء الشاحب :

ـ من هذا الكلب الذي يتجرأ على تكذيبي ؟

وارتد رأس زهوان المترنح . . وشمله غضب جارف . . فنهض متمايلاً كقصبة في الريح وصرخ :

ـ يابن الكلب أنت أفهم من الأفندي ؟ ماذا تفهم من هذه الأمور أنت ؟ أريد أن أعرف ماذا تفعل هنا ؟ !

وهتف رجال بحامد زاجرين مؤنبين على هذه الوقاحة . . وأخرجه راشد

من الدكان متظاهراً بالغضب ثم استرضاه في الخارج قائلاً له :

ـ هل يليق بك أنت ابن المدرسة أن تجلس في مجالس القمار والسكر ؟ ! . .

وجأر زهوان بلغته الرخوة من جديد :

ـ أليس هذا هو الابليس الذي يذهب الى المدرسة ؟ مثل هذا الوقح تصلح له المدارس ؟ ! يلعن والدي . . اذا لم يجر الخراب على هذه القرية .

وقال رجل من طرف المجلس :

ـ الحقيقة ، المدارس لاتعلم الأولاد غير قلة الدين ! !

وأكد زهوان ذلك ثم قال :

ـ الأفندي أعلم من عليها . . في هذه المنطقة ! اسطمبول نفسها كانت تتحدث عن فهمه وذكائه ! باريز . . نفسها ! !

وهمهم الرجال بين موافق ساذج وبين ساخر يكتم سخريته ويضحك في أعماقه . وأحس الأفندي بالرضا فعاد يتناول ورقه ، ويغتصب ضحكة :

ـ عملتموها قضية . . وخجلتم الصبي ! تظنونني أهتم لهؤلاء « الشلاعيط » ؟ يا ابني عمكم عاصي مر على رأسه الكثير . . أخرس علماء . . علماء كبار يا ابني . . شاب رأسي في هذه المسائل !هه . . زهوان ! غن لي شيئاً هات ! ! غير لي هذا الجو هات ! !

ودار الورق من جديد ، وطلب زهوان من الرجال أن يصفقوا . . ثم مالبث أن اندفع مغنياً بلهجته المتميعة وكلماته المتبددة بالخمر :

هيهات يا بو الزلف عيني يا صبيا
لاتنزلي ع البحر بتكهربي الميه

تتوقف دورة الورق مؤقتاً ، ويصفق الأفندي على النغم ويتبعه جمع من الرجال وتطير التعليقات الساخرة على غناء زهوان ويطلب الأفندي موالاً من العتابا . . ويستعد زهوان آخذاً رشفة ، ملقياً بتعليق ساخر على راشد الذي يتحداه أن يغني العتابا بمثل هذا الصوت القبيح ، وينهض متحمساً واضعاً كفه على أذنه صارخا :

أوف . . . أوف

ويضج الأفندي والرجال جميعاً : أوف ! !

ويندفع زهوان مشيراً بإصبعه في الفراغ مع نبرات الموال ونغمة الصوت المشروخ :

كــفي بس عــن هــالــقـلـب كــفي
أمــي عــمــلــتــك يــابــنــت كــنــه

ويصرخ راشد مشعلاً النار للمرة الثانية بينه وبين زهوان :

ـ عملتها « كنة » ولكنها هربت !

وتوتر جسد الافندي بالضحك ، ضارباً بالقدمين فوق الأرضية المترية متراجعاً برجلي الكرسي الخلفيتين . . وتلاشى حماس زهوان . . والتفت غاضباً لتوضيح القضية « لابن الكلب ! ! » وتحفز الرجال مشمولين بحرارة التلاسن بين الرجل ذي الضحكة التي تطمس عينيه وبين السكران المتمتع الذي استُفز بملامسة أضعف نقطة في حياته :

ـ قلت لك أم سنا لم تتركني ! أم سنا ممرضة في أحسن مستشفى في دمشق . . بلاط رخام كله يا ابن الكلب . . مثل قصر الجمهورية ! محل ما تضع رجلها أم سنا لاتستطيع « زبالة » مثلك أن تنام . .

ـ وماذا تفعل عندك وأنت مثل البغل لاتفهم شيئاً ولاتنفع في ساعة الضيق؟

ـ يابن الكلب . . قل أنت من هي المغضوب عليها التي ستقبل ان تنام مع « مزبلة » مثلك ؟

يضج الرجال بالضحك متابعين ضحكة راشد التي تطمس ملامحه وترفع طرفي فمه إلى أعلى فتبدو أسنان فكيه المصرة على الالتصاق حتى آخرها . . ويصرخ الأفندي مضرماً نار المعركة من جديد :

ـ كل مافي الأمر أن أم سنا لم تكن تحب رائحة العرق . .

ـ أم سنا بعثت لي مكتوباً منذ ايام . . . اين هو؟ أين يازهوان ؟

يبحث في جيوبه دون جدوى :

ـ ليس معي هنا ! ولكنها تقول أنها ستعود قريباً جداً ومعها سنا . . سنا ابنتي الحلوة . . أيام قليلة وترى ذلك بعينك يا ابن الكلب ! ! كاس سنا ! !

رفع كأسه بنبرة خطابية متقدة ثم شربه دفعة واحدة ، وتمطق هازاً رأسه مغمضاً عينيه وهو يجلس :

ـ آه ياسنا ! !

زفر بحرقة . . وأشار الأفندي لراشد أن يملأ الكأس من جديد وعاد اللاعبون إلى اللعب . .

وزهوان يطرق . . مستسلماً لحزن كبير سقط دفعة واحدة فوق القلب الأبوي المحطم « أم سنا لم تبعث مكتوباً . . أنت تعرف هذا وتتمنى أن ترسل شيئاً . . صورة الصغيرة على الأقل . . فلماذا تكابر وتكذب ؟ آه ياسنا . . كنت تغرق في خمرك وتتركهما أقرب إلى الجوع حتى قالت لك : « وأخيرا ؟ » لم تكن تصدق أنها سترحل وتتركك . . فما الذي تستطيع امرأة فاضلة أن تعمله خارج بيتها ؟ ! وظللت تشرب . . وتعود كجيفة . . وسنا تكبر محرومة منك ومن الشبع . . آه يا سنا . . يا سنا ! سنا . . ماالذي تذكره . . طفلتك الخلوة . . ماالذي بقي لك منها ؟ »

يغالب دمعة كبيرة تود أن تسقط . . وينظر إليه بعض الرجال بأسف . . والحرقة الأليمة تستولي نهائياً على القلب . . أيقظ راشد كل الأحزان المنسية ! ! آه يا سنا » !

يدور الورق ومع كأس الأفندي الجديدة يضرب محسن السلوم ضرباته الكبيرة ويهرب خلال أفخاخ الأفندي ذات السمة العبقرية ! ! وزهوان يجالد . . والغصة ترتفع من الصدر إلى الحنجرة ، « والخمرة تدور والدم يندفع ساخناً . . وآه ياسنا اين أنت ؟ . . آه يا سنا ! ! »

دخل رجل غريب . . رجل من القرية الأخرى القريبة ويسأل :

ـ أين أجد الشيخ حسين ؟

ـ لماذا ؟

ـ « مصاغ » الست أم سلطان وحليها سرقت اليوم ! لعل الشيخ حسين يكشف عن السارق . .

ـ ابحث عنه في بيوت القرية . . أو . . ربما في بيته ! !

ولم يرفع زهوان رأسه ! . والدم يندفع ساخناً في أطرافه وفي رأسه وصدره مثل زوبعة كبيرة والخمر تدور . . والرأس المترنحة تجالد وحدها الغصة الصاعدة ، وحرقة البكاء التي لاتريد إلا أن تصعد ! ! ويعلق الحاضرون بشيء ثم يعود اللعب

مسيطراً بصمته وأبهته . . وأم سنا في مكان بعيد . . بعيد ! ! « أم سنا قصدتها أنت . . قالت لك إن كنت بحاجة للنقود خذ . . معي هذا ـ ومدت يدها إلى عبها ـ خذ . . . أما أنا والطفلة فدعنا نأكل لقمتنا بهدوء . . دعنا ! واستغثت أمامها فأدارت وجهها ، وبصقت أنت على النقود التي كنت في أمس الحاجة إليها . . . وسنا ذات الثلاث سنوات ، سنا الحلوة لم تقع عينك عليها . . وأصبحت وحيداً . . مقطوعاً من صخرة . . لاخلفك ولا أمامك . . . ترافق عاصي وتذوق في رفقته فشلك . . وموتك البطيء . . وهجرة سنا . . سنا . . سنا ! ! »

والزوبعة تندفع في السهوب المسكينة للقلب المستسلم ، وغصة البكاء مثل طعنة قاتلة تصعد . . وبين الصدر والحنق تتوقف ثانية واحدة ، ثم تندفع . . تندفع ويصرخ الرجل المطرق صرخة بائسةمذبوحة في فضاء الدكان الضبابي الساكن :

ـ ياسنا ! !

ويقبضته يضرب جانبي رأسه ضرباً مؤسياً ثم لايلبث أن ينخرط في بكاء مرير ! !

- ٥ -

في الحلم تجلد المرأة التي انتهكت . . .

وحيدة تستقبل خطيئتها ، منسحقة باذلالها الداخلي وطعم الرماد في فمها الذي قبّله فم لايحلّ له . . ! ! والإثم يعلو حول النفس المتصاغرة المتلاشية . . يعلو كبحر من النتن تختنق فيه . . . وحيدة . . . وحيدة . . . وحيدة . . . وحيدة . . .

في الحلم تمزق السياط جسد المرأة التي انتهكت ! !

منفردة بخوفها ، تستقبل الأشباح التي تتوارد من الحيطان الأربعة ومن السقف المسود بدخان الحطب ، واختمار أخشابه المرصوفة بعناية ، تحت أمطار الشتاءات الخمسة التي تلت الزواج !

تتوارد الأشباح ، وهي عاجزة مشلولة . . مغمضة ! وتراها تقترب فترفع القميص لتبصر دم الحمام الذي اسود ، فوق البطن المدنسة ثم تنهال السياط عاتية . . عاتية . . وتصرخ المرأة المنتهكة . . ولكن الأشباح تظل متراكضة في فضاء الغرفة برؤوسها الشيطانية وأعينها المحمرة ! تجلد دون رحمة وتنفخ الذعر على سذاجة المرأة الملطخة . . والصراخ يتوقف في الفم منسحقاً في مرارة الرماد التي لاتذهب . . . والذعر يتكاثف كغيمة سوداء في شتاء قاس . . ويدخل القلب فاتحاً خلاياه . . خلية خلية . . فيخز ويخز . . وتشمر الأشباح ثوب المرأة التي لم

تنتهك من قبل ، المرأة ذات اليدين المشلولتين . . المرأة ذات الجسد المنسخ بدم الحمام الأسود ، وعرق ساعة التواصل المنسكب . . . وتندفع صرخة جديدة من الأعماق ثم تنفقيء كفقاعة من الصابون على الطرف الداخلي للشفتين الملوثتين . . ويدوي الرأس باحتقانه الناري وذعره المتكاثف كغيمة سوداء في شتاء مرير ، ثم ينصعق بومضة خاطفة . . . وتحس المرأة التي لم تنتهك من قبل ، أن انفجاراً ما قد حدث . . وأن جسدها كله يرتعد في الانصعاق المدمر ، ويعلو على فراش الزوج الغائب قافزاً مرتداً . . . وتفيق المرأة صارخة صراخاً حقيقياً مسعوراً . ولكن الأشباح لاتهرب رغم أنها تفتح عينيها على اتساعهما . . ورغم أن الضوء ينتشر من القنديل الذي تركته مرفوعاً كي لاتجابه ، بدنسها ووحدتها وذعرها ، كل هذه الظلمة التي تقبع بين الحيطان الأربعة ، والتي يمكن أن تفتح طريقاً إلى القلب كما يفتح رمح بربري طريقه في اللحم النازف . . .

كل هذه الأصابع من أين تبزغ ؟ هذه القبضات العاتية لمخلوقات عجيبة . تفرد أصبعاً واحداً ، وتتجه إليها : « أنت ساقطة ياسعدى ! » نعم ساقطة ! ساقطة ! ! !

وجسدها ، عارياً ومكشوفاً ومبتذلاً ، يرفع على رمح خراقي ! جسدها ، موطوءاً ، تبصق عليه كل الأفواه التي تراه ! !

وهي التي لم تنتهك قبل هذه المرة تثبت عينيها ، مستيقظة محترقة ، في السقف المسود الذي ينهمر في فضاء القلب المجرح كليل شتائي مرير ! ! !

تلتم الأشباح على طرف ، وهي مستلقية لم تغتسل من دنسها بعد . ويبزغ نجم الدين ، بوجهه الذي لم يكن هكذا ذات يوم ! وجه من الطين المتماسك المتعب . . . كأنما انتهكته هو الآخر مئات الأقدام ! يتقدم بين غابة الأصابع التي تتهم ، محروقاً دون أن يرتعش ، ودون أن تعبّر هيئته عن أقل أسف أو حقد أو انفعال ! ! وفي أعماقها يدوي صوت : « نعم . . لابدأن يكون هكذا ! ! فالتي تسقط ، تسقط وحدها . . . وحدها أيتها المرأة الملطخة ! »

وفي غابة الأصابع ، يستمر « رجل الطين المتماسك المتعب » في تقدمه ، ينحني على أسفل جسدها ، ويكشف طريق الدنس الذي وصل دم الحمام إلى أعلاه . . تفتح فمها مذعورة مأخوذة . . وتتلاشى حركتها وتنفسها وأفكارها . .

ولايبقى إلا قلبها الموطوء ينبض . . وينبض . . منكسراً ، مخلوعاً تحت النظرة الصاعقة لرجل الطين المتماسك المتعب . . يرفع رأسه ويرمي الجسد كله بنظرة ، تاركاً الانكشاف الملوث نهباً لكل عيون الأشباح ذات الأصابع المتهمة !

وتلمح المرأة التي لم تنتهك قبل هذه المرة . . في نظرته . . شيئاً خليطاً حارقاً محترقاً . . من المرارة والخيبة والألم ، ثم يتلاشى ذلك سريعاً بينما يستدير رجل الطين المتماسك المتعب . . وينهمر ليل السقف الجنازي كمطر من القطران والدفلي . . وينفتح فم المرأة على اتساعه ، وتعبره صرخة رفيعة مثل زغردة . . أو مثل صفارة دركي ! !

تكتم الحيطان الصرخة فلا يقبل أحد !

هكذا إذن ؟ ؟ « أين أنت يا نجم الدين ؟ » .

« لا . . من تسقط ، تسقط وحيدة إلى الأبد » .

وإلى الأبد هذا الذل الذي لاارتفاع بعده ! !

« أنت امرأة من الخيانة والسقوط فلماذا تدعينني ؟ ! » .

« لايا نجم الدين . . لا ! أريدك ، أريدك ! » .

« لم يعد يريدني أحد بعد ولست الآن أريد أحداً ! » .

« لم أكن أريد هذا يا رجلي ! أريد طفلاً كي تكون أنت لي . . فقط . . فقط ! »

« تسقطين وحدك يا امرأة ! لا استطيع أن أفعل شيئاً من أجلك غير ان ابصق » .

« ولكنني . ولكنني طلبت معجزة صغيرة ! . أنا امرأة وحيدة ويائسة . . وأحبك كما لم يخطر ببالك يوماً ! . »

« هكذا إذن ؟ ! تتعلمين الآن أن للأطفال طريقاً واحداً ، أليس كذلك ؟ ؟ احملي دنسك بعيداً عن فراشي ! » .

« أقسم لك كنت أريد طفلاً من أجلك . . من أجل أن تبقى لي ! »

ولكنني لم أقل شيئاً ذات يوم . . أنت قلبت وأنت تخيلت . . وكنت أعرف دائماً وما أزال أعرف أن الله هو الذي يعطي وهو الذي يأخذ ! » .

« لقد سقطت من أجلك فلا تتركني وحيدة أمام عجزي وعاري » .

« لا أستطيع أن أفعل من أجلك شيئاً دون أن أشق أحشاءك وأستخرج النطفة المدنسة ! » .

ويمد يده . . وتفتح المرأة التي لم تنتهك من قبل فمها للمرة العشرين وتصرخ صرخة زاعقة كالفحيح . . ويتشنج جسدهاويتقلص ثم يتراخى . . ثم يرتعد كأنما انسكب عليه ثلج . . وتصطك أسنانها فتغمض عينيها مستسلمة لكل هذا التتن والخيبة القاتلة المشفوعة بارتعاش شديد . . ثم تدخل ـ بحزنها ودمارها الداخلي ـ في بحران وضياع وانهدام . . ولاتلبث الارتعاشة طويلاً حتى تتحول إلى حمى شديدة وصداع ثقيل ، وتختلط الأشباح بالظلمة المنهمرة ، وصرخات اتهامها النابضة في السكون بمطارق الصداع العتية . .

والدمار ينبثق من كل خلية ، وفي كل اختلاجة . . وينوس القنديل ويشحب ، ويخفت ضوءه شيئاً فشيئاً كلما تضاءل الزيت فيه . . وأخيراً انطفأ . . والمرأة ماتزال تعاني ، وحيدة ومتلاشية ، كل هذا الفقدان والذبول والانتظار اليائس الذي لا آخر له . . حتى إذا طلع الصباح ، وجدوها غارقة في مرض مفاجىء محير ، وهذيان محموم عن الأشباح والعيون الشيطانية ، وأفراخ الحمام التي تنتزع أيدٍ وحشية رؤوسها ، في كهوف عميقة دون قرار ! !

تصل الأنباء إلى الشيخ حسين متقطعة ، في حنايا النهار . . تصل إليه دون قصد ، يقذفونها هنا وهناك للتسلية على المرأة التي تستعمل هذا الأسلوب المكشوف لمنع زوجها من الزواج ثانية . . ويكفهر قلب حسين السعيدي وينقبض ، مجالداً ذلك ، مدافعاً كي لايظهر على وجهه شيء . .

يعرف أنه غاطس حتى قمة رأسه في هذه الأزمة المفاجئة « إذا انكشفت أيها المحتال فستكون نهايتك ! » . . يحرك حبات مسبحته بقلق ، ثم يزفر ،ويتظاهر بالصلاة على النبي بصوت محشرج متقطع . .ويقول بعض سامعيه :

ـ الشيخ حسين جبار كما ينبغي أن يكون الرجل حقاً . . ولكنه خاشع دائماً أمام الله ! . يرهبونه كما يرهبون الجن . . أو قوة أسطورية خارقة كتلك التي سمعوها في قصص الملك سيف بن ذي يزن وحمزة البهلوان . . . وفي ليالي الشتاء الطويلة في قراءة حامد ذات النغمة الطفيلية السلسة التي لاتنسجم مع جبروت الحكاية . .

وهو يشعر أن هناك خطراً مقبلاً ، وأن عليه أن يتدبر الأمر . . فهذه المجنونة اللعينة كان عليه أن يختبرها أولاً . . فليست كل النساء كامرأة سرحان السليم « آه يالامرأة سرحان ! ليس لك مثيل في العالم . . تقبلين على اللذة بوله وحرارة كما لاتفعل امرأة . . أما هذه . . ؟ ! ! » يهمس بصوت خافت :

ـ اللهم اغفر لنا ! !

« أنت تعرف أيها الوغد أنه لاصلة بينك وبينه ! تدبر أمرك بعيداً عن استغفاره هذه المرة . . فهو ينوي أن يحاسبك ، كما يبدو ، عن كل خطاياك دفعة واحدة ! »

فكر في الرحيل وهو يبتعد عن طرقات القرية ريثما يستعيد هدوءه . . ولكن . . . إلى أين . . ؟ « سيلاحقونك . . أصبح هناك دولة ودرك ، وهذا الرجل نجم الدين ، الذي يبدو مسالماً وطيباً كشجرة زيتون ، ما الذي يمكن أن تسفر عنه كل تلك الطيبة إذا استثيرت؟ الرحيل . . ؟لا . . يجب مواجهة الأمر وخنقه . . ! ! » وفكر كيف يفعل ؟ ! يود لو أبعد كل الناس عن ذلك البيت الصغير الذي سيعود رجله هذا المساء ! « يقولون إنها محمومة . . وماذا لو تكلمت ؟ ؟ ربما أصبحت مجنونة ! ! من كان يعرف أنها هشة إلى هذا الحد ؟ لئن تكلمت . . فلسوف يزحفون عليك زحفاً مدمراً ! ! » .

إنهم يقبلون أن يقامروا . . . ويسكروا . . وأن ينسوا حتى الله الذي يخشعون لذكره أشد الخشوع . . يقبلون أن يأكل الأفندي وأبو سلطان كل أتعابهم وكل ما يجنونه دون أن يتركا لهم إلا الفتات . . . أما أن يعتدي عليهم هكذا ؟ ؟ !

ربما يقبلون ذلك من جاهل ، يطاردونه مدة . . يرفضونه زمناً . . حتى يمسح الأمر وينسى . . أما الشيخ حسين السعيدي ؟ ! أن يتحطم هذا المثال المزيف . . هذه القدوة المزورة ؟ ! ان معنى ذلك أن تاريخاً كبيراً من خشوعهم وتزهدهم وخوفهم ، وتوسطهم به إلى الله قد ذهب هباء ! معنى ذلك أنه قد غرر بهم وأهينوا . . وان أول ما يخطر لهم هو أن ينتقموا من ذلك الذي دمر أسطورتهم المحببة . . التي يمارسون من خلالها تعلقهم بها وبواسطتها ، نقائصهم وفضائلهم على السواء !

أحس الشيخ حسين بكل هذا ! عرف أنه مستهدف ! وأنه ربما كان مطلوباً

بعد قليل ! !فاستدار عائداً من الحقول . . ان الحقول لاينجي الفرار إليها أحد ؟ ؟
« فلتجابه ، على عادتك ! » ولكن . . كيف ؟ كيف ؟

كان هاجسه ، بعدما ذهبت ، صائباً كان تصرفها يوحي بالتواء خطير في نفسيتها . تلك المرأة البسيطة المستسلمة لذكورته الفوارة تنقلب وبالاً عليه . . وهو معلق على كلمة تقولها خلال هذيانها وجنونها المرضي الثقيل !

- « يجب خنق كل شيء . . ولكن كيف ؟ كيف ؟ »

في طريق غير بعيد ، تقبل امرأة سرحان المسليم . . ورآها فجأة ، وفجأة ومضت في ذهنه فكرة . . «هذه أنت أيتها المرأة العظيمة . . آه كدت أنساك في زحمة هذا الخوف الفاجيء اللعين » ولكن . . أيعطي أسراره لامرأة ؟ « معنى ذلك أنك تسلمها مصيرك وتصبح عبداً لها ! ! »

وأقلقه هذا الخاطر ، ثم مالبث أن تحرر منه ، يعرف أنها امرأة جديرة بأن تؤتمن على الأسرار الكبيرة ! امرأة حقيقية من لحم ودم وأعصاب وقلب وعقل ! ! ولكن هذا السر حبل مشنقة يعطي لها لتقوده من عنقه حيث تريد ! ومع ذلك « لاتتردد أيها الوغد . بينك وبين الفضيحة خطوة . . وامرأة سرحان لاتستكبر عليك شيئاً . . تعرفك عن ظهر قلب كما تعرف عدد أصابعها . . وطوال معرفتك لها لم تثر اشارة حولكما . . امرأة تفهم كيف تتدبر . . هيا ، هيا ! ! »

مال إلى طريقها . . وتظاهرت بتقبيل يده « ليتني أستطيع أن أقبل شفتيك يا شيخي ! » وضحكت بخفوت . قال لها :

- ليس هذا الوقت وقت مرح . أنا على حافة الفضيحة .
- أنت تبالغ . . لاأحد يعرف عنا شيئاً .
- لست أنت . . سعدى !

صمتت لحظة تستقرىء وجهه ثم سألته فجأة :

- كانت عندك أمس ؟ !
- نعم ! !
- أيها المحنون ! أنت ساقل حقاً ! !
- ستشتمينني في غير هذه الساعة . . الآن أنقذيني ! يقولون إنها تهذي . . من يدري ماذا تقول ؟ وإذا قالت . . فأنت تعرفين التتمة ! !

ـ آه أيها المجنون . . سأعود بعد لحظة وألازمها ، وأبعد الجميع عنها بحجة راحتها . . ولكن كيف سأراك في اللحظات التي يجب أن أراك فيها ؟

ـ سأحوم دائماً حول البيت . . وسأفهم كل شارة منك . هيا ! !

وتابعت المرأة طريقها . . ثم انعطفت من مكان آخر . . أما هو فمضى بعيداً إلى شجرات المزار في أول درب الأموات . . عاكفاً على ترتيب الأمور ، باحثاً في سره عن طريق نهائي للخلاص من هذه المعضلة .

* * *

غادره الأفندي أول المساء . . حدثه في مسألة الأرض والوساطة بينه وبين أبي سلطان وطالت الجلسة قليلاً فساوره قلق عميق ، جاهد بمرارة للتغلب عليه .

وعد الأفندي خيراً ثم انسرب في طرقات القرية ككلب ضال ، ورأى امرأة سرحان السليم تخرج من باب بيت نجم الدين فاعترضها . . كان حديثها مميتاً :

ـ هذه المرأة خطرة . انها تهذي . وهي الآن نائمة . ورد اسمك بخفوت في هذيانها ، مع اشارة غامضة . . وتحدثت أنا خلال هذيانها فطغى صوتي على صوتها ، ولم يسمع أحد . . منذ ساعتين جاء زوجها ، انه شديد الحزن خائف عليها . واخشى أن يلازم فراشها . .

ـ ينبغي أن تظلي قربها ! !

ـ واخيراً ؟ ! سأعود إلى بيتي شئت أم أبيت ! سيبقى وحده سهران على مرضها . . وربما تكلمت . . ليس هناك حجة لأبقى ليلاً ونهاراً إلى جانبها !

ـ ستدمرينني إذن !

ـ أنت الذي سعيت لدمارك . . وليس هذا وقت عتاب ! فتدبر أمر نفسك ! ! سأعود بعد لحظات إليها لئلا تستيقظ وأنا غائبة .

فارقها مغضياً . . مهموماً . . تضاءل كما لم يحدث له من قبل ، حتى أحس أنه ينعدم . وخاف أن يلتقي بأحد في تلك اللحظة فيكتشف من قلقه وانهياره كل شيء !

لكن . . هل يسلم رأسه هكذا ؟ ! هذا هو مصير جنونك . . كان لاينبغي لك أن تندفع وراء شهواتك الحيوانية ! ! صنعت كل هذا بيدك فاقطف الآن

ثماره . . هذه المرأة خطرة ! سمعت بأذنك . . جيداً ! ! خطرة ؟ ذلك يعني أنك توشك أن تهوي إلى حيث لم ترتفع بعدها أبداً . . هكذا الأمر : موتك أو موتها ! لم يعد لك خيار . وفي اعماقك أمنية . . أن تموت هي فترتاح أنت ، ولكنك تعرف جيداً صلابة جسدها وقسوته ومتانته . . أنها حالة عارضة ، اذا زالت فأنت بخير ، غير انها قد لاتزول قبل أن تزيلك ! ! فكيف إذن ؟ كيف ؟ ؟ »

دوى في رأسه طنين مرعب . خاطر دموي رهيب « اقتلها ! ! اسقها السم ! ! لديك سم جيد لاتظهر آثاره قبل يومين . . ومع ذلك يميت بعد ثلاث ساعات ودون عذاب شديد ! اقتلها . . اقتلها ! »

ترنحت خطواته وتراجع قليلاً . . فزع من خاطره اللعين . . انما . . « ماالذي لم تفعله . وماذا بقي لك غير هذا ؟ أي اختيار لديك ؟ حين سقط هاروت وماروت ، شربا وزنيا ثم قتلا . . وهذا أنت ! . لااختيار لك . . لا اختيار لك ! »

ساوره عذاب لاحد له . « الموت أو الفضيحة ! القتل أو الفضيحة ! » وراجع حساب المسألة قليلاً . ثم سرعان ما اختار : « القتل أو الموت ! »

* * *

أنهى تحضير السم الذي اشتراه من « فرماشية » كبيرة في المدينة بحجة مكافحة الثعالب ، وكان قد حذره الصيدلي من تلوث اليدين أو أواني الطعام به . وعلمه كيف يحضره .

وضع منه مايكفي لثعلبين أو أكثر في محلول من السكر ، ثم خض الزجاجة التي تحويه حتى أصبح المزيج متجانساً ، ثم ذر فيه شيئاً من « عشب الأسرار » وقطب جبينه أكثر ، وهو يرش المسحوق الأخضر الداكن من فم الزجاجة ثم تهيأ للخروج .

وفجأة سمع وقع خطا أمام الباب . . ونبض قلبه بعنف ، فوضع الزجاجة في طاقة قريبة وهو يرتجف ، واجتاحته عاصفة هلع ، ثم هدأ عندما طرق الباب ! ذهب يفتح محاولا السيطرة على حركاته ووجهها لوجه وجد أمامه نجم الدين :

ـ مساء الخير عمي الشيخ حسين

أحس بالفرج لهذه النغمة المطمئنة ، والهدوء الحزين في وجه الرجل الطيب المسالم ، ولكن صوته ارتجف ، وخشخش عندما رد تحيته ، فتنحنح وبصق متظاهراً بأن الحشرجة عارضة . ثم دعاه إلى الجلوس :

ـ تفضل يا نجم الدين !

ـ والله يا عمي الشيخ مستعجل !

ـ خير ان شاء الله ؟ !

ـ والله يا عمي لا أدري كيف حدث كل هذا ؟ ! ذهبت أمس لأشتري حبوباً . . وعدت فوجدت سعدى في حالة صعبة . . انها تهذي منذ الصبح وليس معها حرارة ولكن عرقها يسيل بغزارة . . وهي أقرب إلى الجنون . . ومنذ ساعة وهي تنام قليلاً ، ثم تفيق وتصرخ : سامحني يا نجم الدين . . سامحني ! ! والله يا عمي أنا خائف أن تموت ! ومنذ قليل أفاقت وصرخت بصوت عال : الشيخ حسين . . الشيخ حسين ! !

وأربد وجه الشيخ حسين وارتعش حتى أطراف أصابعه كقشة في عاصفة ، ورأى دمعة كبيرة في وجه الرجل المسالم الطيب ، ولكن خوفه منعه من الإحساس بأي شيء آخر . . كان ذعراً وحشياً قاسياً كالحراب ! ! ومسح الرجل المسالم الطيب عينيه ثم قال :

ـ فهمت أنها تريدك لتقرأ شيئاً على رأسها ! انها تثق بك كثيراً يا سيدي .

وزفر الشيخ بارتياح ثم قال :

ـ لاحول ولاقوة إلا بالله ! الشافي هو الله يا نجم الدين ! !

ـ أرجوك ياسيدي . . لايجب أن نتأخر . .

ـ حسناً يا نجم الدين . . توكل على الله ! !

ـ قلبي يقول يا شيخي انها آخر ليلة لها .

ـ وما الأعمار إلا من عند الله ! ! توكل على الله .

وضع القنينة في جيبه ، ثم أغلق باب البيت وراحا يسرعان نحو القرية ، قاطعين درب الأموات في صمت رهيف مثقل بروائح الفاجعة . .

كانت سعدى في غيبوبة ، وامرأة سرحان السليم ، وحدها ، تجلس إلى جوارها .

وعبست المرأة خفية وكزت على أسنانها ، فابتسم حسين . . وحارت وهي تراه هكذا . . ثم عادت تقول :

ـ نامت منذ لحظات . . لقد طالبت بك كثيراً يا سيدنا الشيخ ! !

ـ بسم الله الرحمن الرحيم .

مد يده فوق رأسها وراح يتمتم بشيء . . واحنى نجم الدين رأسه خاشعاً ، ثم نفخ الشيخ فوق رأس النائمة سائلاً الله أن يمن عليها بالشفاء . . وجس يدها كطبيب مجرب ، لم يكن في جسدها أية حرارة غير عادية . . وفهم أنها مصدومة صدمة لافكاك منها . . طلب كأساً من نجم الدين فأحضر قدحاً فخارياً صب فيه محلوله المميت ، وفتح الرجل فم امرأته . وانابت الدهشة امرأة سرحان السليم ! أهذا هو الشيخ الذي كان يستنجد بها منذ لحظات ؟ ! تكاد لاتصدق ! ! وسكب السائل ببرودة وهدوء في فم المرأة ، وامسك بأنفها فأغلقه ، وبلا شعور بلعت الجرعة الأولى ثم الثانية ، ثم الثالثة . .

وبنفس الهدوء ، وضع القدح الفخاري إلى جانبه داعياً لها أن يكون فيه الشفاء ! ! !

ولم يبد على المرأة شيء لمدة غير قليلة ، ثم بدأ تنفسها يضطرب ، وأطرافها تختلج ، ثم بدأت تعصر بيديها جانب الفراش . وصرخ نجم الدين :

ـ يا الله ! ! !

وملأ الرعب وجه الشيخ ، فتظاهر بقضاء حاجة في الخارج ، ودخلت نسوة من القرية . . وهدأت المرأة قليلاً . . ثم عاد جسدها يتشنج . . وعاد الشيخ فطلب الأذن ، على أن يعود بعد حين ، وودعه الرجل الطيب المسالم بحفاوة وخشوع ! ! وجلست امرأة سرحان السليم على الفراش دون أن تدرك شيئاً ، وراحت تدلك أطراف النائمة ، مقاومة تشنجها المتزايد . . . واستمرت النسوة في ثرثرتهن وخرج نجم الدين يطلب شيئاً من أزهار « البابونج » . .

وعاد الشيخ بعد أقل من ساعة . . ثم خرج ، وتلقى دعوة أبي سلطان في الطريق بين خوفه وارتعاشه ، وكانت المرأة ما تزال غير مستيقظة يتشنج جسدها بقوة أو ضعف بين حين وحين .

وقد استحالت ثرثرة النساء ولولة ونحيباً . . . ثم أخيراً صرخت المرأة

النائمة بقوة ، واختلج جسدها بعنف مرات متتالية ثم استكانت ثم اختلجت بهدوء كأنها ترتعش . . . ثم في النهاية همد القلب وتوقف . . وأعولت امرأة سرحان السليم فأعولت النسوة أيضاً ، واقترب نجم الدين راكضاً من الفراش وحدق في الوجه المحتقن ثم راح يبكي بصمت واستسلام كما يليق برجل خاشع طيب مسالم . . .

وأفاق الرجال والنساء ، وانفرطت حلقة اللاعبين في الدكان ، وجر الأفندي زهوان في طريق العودة إلى البلدة بعد أن عزى نجم الدين بلسانه المتلجلج واعداً بارسال كفن مع الفجر . معلناً أن اكرام الميت دفنه ! !

وشعر الشيخ بعبء خطير يسقط عن كاهله . . ووافقته حكمة الأفندي تماماً ، فايدها بقوة . . وانثالت الحكمة من شفتيه انثيالاً . . وتسمع القوم في خشوع . وجاء أهلها من قريتهم فأبدوا دهشتهم بين حزن الرجال وولولة النساء ثم جلسوا يتلقفون كغيرهم حكمة الشيخ الوقور عن الموت والحياة وارادة الله وحكمته . . وهم يذرفون الدمع بصمت .

وطيبت نسوة القرية خاطر الأم العجوز المفجوعة وأبعدنها عنها بعد أن قبلت وجهها المحتقن وبللته بالدموع . .

وقرأ حامد آيات من القرآن بصوته الفتي الرخيم . . . ومع الفجر وصل الكفن ، وغسلتها النسوة متعجبات من احتقان الجسد المزرق قليلاً ! ! وقالت امرأة :

ـ من يعرف ماذا كانت علتها ؟

وردت أمها المفجوعة :

ـ يا قلبي . . من أين لها العلل ؟ كانت كالزهرة ! . . ولكن . . قضاء الله ! ! حمداً لك يارب !

ومع الشمس كانت درب الأموات تشهد عبور جنازة سعدى . . وأذن حسين السعيدي ثم صلى صلاة الجنازة كما يعرفها ، وتم كل شيء بسرعة كاملة ! ولقن الشيخ . . ووصى . . ورش التراب على القبر وهو يقرأ آيات من سورة القيامة خلال سحب البخور التي تتبع الجنازة . ثم عزى المعزون . . وانصرف من يريد الانصراف ، وعاد إلى بيت نجم الدين من أراد العودة . وقصد الشيخ أول بيت

يجاور بيت نجم الدين وطلب أن ينام قليلاً . . كان ، رغم استرجاع اطمئنانه وثقته ، خائفاً . . متلاشياً . . موشكاً على الانهيار ، كأنما سعدى بأكفانها وسر موتها الدفين تنتظره ، حين يرجع إلى بيته ، بين بوابة الكهف السري وباب البيت الأبيض المطلي بالحوار مثل المزار القديم !

- ٦ -

في دبق الصيف ، وحرقة الصيف ، تختزن الأرض ملامح عنفوانها كأنما هي تستريح ؛

الجبال الرمادية ، والرهج المنسكب فوق أشجار الزيتون التي تشبه خضرتها من بعيد وجهاً مريضاً تختلط فيه الصفرة بالسواد . . والصخور الكبيرة القاسية التي تبرز على المنحدرات ، شاقة بوهنها وجمودها كثافة الزيتون وتعانقه . . واليبس الذي امتد على جزر الأعشاب الصغيرة هنا وهناك . . كل ذلك يختلط ساعة الظهيرة تاركاً دورة الإخصاب تتكامل في ذلك الاحتراق الطهراني لعناصر الطبيعة التي لاتتوقف عن العمل .

حسين السعيدي يغط في النوم . . والقبر الجديد يجف ترابه المبتل تحت الرهج . . وتزقزق حشرات صغيرة قابعة على أغصان الزيتون باعداد لاتحصى . . فترتفع موسيقا رتيبة رفيعة معكرة . . وتلتوي أوراق الريحان على تراب القبر الذي يتحول إلى غبار . . وحسين السعيدي ينام ، متخففاً من أثقاله محاولاً أن يستعيد طيبته العتيقة ، ناسياً أو متناسياً أرق الساعات الماضية ولذعها ، وانصعاق الأعصاب والجسد تحت ألم الخوف المتصل . . والرجال ينفضون ، ثم يضطجعون في بيوتهم على الحصر المفروشة دائماً بمواجهة الأبواب ، متلاشين في قرارة أنفسهم أمام هذا « التيار المجهول » الذي لايستثني أحداً ! والمرأة العجوز من القرية الأخرى تندب ،

وحيدة ومحترقة ، وسط جمع النسوة الذي يتضاءل . . وتخف أصواته كلما أوغل الزمان في التقدم . .

امرأة سرحان السليم ، وحدها ، تسترجع ذكريات الليلة الماضية ، خائفة مرتعدة ، تشك في كل شيء حدث : في جنون المرأة التي ماتت ، وفي بكاء الرجل الذي استسلم لضعفه الانساني الساذج ، وفي شراب الشيخ الذي كان يعطيه دائماً دون موت ! « كيف حدث كل ذلك ؟ كيف ؟ ؟ هل قتلها . . هل . . ؟ » . لاتستطيع أن تعيد بينها وبين نفسها هذا السؤال ، والجسد الذي قاومت أمس تقلصه وتشنجه ، أدرج الآن في أثواب بيض وخضر ، هادئاً كما لم يكن أي يوم . . بارداً مثلما لم يكن أي يوم ! والأرض التي انفتحت ، انطبقت عليه . وليس ذلك فجأة ولا مصادفة ! انطبقت كما يحدث في حلم أو زلزال ! وهي . . هي . . ماتزال تحسه قاسياً متلوياً تحت يديها ، قريباً منها . . ملتصقاً بها . . متداخلاً في أصابعها وجنبها وساعدها ! هي ، المرأة التي كتمت صوت تلك الميتة المجنونة ، تحس الآن بثقل يديها الملوثتين . تغسلهما دون جدوى . . تحدق بعيداً إلى الداخل في ظلال بيتها البائس المسود . . وبعيداً ، إلى الخارج ، في حمأة النهار المشتعل . وتعرف أن شيئاً ما قد حدث . . تعرفه وتجهله . . تعتقد به وتشك فيه . . يعذبها كما في عملية جلد . . وسرحان لم يعد منذ يومين . . والقبر يتسع . . يتسع . . يتسع ! يصل إلى باب بيتها ويدخل من العتبة . . ثم يخترق صمتها ، وشكها الحزين ، يخترقها بطعم ترابه الدودي ، وعطره الجنائزي المختلط برائحة الماء الآسن . . وهي وحيدة كما لم تكن في أي وقت . . والقبر يغمرها ، ويميل ريحانه خاضعاً للجفاف وللسواد العظيم . . والشيخ ينام في بيت ما . . هارباً من « درب الأموات » ، والكهف السري المشتعل بلعنة الجنس ولزوجة الخيانة والزيف ! يغص حلقها ، كأنما تبتلع فتاتاً من الخشب الناعم . . وتضع يديها على عينيها ، ثم لاتلبث أن تنخرط في بكاء صامت مرير . .

الشيخ ينام ، ناسياً أو متناسياً ، محاولاً أن يستعيد ألق الحياة القديمة ، وطيبة الملاك الذي يطرده الشيطان دائماً حين تعبر امرأة . . والرجال يستلقون بين صمت أبنائهم وزوجاتهم ويغوص كل في الموت على طريقته ، والجبال الرمادية تظل شاغة . . والزيتون بخضرته الباردة المريضة ، يستمر في اكمال دورة الخصب ،

بحزن النسغ الراكض دائباً تحت مشعل النهار الكبير .

يموء أطفال هنا وهناك ، فتهدهدهم النسوة بحنان ، وينظر الرجال إليهم باشفاق ، ثم يتنهدون ، ثم يغمضون أعينهم ، بعيداً عن دكان راشد العلي ، وأوراق النقد الملونة الثمينة ، واندفاع الفرس الشقراء . . بعيداً ، بعيداً عن ضجة الأفندي وخيلائه وسهراته ! ودرب الأموات تمتد من الأرحام إلى الريحان الذابل في خلفية القرية المستكينة ، ومن بيادر النوم أيام الحصاد في قرى حمص وحماه إلى مستودعات أبي سلطان التي لم يدخلها أحد منهم . . ودرب الأموات تدخل في كلمات السندات المحكمة الألفاظ . . وحركات اليد الوحيدة المعلقة على جسد لايكف عن الاتجاه إلى الزيتون الراقد تحت جمرة النهار ! درب الأموات . . ! درب الأموات . . ! يغمض الرجال عيونهم وتكف الرؤوس عن الحلم بخمرة راشدالعلي ، ومغامرة الليل الذي يملؤه الأفندي بعجيجه وتجلياته . .

ويغمض نجم الدين عينيه ثم يفتحهما ، ويتوارد إلى ذهنه قوله تعالى « ما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم . . » ويتأوه زافراً بهدوء ثم ينظر إلى السقف حالماً بالسماء اللامعة في ليلة صاحية ، ويهتف هامساً : « اللهم لك الحمد » ويدخل رجال ويخرج رجال . . وهو يعرف أنه كان في الحياة متسع فكيف تم كل ذلك . . كيف ؟ « اللهم انها حكمتك ! » . ورغم هذا الاطمئنان الطفولي البريء ، يظل السؤال يركض بين اللحظة واللحظة . . ويدافعه الرجل بصبره الحزين « اللهم انها حكمتك ! » ثم لايلبث أن يطرده : « اللهم عاملنا بالعفو ! » ويقول الرجال شيئاً ثم يذهبون . . وفي لحظة ما يجد نفسه وحيداً . . « وحيداً . . وحيداً » ويطن سكون البيت بالكلمة الموحشة . . وذلك هو السرير الذي كان جسدها يلامسه أمس ، وتلك هي الجرة التي حملتها ، والكأس التي شربت بها ، والصحن الذي غسلته . . وحتى ذرات الطين . . الطين نفسه . . عرفت رائحتها وملمس راحتيها ! ! تختلط هي بكل شيء في البيت ، وكل شيء مختلط بها ! والقبر الجديد في خلفية القرية ينفتح . . وتخرج منه امرأة بأكفان خضر . . وتعود من درب الأموات برأسها المعصوب . . تتوقف لحظة أمام بيت الشيخ « لماذا يا سعدى ، لماذا ؟ » وتتقدم المرأة الميتة . . لايعرف لماذا توقفت أمام ذاك البيت . . أهو يشك في أمر الشيخ ؟ « اللهم لاتجعلنا خاطئين في حقه ! » تتلاشى المرأة الميتة ، تبزغ من حائط ما

في البيت الصغير بأكفانها وعطرها . . ويراها ، بعينيها المتعبتين ووجهها المصفر الذي لاحياة فيه . . تضع في فمه قبضة من تراب قبرها ، فيذوق طعمه الدودي ، ورائحة عطره الجنائزي المختلط بماء آسن . . ويهز رأسه نافضاً وحشة الحلم ، ثم لايلبث أن ينطرح على الفراش ملصقاً وجهه بالمخدة ، متمنياً فقط أن ينام ! !

وجاء سرحان السليم ، وقف بالباب لمحة ثم رجع . هز رأسه ساخراً دون صوت : « أيها التنبل . . ماذا يساوي موت امرأة ؟ امرأة عاقر ؟ ؟ » تصغر عيناه المتعبتان في ضوء الشمس المبهر « كنت تنبلاً يانجم الدين منذ ولدت ! . . واحداً من الأحياء الأموات ! لاتلعب . . لاتشرب . . لاتطرب هه ! ماذا تعرف عن الحياة أنت يانجم الدين ؟ لاشيء أكثر من أن تنطرح من أجل موت امرأة ، كما ينطرح بغل مقتول ! ! » وهز رأسه وأطرق . . « كثيرون هم الأحياء الأموات في هذه القرية . . يرون الحياة فلا يجرؤون على الاقتراب منها . أبو حامد على راسهم ، وأبو محمود ، وطراف الحسن وهلال عيسى . . وكثير غيرهم . . يعرفون نصائح كثيرة . . نصائح غبية يتحفون بها الرجال . . هه ! ! » ابتسم وهو يتذكر كلمة : الرجال الحقيقيين . . « هكذا قال الأفندي . . آه يا عاصي افندي ، أنت أحياناً جيفة وأحياناً بستان ! من لايشرب ولا يلعب ولايطرب ليس رجلاً حقيقياً ! ! إيه . . لك قولات يا عاصي أفندي ! ! رجال حقيقيون ؟ ! »

فجأة أطرق ، وعبرته سحابة حزن . . تمنى لو أنه ينام فيستيقظ في بلد آخر بعيد . . بعيد ! لينسى كل ما فعله في حياته . . كله بلا استثناء ! ومرغماً ، ابتسم بمرارة وهو يفكر : « رجال حقيقيون ؟ ! انظر يا عاصي أفندي رجلك الحقيقي سرحان السليم ! أنت تعرف انه يوشك أن ينتهي من أثقاله : الأرض الصغيرة . . والبيت . . والزوجة أيضاً ! هل تعرف يا أفندي ما الذي بقي ليشد سرحان السليم إلى هذه القرية ؟ ؟ أنت لاتعرف يا أفندي إلا مغامراتك الصغيرة على طاولة القمار . . أما صاحبك يا عاصي أفندي ، صاحبك سرحان السليم نفسه ، فسيخوض قريباً مغامرة أكبر من مغامراتك جميعاً ! »

تنسرب خطاه في الطريق دون هدف . . البيوت ساكنة في الظهيرة . . كانت دائماً واطئة دون أن تعلو . . والحر يدفع بحبات عرق تنسكب بهدوء على جبينه ، يمسحها بطرف كفه . . ولايريد أن يعود إلى بيته ، سيكون بينه وبينه مسافة

أبدية . . قرر هذا ولن يرجع ، فهو يحنّ إلى أرض ما ، مكان لم يعرفه بعد ، ولكنه بالتأكيد مكان أكثر جمالاً ، وأكثر اطمئناناً وثقة ! . . نجم الدين ينطرح كبغل من أجل موت امرأة ! اواهذه رجولة ياناس ؟ ! » يلمح حامد وقد عبر الزقاق داخلاً بين مجموعة من البيوت . يحب هذا الولد ويعجب به ، ولكن له طريقة استفزازية في معرفة الأشياء . . له طريقة خارقة . . نعم ! انه لايهدأ « كأنما هو ذيل حية ، قطع لتوه ! » وام حامد امرأة تعجبه ، بلسانها السليط وجبروتها . . صحيح أنها منعت زوجها من أن يعيش كما يعيش غيره . . كما يعيش هو مثلاً ! إلا أن الأمر كان ذا نتيجة طيبة « ماذا لو فعلت زوجتك هكذا ؟ » تنهد مغموماً . . هو دائماً قليل الحظ . . . ولكن كل شيء سينتهي قريباً ! !

وجد نفسه بلا ارادة ، ينحرف الى بيت أبي حامد ، بوجهه المتعب وجسده المترنح في حر الظهيرة وأعماد الليالي التي مرت كأنها كابوس طويل .

تعجبه أم حامد ! هذه المرأة الدميمة كحمار جلف . . تلوح بإصبعها في وجه أبي حامد حين يتظاهر بأنه يمارس سلطة الرجولة عليها . . أحياناً تهزأ به ، وأحياناً « تضعه تاجاً على رأسها ! ! » وهي ، المخلوق الغريب المتنافر من الحكمة والازدراء والسلاطة والحب والبشاعة ، تمتلك طاقة مذهلة على الثرثرة وطاقة أخرى مذهلة على اختزان الحكايات العامة والخاصة واكتشاف دقائق الأمور في طول القرية وعرضها ! . . وأبو حامد ، الرجل الذي تعلم مع الأيام كيف يكبت حنينه إلى « مجالس الرجال ! » وأبهة عدم اكتراثهم واهتمامهم ، يضايقه أن تعدد زوجته « مافعل فلان وعلان . . وما تمشي هلال أو تغدى سرحان ! » ليفعل الناس ما يريدون ! تعلم هو كيف يلجأ إلى الله « ليس الاك يا رب . . ! ! » « اللهم اغفر لنا ! » وأحياناً يتثاءب ، تاركاً المرأة « تأخذ حريتها » في مجلسها ، وينطلق هو وراء الحلم : كنوز وعروش ، وجوار وعبيد . . « أين كان كل هذا يا أبا حامد أين ؟ » لايتذكر شيئاً لكنه يعرف أن هناك من اختبروا الدنيا أكثر منه ، وتنعموا بها كما لايستطيع هو أن يفعل . . . والمرأة تحكم امبراطوريتها الصغيرة : البيت والموسم ولسانها وذاكرتها وابا حامد ! ! تحكم دون خشية اعتداء وتلوح بإصبعها حين يعترض المخلوق الحي الوحيد في رعيتها : « أبو حامد ! » فإذا مارأت أنها عاجزة عن مجالسته بحثت في طول القرية وعرضها عن مجلس نساء ، تصل فيه حديثاً بآخر بين ساعة

وساعة ، كما في قصة ألف ليلة وليلة التي يقرؤها حامد من جملة ما يقرأ في سهرات الشتاء ! ! وسرحان السليم ينظر إلى المرأة الدميمة بنوع خاص من الخيبة . . يحس بانهياره الشخصي ويستعد للهرب . . وهذه المرأة كان يمكن أن تكون معجزة خاصة له ، لو أطاع نصيحة أمه وتزوجها ، ولكن . . . . « آه ! نصيب ! ! »

يزفر بضيق ويتثاءب أبو حامد « يا رب سترك ! ! » ثم يعقب محدثاً سرحان :

ـ لايدوم إلا وجه الله . كلنا أموات !

ويقول سرحان بنوع من التعريض وهو يرقب ملامح المرأة الدميمة وتحولاتها :

ـ الرجل محظوظ ! أراحه الله من مصيبة . ويستطيع الآن أن يتزوج بهدوء !

ـ اي حظ هذا ؟ ! ! مسكين . . . كان يبكي كامرأة ! !

قال سرحان هازئاً :

ـ وماذا تريد من أمثاله أكثر من ذلك ؟

وأجاب أبو حامد بنوع من الهمس كأنما يحاول اثبات تفوقه كرجل :

حقاً ! الرجل لم يخلق للبكاء . وخاصة من أجل امرأة . يضحك سرحان في سره وينتظر أن ينفجر فم المرأة الدميمة بالسباب . . ولكنها كانت جالسة مستندة بظهرها على العمود الخشبي الذي يحمل السقف مجيلة بصرها في مدى الظهيرة المتوهج وراء الباب ، غارقة في حلم لاتعرف كيف تواجهه ! !

استمر الرجلان في حديثهما ، بين الحكمة والضحك وهي حائرة كيف تفسر مثل هذا الموت العجيب ! حين كانت تجلس قرب المرأة الميتة سمعتها تهمس باسم الشيخ حسين ثم تصرخ ، ورأتها تتشنج حين تذكره كأنما كان يجلدها بسياط غير منظورة!«ما الذي حدث حقيقة؟» تود أن تعرف ! سيكون شيئاً مراً إذا لم تعرف . . « هل أخطأت المرأة في حق الشيخ فعاقبها بالموت ؟ » انها ، هي ، تحبه وتقدره وتعتقد أيضاً أن برهانه أعظم من هذا ! ! ولكن الموت بيد الله ، والله يمهل ولا يهمل ! سمعت كل ذلك من شيوخ كبار ، فكيف يعقل أن يميتها برهان الشيخ ؟ واذا حدث ذلك فبماذا اخطأت الميتة ؟ ؟

والميتة ، كما تتذكر أم حامد ، ظلت حتى قبل موتها بيوم تعلق أملها على الشيخ في حدوث « المعجزة » التي عاشت منذ العام الأول لزواجها على حلم أن تتحقق ذات يوم ! !

لايمكن أن يكون شيء من ذاك قد حدث « في الأمر سر . . سر ! ! » تدوي الكلمة في رأسها كالرعد ، وتتمنى لو تتمكن من أن تكتشفه . . ولكن . . « آه . . » تنهدت وصمت الرجلان ، أحست بيد تدفعها للقيام . . . دارت خطوتين حول نفسها ، وراقبت في السقف وعلى الحيطان أشياء غير منظورة ، والرجلان يتابعان حركتها المضطربة باستغراب هادىء . . . ثم خطت نحو الباب دون كلمة . . ووجدت نفسها تتسرب في حنايا القرية الساخنة بحثاً عن مكان يرضيها ! اي مكان ! !

* * *

استيقظ حسين السعيدي حوالي الرابعة . . مسح وجهه بيده ، ورأى صاحب البيت ، وامرأته ، وأولاده يحيطون به في هدوء ، فسبح اسم الله . . .

أحس أن كابوس الساعات التي مرت قد تحول إلى حلم ، مايزال يوغل بعيداً عن محيط الذاكرة . غسل يديه ووجهه ورأى أن « الأمور والحنكة » تقتضيه أن يذهب إلى بيت نجم الدين . . مواسيا ! ! صمم على ذلك وهو يغسل وجهه . . ثم وهو يمسحه بخرقة بيضاء ناوله إياها صبي صغير ، ولكن صوتاً وراءه نادى محيياً ، ثم حمد الله على أنه وجد الشيخ ! ! والتفت هو . . . كان رسول أبي سلطان . . . ها . . انه يتذكر ! كاد أن ينسى ! ! قال الآخر :

- سيدي الشيخ أرسلني أبو سلطان خلفك !

أي والله . . أبو سلطان . . ياحبذا . . نعم سأذهب معك ! ولكن عليك أن تنتظرني ساعة او أكثر !

قال الآخر :

- كما تريد ياسيدي ! !

- طيب انتظرني هنا . . ولكن قل لي . . أبو سلطان يريد أن اجري له « مندلاً » ليعرف السارق . . آه ؟ !

- نعم . . . أظن ذلك !

- لابد من احضار آلة العمل . . .

ابتسم وهو يتفرس في وجوه الجميع الذين علتهم ملامح الاحساس بالتضاؤل

والورع ، وأردف الشيخ :

ـ سبحانك يارب ! اللهم أنت عالم الغيب ! لايطلع على غيبك أحد . . . إلا من أذنت له ! سبحانك أنت علمتنا . . .

حرارة الشمس ماتزال حادة في طرقات القرية المتلوية . . وأحس بالخوف يقتحم صدره وهو يدخل أول طريق الأموات . توقف لحظة . . ولعن الشيطان . . كيف يخاف هو ؟ ؟ شجع نفسه بكلمات مسكّنة ، ثم أحس أنه لابد له من أن يتقدم ، فالرجل ينتظر! وأبو سلطان . . نعم أبو سلطان ربما بلغ به الضيق حد الحنق ! ولكن . . «يا ابن الكلبة من أين لي أن أعلم من سرقك ؟ » .

سيطلب إليهم أن يرووا له الحكاية ، وبعد ؟ ماذا يفعل بعد ذلك ؟ « ابن الكلبة ! . لم يعجبه أن يرسل في طلبي إلا هذا اليوم الرهيب ؟ ! ! » وجد نفسه أمام معضلة ! « أنت الآن أمام اختبار لايرحم ! ! وهذه ليست قضية سعدى ! ! » طنت كلمة « سعدى » قوية عاتية « سعدى . . سعدى . . آه ! » لن يسمح لها أن تلاحقه كاللعنة ، لا . . لن يسمح لها ! ! نفض يديه كأنما يعلن تخلصه من كل مايتعلق بها ثم عاد إلى معضلته الجديدة « كيف ؟ . . كيف ؟ » بدأ يخطو متمهلاً عبر درب الأموات ، مطرقاً إلى الأرض مستغرقاً في لم أفكاره المشتتة ! جاهد في إيجاد حل ، وأحس بالحرج والضيق الشديدين وتمنى لو أن بإمكانه أن يهرب ! ولكن . . لا ياحسين . . لا ! . ليكن البرهان هذه المرة حاسماً! « أعمل فكره وذاكرته ، وكل خبرته المختزنة ، دون جدوى ! التعازيم هنا لن تنفع ، والسارق ربما كان لايؤمن بشيء ! « مثلك يا ابن محمود السعيدي ، مثلك ! » . .

سيعود إلى كتاب أبي معشر الفلكي . . ولكن ما الجدوى ؟ « ومن أين كان لأبي معشر أن يتوقع أن أموال ذلك الوغد ذي اليد الواحدة سيسطو عليها أحد ؟ ! من أين له ذلك ؟ ! » . . فتح باب بيته ، فأحس برطوبة وبرهبة . . توقف على العتبة منتظراً أن تنفتح البوابة الداخلية من تلقاء ذاتها . وأن تخرج « هي . . هي . . نفسها ! » وامّسح كل مافي ذهنه غير صورتها . . واستسلم لحظة ثم بصق وهز رأسه ، وحدق في الأشياء ، وقال لنفسه بصوت عال « لم يبق غير هذا ! » ضحك ضحكة مفتعلة « أنا أو من بالأشباح ؟ ! هه ! الأموات جيف مطمورة . . جيف . ! لاتلبث أن تتعفن ويأكلها الدود . » تأمل اشياء موضوعة على الرف . .

هاهي ماتزال في أماكنها . حتى أرغفة الخبز التي خبزتها امرأة سرحان السليم منذ يومين ماتزال في مكانها !

اقترب منها ورفع الطبق المصنوع من قش القمح . . فاندفع صرصور كبير . . ثم آخر . . وعبرا فوق الرغيف ثم غاصا تحته من ناحية ثانية . . وصمم هو على كب هذه الأرغفة التي تلوثت .

تركها مكشوفة ثم فتح البوابة فأبصر كهفه راقداً وراءها برطوبته وسكونه « كل شيء على مايرام !والآن أين عدة العمل ؟ » عدة العمل ! عدة العمل ! !

البخور في الطاقة . . هه ! مد يده الى ورقة ملفوفة ، في كوة تحت الرف . . واصطدم كفه بكتل صغيرة . . أمسك بواحدة منها . . ها ! انها ثمرة جوز . . نعم . . « من أين . . من أين . . ؟ » لايتذكر . . « ماهم . . ! » مد يده ثانية واستخرج أربعة أخرى ، والورقة المليئة بالبخور . . وتأمل كل ذلك .

وفجأة قفزت إلى ذهنه فكرة . . وقهقه لمفرده مثل رجل مختبل ! قهقه من كل قلبه فرحاً بالمصادفة . . « ليكونن برهاناً عظيماً هذه المرة ! ! » .

قهقه ايضاً حتى دمعت عيناه وهو يتخيل كيف سيرتجف الجميع أمامه من الرعب بما فيهم ذو اليد الواحدة . « سأجعلك تقبل رجلي يا أبا سلطان ! قدمي نفسها وربما حذائي ! » .

أخرج من جيبه سكيناً كبيرة وراح يفتح الجوزات من مفاصلها ، ثم يستخرج لبها ثم ينظفها برأس السكين . . ثم راح يبحث عن مسحوق غراء تذكر أنه وضعه منذ مدة على الرف . . وأخيراً عثر عليه ! !

وضعه في صحن صغير ، وأضاف إليه قليلاً من الماء ، ثم اتجه إلى الطبق الذي يحوي أرغفة الخبز ، وصراصيرها السوداء . رفع الرغيف الأول فقبض على صرصور . . ثم أزاح الثاني والثالث فقبض على اثنين . . ثم لم يعثر على شيء منها ! « حسناً لابد من اثنين آخرين » أدار بصره إلى الكهف « سأجدهما هناك ! »

تهيأ للعمل . . وضع الصراصير كلاً في جوزة وألصقها بالغراء ثم تركها تجف . . ثم ربطها بأشرطة معدنية كي لاتنفلش وبعد قليل كان يغلق باب البيت ، وقد وضع كتاباً كبيراً تحت ابطه . . وبخوراً في جيبه الأيمن!أما في الأيسر فقد استقرت خمس جوزات تحوي كل منها صرصوراً أسوداً كبيراً!

- ٧ -

اليد الوحيدة لاتكف عن الحركة ، واللسان لايتوقف والقاعة الكبيرة المطلة على الوادي خالية إلا منهما .

منذ ساعات عمت القرية حالة ترقب وشوق مشوبين بقلق ناعم ، امتد حتى صار ذعراً . .

قالت امرأة لزوجها :

ـ ماذا لو أخطأ الشيخ ؟

ـ الشيخ يخطىء يا غبية ؟ !

وصمت الزوجان اللذان كانا يرقبان تقدم الشيخ في طريق الضيعة قبيل المغرب ، وهدأ الأطفال بجانب الأبوين على حصيرة مقرّضة متسخة ، متروكة طيلة الصيف على المصطبة . . .

ـ ولكن . . . من هو الذي لايخطىء ؟ . . . ماذا لو أنهم بريئاً ؟

ـ الشيخ لايخطىء يا امرأة ! رجل عالم مكتشف ، وبرهانه ظاهر !

سكتت المرأة عاجزة عن أن تفهم ، محاولة أن تقتنع بانه لايمكن أن يخطىء هذا الشيخ الذي تسبقه هيبته ، وقصص براهينه وتقواه . . تسكت عاجزة عن أن تفهم . . . ويعبر الشيخ مهيباً وقوراً ! !

ألقى تحية المساء إليهما ، فاضطرب الرجل مأخوذاً بالتكريم الكبير :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

قفز عن المصطبة حافياً . ثم قبل يد الشيخ راجياً أن يكرمه بالتفضل إلى بيته ، واعتذر الشيخ ومضى ، ووقف الرجل وامرأته متطلعين حتى ابتعد . . .

دخل الساحة الصغيرة ، واشرف ابو سلطان بجسده الطويل النحيل ، المتخلخل ابداً في محاولة مستورة لاتهدأ من اجل اعادة التوازن للجسد الأبتر . . وابتسم له ابتسامة كبيرة ، ثم هبط درجاً خشبياً قصيراً ، مادأ يده الوحيدة على اتساعها كأنما يريد معانقته . . . حتى اذا اقترب منه ، صافحه مسلماً ، وتنحى تاركاً له فرصة الصعود أمامه .

اليد الوحيدة لاتكف عن الحركة ، واللسان لايتوقف . والقاعة الكبيرة المطلة على الوادي خالية إلا منهما . . .

وضع الشيخ كتابه على منضدة كبيرة جديدة في الصدر ، ناظراً إلى نفسه في المرآة الكبيرة نظرة سريعة ، ثم استدار شاملاً القاعة بنظرة واحدة . . ولم يلبث أن أحس بنوع من الانقباض بدأ يكبر شيئاً فشيئاً .

ثمة مقاعد كبيرة زرقاء ، وديوان كبير بني والى جانبه خزانة للملابس تتصدرها مرآة طويلة ثانية .

نفر من كل هذه التلوينات غير المريحة ، وأجلس الرجل ذو اليد الواحدة على مقعد مقابل الباب . . ثم جلس إلى جانبه ، بينما راح هو يعاني من كفاح مكتوم حتى لاينظر سهواً أو عمداً إلى الجانبين فيرى صورته في احدى المرآتين ! !

والرجل ذو اليد الواحدة يرقبه ، متأملاً أن يبدو عليه الإعجاب بالأثاث الجديد للقاعة الكبيرة . . أن ينظر مبهوراً إلى المرآتين . . إلى الخزانة . . إلى المقاعد . . إلى البسط الجديدة المفروشة في الأرض . . غير أن الشيخ بدا وكأنما لم يلحظ ذلك ، بل غرق فوراً في مقعده ، مثبتاً نظره إلى الباب المفتوح وشجرة التوت الكبيرة خلف الدار . وتنحنح أبو سلطان ثم سعل . . ثم عاد يسأله عن الأحوال والصحة ، والشيخ يجيب برزانة أو بابتسامة أحياناً . ثم طلب ماء ، فنادى ابو سلطان . . وحضر الماء ، وثرثر صاحب البيت على هواه ، وابتسم الشيخ دون فهم تقريباً ، كان انقباضه يستغرقه ، وسعدى مانزال تغدو وتذهب ، وكلمات الرجل ذي اليد الواحدة تطن طنيناً فقط . . تطن فلا تبدد الوحشة . وصورته التي ترتسم في

المرآة لم يملك أن يختلس إليها احياناً نظرة خائفة ويرى كل التجهم والصفرة في ملامحه . . فيتنبه ويقول شيئاً للرجل الآخر . . بينما يندفع هذا في حديث جديد كأنه يريد أن ينفي كربة ضيفه . . والضيف ينقبض صدره أكثر . . ينقبض . . ينقبض . . كما لو أنه محكوم بالنفي إلى جزيرة مقفرة .

وأخيراً تنبه . . ثمة خطا تصعد الدرج الخشبي ، وبهض أبو سلطان ، وبعد لحظات دخل رجل ، وصاح ذو اليد الواحدة :

ـ أهلاً بهلول ! هل جئت تسلم على الشيخ حسين ؟

ـ همـه !

لم يرد بهلول بأكثر من ذلك ، ولم يسلم . بل أدار نظره في الغرفة كأنما يراها لأول مرة . وتأهب الشيخ حسين . ولكن « بهلول » لم يبد عليه أنه لاحظ وجوده . عقد يديه خلف ظهره ، ثم مشى إلى النافذة ، وقبل أن يصل استدار يرشق الغرفة بنظرة شاملة من جديد . . كان يعقد فوق جبينه « كوفية » بيضاء مدروجة كطاقية ذات ذيل عريض عند النقرة . . وفوق القميص الأبيض المتسخ ، عباءة صوفية سميكة قصيرة الكمين ، تصل إلى مانحت خصره ، وسرواله الأبيض متسخ ببقع التراب الأحمر . . وحذاؤه الذي كان ذات يوم بلون أحمر فاقع ، أصبح الآن باهتاً بعد أن تقشر كثيراً وتمزق من الأمام وعلى الجانبين . .

ورغم العباءة ، لم يكن جسده ينضح عرقا . . كان ضئيلاً إلى حد التلاشي ، وكانت عيناه ، وحدهما ، هما الجزء الحي المشع في ذلك التكوين القميء . . عيناه تخترقان الأشياء اختراقاً ـ هكذا خيل للشيخ حسين الذي ازداد تحفزاً وانقباضاً ـ لم يكن قد رأى بهلول من قبل ، إلا أن هذه الطريقة في الدخول إلى القاعة المهيبة ، رغم تنافر أثاثها ، وصمت أبي سلطان ، وتوقفه بجانب الباب . . كل ذلك جعله يشعر أن ثمة أمراً مريباً . .

غمز أبو سلطان بعينه وهو يكتم ضحكة ، ظنها الشيخ حسين مفتعلة ، ثم قال :

ـ بهلول . . هل تريد أن تعظنا بشيء ؟

ورشقه بهلول بنظرة طويلة دون أن يتوقف عن المشي البطيء حتى لايكاد يحس ، عن الدبيب الذي يبدو أنه يحرص حرصاً على أن يكون خافتاً . . وعاد أبو

سلطان يتكلم غامزاً للشيخ حسين بعينه :

ـ أعرفك على الشيخ بهلول . رجل منقطع لعبادة الله . . يأتي إلى بيوت الخاطئين أمثالي فيعظهم . . وأحياناً يسبهم . . . وهو يدعي أنه يصلي كثيراً ولكنني لم أره يفعل ذلك !

وتوقف بهلول فجأة وقال بصوت قوي :

ـ أتسخر مني يا عدو الله ؟ !

استولت حيوية مفاجئة على أبي سلطان وملكته رغبة لافحة في أن يضحك الشيخ حسين على بهلول فقال :

ـ أتعرف لماذا تسمى بهلول يا شيخ حسين ؟ ها . . لذلك حكاية . . بهلول لقب . . واسمه الحقيقي ابراهيم . . وهو يقرأ كثيراً عن الأولياء والصالحين . .

غمز بعينه وابتسم الشيخ حسين ابتسامة صفراء ، وتوقف بهلول مترقباً وعاد الرجل ذو اليد الواحدة يقول :

ـ وقد قرأ مرة عن رجل تقي مؤمن مثله عاش في أيام الرشيد . . هارون الرشيد يعني . . وكان له معه فصول أعجبت ابراهيم ، وذلك الرجل كان يدعى بهلول المجنون . . ويقال أنه كان دائماً يبكي في المقابر ويخاطب العظام البالية ويتعبد هناك . . . وهذه السيرة العجيبة أعجبت ابراهيم . . أي نعم . . فسمى نفسه بهلول . . ولكن بهلول القديم كان يركب على قصبة كبيرة ويعلق فيها مخلاة ، مدعياً أنها فرس . . وهذا هو الفرق الوحيد بينهما .

وضحك ذو اليد الواحدة ضحكة واسعة . . وأحس الشيخ بوخز في أعماقه حين سمع كلمة المقابر ، وتأهب بهلول للرد . . إلا أن ذكر صاحبه بهلول الأول سكن من غضبه فقال له :

ـ يا عدو الله . . كان قارون أكثر منك أموالاً فهل تقول لي اين هو الآن ؟

واستعد ابو سلطان لحوار مع بهلول يضحك الشيخ أكثر :

ـ وما يدريني أنا ؟ أنت مؤمن عارف . . قل لي : اين هو ؟

ـ حيث نزل آباؤك وأجدادك يا عدو الله . . في جهنم . . في جهنم ! ! ان الله يمهلك ولا يهملك يا عدو الله ! !

ـ وماذا فعلت له حتى لايهملني ؟

ـ ألا يكفيك ظلمك وتجبرك ؟ ألست تأكل « الفائدة » ؟

ـ ولكنها أموالي أشغلها ! !

ـ ها . . ألست تشتري من الفقراء زيتهم بليرتين وتبيعه بخمسة ؟

ـ قلت لك انها أموالي . . ولكن قل لي أنت . . أتظن أن الله يعطيني كل هذه الأموال لو لم يكن يحبني ؟ ؟ !

ـ الله يختبر سوء أفعالك ! ولكن قل لي . . لماذا جئت بهذا الرجل إلى القرية ؟

ـ هذا الرجل ؟ ! ألا تعرف أنه الشيخ حسين السعيدي . أهكذا ينادي المؤمنون شيوخهم العارفين بالله ؟ عيب يا بهلول ! !

ـ ألا تراه كأنه جزء من الجدار ؟ هه . . قل لي يا شيخ حسين . . قل لي لماذا أنت خائف ؟ هل ارتكبت جريمة ؟ . . ايه ؟ ! خوفك شديد . . والمؤمن لايخاف إلا من ذنوبه ! فماذا فعلت ؟ . .

اصفر وجه الشيخ حسين وتلعثم . . أحس كأنه يتعرى أمام بهلول بكل تاريخه الدنس . . يعريه بهلول أمام العالم جميعاً وينكش حكايته واحدة واحدة . . وتضاءل وانكمش في مكانه دون كلمة . . وفي الداخل بدأت ظلمة قاتمة تملؤه . . واسأنف بهلول :

ـ لماذا لاترد ؟ ! هذا يئست منه ! أبو سلطان هذا إلى جهنم . . إنما أنت . . ماذا تريد منه أنت ؟

ـ لا . . هكذا لا . . كن أديباً مع الشيخ يا بهلول !

وأصبح صوت ذي اليد الواحدة صراخاً :

ـ الشيخ لايرد عليك لأنه يعرف انك خفيف العقل . .

ـ خفيف العقل من كان مثلك لايخاف الله ! أتظن أني جئت أطلب منك شيئاً ؟ أنت تعرف أن بهلول لايطلب من أحد شيئاً . . الله وحده هو الذي يرزقه . . وبهلول يحتمل من الناس أن يضحكوا عليه لأنهم لايكادون يضحكون من كثرة مصائبهم وشقائهم . . أما أنت فخذ حذرك مني ! !

أحس أبو سلطان أن دعابته ستنقلب إلى معركة . . ومع من ؟ مع بهلول ! بهلول الذي يعرف الجميع أنه معتوه ، قليل العقل يقضي كل أوقاته تقريباً في

المقبرة ! ! ولكن بهلول أساء إلى الشيخ ولا بد أن يقنعه بالاعتذار له ، ثم يطرده بالحسنى . .

وضع يده على كتفه وقال :

ـ أنت اليوم سليط اللسان يا بهلول . .

ـ أنا سليط اللسان من أجل الحق . .

ـ ولكنك أسأت إلى الشيخ واتهمته ظلماً بما لايرضي الله . . ويجب عليك ان تقبل يده كي يسامحك !

ـ بهلول لم يخطىء مع أحد . . ولايقبل يد أحد ولا ينحني لأحد إلا لربه ، هل فهمت ؟

كان بهلول غاضباً . . وعاد أبو سلطان يضحك شاعراً في أعماقه أنه قد تورط في أمر لم يكن يريد أن يحدث . . ضحك بتكلف وهو يأمل أن يهدىء هذا غضب بهلول . . ورمق الشيخ . . كانت شفته السفلى ترتجف ارتجافاً لايكاد يحس . . وتجمعت أجفانه كأنما يهم بالبكاء . وعاد بهلول يقول :

ـ يا أبا سلطان . أنا جئت اسألك سؤالاً واحداً . .

ـ ها . . ؟

ـ لماذا جئت بهذا الرجل ؟

ـ وما دخلك أنت ؟

ـ اسألك سؤالاً . . والسؤال ليس حراماً .

ـ ألم تسمع يا بهلول بسرقة مصاغ زوجتي ؟

ـ وماذا تنوي أن تفعل ؟

ـ ماذا أنوي ؟ ولماذا تسأل أنت ؟

ـ طيب . . أظن أنك ستجمع أهل القرية ، ليجري هذا الرجل « ملعوباً » يظهر السارق ؟

ـ ربما شيء من هذا .

ـ هذا حرام ! هذا حرام ! !

ولأول مرة تكلم الشيخ حسين :

ـ لماذا هو حرام يا بهلول ؟

ـ أنت شيخ ولا تعرف الحلال من الحرام ؟ هاه ؟ قل لي أنت . . كيف تبيح لنفسك أن تجلس كل أهل القرية هذا المجلس الذليل ؟ ألا تخاف الله . . تجعلهم متهمين دون ذنب ؟ !

قال أبو سلطان :

ـ ولكنهم سرقوا مصاغ زوجتي !

ـ واحد من الناس هو السارق ! فلماذا تتهم الجميع ؟

ـ أنا لا أتهم أحداً إلا من يتهمه الشيخ . . الشيخ رجل متكشف على الأسرار وليس مثلك تنبلا ! ! ثم أنا أثق به !

ـ وإذا أخطأ شيخك هذا ؟

رد الشيخ بغضب كأنما جلد بسوط :

ـ أنا لا أخطىء

وصرخ بهلول :

ـ اسكت . . عدو الله ! ! العصمة لله وحده ! أنت وهذا الأبتر إلى جهنم ! ! قاتلك الله تستخدم السحر والحيل التي نهى عنها رسول الله ؟ لعين . .

انصبت الكلمات على رأس حسين السعيدي كالجمر وأحس أن في قلبه شيئاً قد انفجر ، وغلى الدم في عروقه والتهب خداه بغضب جامح ، ودارت القاعة به ، وغام كل ما يراه . . فاندفع إلى بهلول وهو يصرخ به :

ـ أيها الكلب ! أتسبني ؟ اخرج من هنا .

ودفع بهلول دفعة ألقته عند الباب . . وفي لمحة كان غضبه قد همد ، وبردت أطرافه فتوقف ذاهلاً يرقب بهلول وهو ينهض ململماً غطاء رأسه ، وركله الأبتر برجله قائلاً له :

ـ لئن عدت بعدها إلى هذا البيت لأجعلنك عبرة لمن يعتبر . . فهمت ؟

ولم يتكلم بهلول ، بل سوى « كوفيته » على رأسه ، وبصق ثم راح يهبط الدرجات الخشبية بهدوء كما صعدها بهدوء .

وترنح الشيخ حسين ، ثم ألقى بجسده خائراً على كرسيه . . كان من المستحيل أن تندمل طعنة بهلول له . . وقال أبو سلطان معتذراً :

ـ لم يكن ذات يوم سيء الخلق مثل هذا اليوم ! على كل حال . . أرجوا ألا

تهتم كثيرا لما جرى فهو مجنون ولا يُعتب عليه . .

- لقد دفعني إلى ما لم أكن أريده . . أعوذ بالله !

- يقول المثل : مجنون رمى حجراً ، ومئة عاقل لم ينتشلوها . .

وبينما راح يضحك ببلاهة على « مثله » كان الشيخ حسين يغوص ثانية في ظلمته وانقباض صدره . وغير بعيد . . ارتفع صوت أذان جميل : الله أكبر . . الله أكبر .

وتضاءل الشيخ حسين في مجلسه حتى كاد يتلاشى . .

الله أكبر . . الله أكبر . .

كان بهلول يؤذن ، وهو يركض هارباً من القرية إلى الحقول القريبة .

* * *

في الساعة العاشرة ليلاً ، غصت القاعة الكبيرة بالذين توافدوا إليها . رجال القرية ونساؤها وأطفالها . . اقتعدوا الأرض ، أو وقفوا يسندون الحيطان على الجهات الثلاث . . وجلست أم سلطان على مقعد جلدي أمام الجميع بعد أن أدارته قليلاً باتجاه الداخل . . حيث نصبت طاولة وضع عليها منقل من الجمر المتقد ، وفوقه قطعة مربعة كبيرة من الحديد الرقيق ، وفتح الشيخ حسين الكتاب الأصفر المجلد بالقماش إلى جانب المنقل ثم حوقل وتعوذ ، ثم صلى على النبي وآله . . وسكن الجمع المحتشد ، وماء طفل صغير مواء خافتاً ، فنهرته أمه ، ثم القمته ثديها ، وأصاخت بسمعها إلى الشيخ الذي جلس خلف « آلته » متأهباً . .

ساوره القلق من أن يفشل ، وأحس بالارتباك أولاً . . وكان خيال سعدى يلاحقه . . ولكن الحشد آنسه ، وبذل هو من جانبه جهداً للتغلب على ارتباكه . . إنها مسألة سمعة « سمعتك يا حسين السعيدي ! ها . . لماذا ترتجف يداك ؟ إنك لتبدو مثل تلميذ جديد في الصنعة . . لا ياشيخ حسين . . لا ! لقد نجحت في مسائل أهم ! » تتوارد على ذهنه خواطر حول أحداث مشابهة ، فيمسحها من ذهنه مسحاً بعد أن يطمئن إلى ثقته بنفسه . . أبو سلطان سيدفع مئة ليرة بالتمام والكمال إن ظهرت قطع المصاغ الثمينة التي لاتساوي أقل من ألفين وخمسمئة ليرة ! ترمق

عيناه أم سلطان الجالسة أمامه مباشرة . . شعر أنها تبتسم خلسة . . هذه المرأة السمينة ذات الجلد الأسمر المحرق . . « انها لاتساوي ماعليها من ثياب ! » ومع ذلك ظل ينظر إليها ثم يقلب بصره في الحضور الصامتين ، وهو يتلو آيات تنهى عن الفحشاء والمنكر ، أو يكرر أحاديث نبوية في النهي عن السرقة . . والناس يترقبون أن يبدأ عمله العجائبي السحري ، بنوع من اللهفة المشوبة بالخوف . .

أبو سلطان يجلس هو الآخر بعيداً على مقعد جلدي وينفخ دخان سيكارة لفها له أحد الجالسين قربه . .

وفرغ الشيخ من تلاوة مواعظه ثم توجه إلى الجميع بصوت غليظ محكم الأداء ، يتقن لهجته من أجل إثارة الرهبة ، وقال :

ـ يا اخوان . من كان يعلم أن مصاغ أم سلطان عنده فلا يكلفنا عناء العمل ، واستحضار الجان . . وأنتم يا اخوان تعلمون أن الجن إذا حضرت لن تنصرف مالم تؤذ الفاعل . . . إنني أنصحكم . .

لم يتكلم أحد بشيء . . وابتسمت أم سلطان من جانب فمها وأطرق الشيخ لمحة ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ اللهم اشهد . لقد رفعت المسؤولية عن عاتقي وأبرأت ذمتي ! !

وعاد الطفل الصغير إلى المواء من بعيد ، وعادت الأم تلقمه ثديها ، واستسلمت القاعة للصمت ثانية ، ومد الشيخ حسين يده إلى جيبه ، فأخرج الجوزات الخمس . . ثم بدأ دمدمة غير مفهومة ، ناظراً في كتابه ، ثم صرخ بسرعة شديدة :

ـ ياملوك الجان الأحمر والأزرق والأخضر والأصفر والأسود . . ياملوك الجان . .

وقذف بالجوزات على قطعة الحديد الساخنة وتابع صراخه :

ـ العون . . العون ! العدل . . العدل ! الحضور الحضور الحضور . . بحق السر والبخور .

بدأ صوته يعلو ويهبط وهو يقلّب الجوزات بيده ثم تناول جمرة فوضعها في صحن صغير ، ووضع فوقها قطعة بخور ، وعلا الدخان وصرخ وهو ينظر من جديد في كتابه :

ـ العون العون ياملوك الجان . بحق النقش الذي على خاتم الملك سليمان .

واشرأبت الأعناق وامتلأت الصدور بالرائحة النفاذة للبخور المحترق ، وغامت التمتمات من جديد . . والشيخ يقلب الصفحات ويقرأ هنا وهناك كلمات عن العفاريت والجن . . كلمات عن الملك سليمان . . كلمات عن الرصد ومدائن النحاس ، ويده الأخرى تحرك الجوزات الخمس وعيناه تقفزان عن السطور إلى وجوه الناس المحتشدين تحت أضواء قناديل أربعة ، موضوعة في أركان الغرفة ، والعيون تترقب الجوزات ، وهو يدمدم ثم يصرخ . . ثم يعود إلى الدمدمة ، واختلجت القاعة بجوها المحموم وتابعت العيون حركات اليد وصفحات الكتاب التي تنقلب . وفجأة عم الذعر القاعة وانتشرت آهة مكتومة محترقة ، وصرخ الشيخ :

ـ الملك الأحمر . . سيد الجان . . وقائد العفاريت والأعوان . . بحق النقش الذي على خاتم مولاك الملك سليمان لاتصب إلا من سرق ولا تؤذي إلا من مرق . . ياسيد الجان بحق مولاك الملك سليمان .

كانت جوزة من الجوزات قد قفزت فوق قطعة الحديد ثم هبطت فأصدرت خشة خافتة . ولكن الجميع ظنوها قرع طبل من الطبول ، وفغرت الأفواه . . ولم يلبث الشيخ أن صرخ :

ـ الملك الأزرق حاكم جزائر الياقوت . . الملك الجبار الذي لايفنى ولايموت . . الملك الأصفر الملك الأصفر . . الملك الأخضر . . وأخيراً سيد الجان وقاهر كل مارد وعفريت ، ملك الملوك الأسود . . الملك الأسود . .

وانقلب صوته فحيحاً وولولت أصوات هنا وهناك مأخوذة برعب المنظر الفريد : الجوزات الخمس تتراقص كأنما تهم أن تطير . تتقافز وتتدافع . والبخور يعلو محترقاً ناشراً عطره الجنازي ، والشيخ مبهور بحضور ملوك الجن الخمسة . . وصوته المبحوح يحشرج حشرجة . . كما في لحظة الموت ثم بدأت يده ترتجف . . وراح يصرخ :

ـ جاء الملوك . . جاء المردة . . ياملوك الجن أشفقوا على السارق . . آه السارق تقطع يده ؟ ماذا ؟ ؟ صدقتم . . شرع النبي . . شرع النبي ﷺ . . ولكنكم ستفقؤون عينه ؟ ! يا ملوك الجان . . الرحمة الرحمة . .

وراحت عيناه تدوران بين الجمع باحثاً عن فريسته . كانت سيطرته تقبض

على كل قلب فتعصره عصراً والجو ممتلىء بهيبته وجبروته . . ولكنه خائف في أعماقه من أن لايجدي كل ذلك شيئاً . . وحطت عيناه على أم سلطان . . كانت فاغرة الفم متراخية على كرسيها ، كأنما توشك أن تدخل في حالة إغماء . . أم سلطان لاتحرك بصرها ولايدها ، ولا جذعها ولا رأسها . .

تتنفس مسترخية اليدين كأنما شلت تماماً . . وعاد الشيخ يصرخ أيضاً وهو يرقبها مستغرباً :

ـ ياناس ! ملوك الجان يعطونكم فرصة أخيرة . . ياناس من كان لديه خبر عن السرقة ، فليتكلم . . وإلا فمن يدري ما قد يفعل العفاريت الجبارون ؟ ياناس . .

كان في أعماقه شعور من يستنجد ، ولكن ولولة النسوة تعلو ويعلو معها شهيق الرجال . . وساد هرج وصياح مكتوم ، وماء الطفل للمرة الثالثة ، ثم أخذ يبكي بكاء حاداً كالزعيق . . وعينا الشيخ حسين تطوّفان . . وأخيراً فوجىء : إن أم سلطان تتحرك ثم تشير له خفية باسترحام ، ليوقف هذا الخوف القاتل ، ومدت يدها إلى صدرها مؤكدة أن المصاغ عندها . . وتنفس الشيخ الصعداء . . وسقط عبء كبير عن كتفيه . . وأطبق كتابه ثم تناول الجوزات فوضعها بعيداً عن قطعة المعدن الساخنة ، ثم رفع الكتاب وهو يأمر برفع المنقل . . والبخور . . ثم تناول طاسة فيها ماء فصب قليلاً على الجوزات ودسها في جيبه . . وتوقف كل صوت ، ونظر الجميع مشدوهين مذهولين . .

وسأل ابو سلطان عما يأمر به الشيخ ؟ ولماذا أوقف استحضار الجان ؟ ؟ ولم يرد الشيخ بشيء بل قال للناس :

ـ انصرفوا بارك الله فيكم . . لقد عثرت على المصاغ !

وصرخ أبو سلطان :

ـ اين ؟ قل لي أين ؟ ؟

ـ لا . . هذا ليس من عملك . . سأسلمك مصاغك قبل الصباح !

وسرت همهمة بين الناس . . واسرع رجال يقبلون أقدام الشيخ ويتبركون بلمس ثوبه ولكنه لم يبال بهم بل تقدم الى الباب وفتحه آمراً أن يخرج الجميع ماعدا أصحاب البيت .

وخرج الناس ذاهلين حتى إذا نزلوا الدرج الخشبي انفجرت في الطريق ضجة قوية ثم مازالت تبتعد حتى تلاشت ! !

والتفت أبو سلطان بعد أن فتح النافذة ، فوجد زوجته ماتزال في مقعدها وقد استرخت مسندة رأسها ثم يدها . . فهمست له :

ـ أنا خائفة يا أبا سلطان . . خائفة !

ـ أعوذ بالله ماذا جرى لك ؟

والتفت الشيخ حسين الذي كان يتأمل الوادي من نافذة أخرى ، وقد نشر عليه القمر غلالة من الضوء والظلال ، فبدا رهيباً . . التفت فرأى المرأة مسترخية على مقعدها كالمشلولة ، فأسرع نحوها سائلاً :

ـ ماذا بها ؟

ـ لا أدري . . انظرها . .

ولمس الشيخ جبينها ثم يدها ، وأخيراً قال بعد أن تأملها لحظة :

ـ لا . . أنت خائفة . . لاتخافي . . لاتخافي

وتمتمت المرأة :

ـ ولكنني لاأجرؤ على النهوض

ـ بل ستنهضين ! لاتخافي . لقد حبست العفاريت ثم أعدتهم إلى جزائرهم وقلاعهم كالكلاب . .

وهزت المرأة رأسها غير مصدقة ، ثم عادت تهمس :

ـ لاأستطيع النهوض . . أنا خائفة !

وحاول الشيخ أن ينهضها ولكنها رجته أن يتركها تستريح . وتأملها قليلاً ، وفجأة لمعت فكرة في ذهنه فسأل أباسلطان :

ـ أليس لديكم بابونج في البيت ؟

ـ لاأظن . . لا !

عليك أن تحضر لي شيئاً من البابونج ! ويجب أن نسقيها من منقوعه لأنه يخفف عنها ويريحها .

ـ ولكن . . أين أجده ؟ لو بقي عندي واحد ممن أعتمد عليهم . .

ـ إبحث في بيوت القرية أنت !

وحين خرج ذو اليد الواحدة عاد الشيخ إلى جوار مقعدها وهمس لها :

ـ ها . . كفاك دلالاً ! لقد واتتك الفرصة الآن . أعطني المصاغ لأسلمه صباحاً إلى زوجك .

ـ ولكنك ستقول له كل شيء ! إنني خائفة .

ـ لا . . من هذه الناحية اطمئني . . ولو أردت أن أخبره لفعلت من البداية .

ـ أرجوك الا تقول له شيئاً . أقبل قدميك !

ـ لاداعي . . لاداعي . . فقط اسرعي بإحضار المصاغ قبل أن يعود .

ـ وتلفتت المرأة كأنما لتطمئن إلى أن أحداً لايراقبها . . وتطلع الشيخ من النافذة . . كان شبح ابي سلطان قد غاب بين بيوت القرية . . وأشار لها وهو يقول :

ـ هيا . . لقد ابتعد !

ونهضت المرأة فعبرت الباب وغابت ، وعاد الشيخ يتأمل الوادي ثانية ويستحضر صورة نجاحه العظيم هذا ثم لم يلبث أن ابتسم لنفسه ابتسامة باهتة . .

وحين رجعت أم سلطان مدت يدها إليه بصرة صغيرة ملفوفة بعناية ، فكها فبرق الذهب في ضوء القناديل . . وعندما تأكد من المصاغ دسه في جيبه وهو يقول لها :

ـ والآن . . عودي إلى مقعدك وحدثيني . . لماذا فعلت كل هذا ؟

ـ لا . . أرجوك لا . . لن أحدثك !

ـ ولكنني أعرف .

ـ تعرف ؟ ! مستحيل .

ـ همه ! اجلسي . . اجلسي

وجلست المرأة متأملة هذا الرجل العجيب الذي لاتخفى عليه خافية . . من أين يعرف ؟ من أين . . ؟

ـ قولي لي يا أم سلطان . . لمن كنت ستعطين المصاغ ؟

ـ قلت إنك تعرف ؟ !

ـ نعم أعرف ما كنت ستفعلين .

ـ وماذا كنت ستفعل ؟
ـ كنت ستهربين مع أحد الرجال . .
ـ آه . . ويلي . . من أين وصل لك الخبر ؟
ـ اطمئني . . فأنا أعرف كل شيء . ولكنك لن تهربي .
ـ استرني . . ستر الله !
وارتمت على قدميه . فرفعها وهو يقول :
ـ لا . . لا . . ساكون مخلصاً لوعدي . . ولن أتكلم ! ولكن لماذا تهربين ؟ أنت أم ولدين ، وتحت يدك ثروة ، وزوجك محترم . .
ـ آه . . أنت لاتعرف الجحيم الذي أعيش فيه ! إنني أكرهه . . أكرهه ! إنه رجل كذاب خسيس ، جبان ! . . أنت لاتعرفه ! !
ـ وأين بإمكانك أن تهربي منه ؟ سيعيدك من حيث تذهبين !
ـ كنت سأذهب إلى لبنان . . أما الآن فقد انتهى كل شيء . ولكن أقسم لي بالله أنك لن تبوح بشيء
ـ أعاهدك على ذلك . فكوني مطمئنة
ـ وأنا ساكون تحت أمرك إذا حفظت سري . . وإذا احتجت أي شيء فاطلبه مني . . مني أنا
ـ اطمئني . . اطمئني ! يجب أن تثقي بي ! ! ولكنني احترت في هذا الأمر والله
ـ آه لو كان في الوقت متسع لحكيت لك من فصوله العجائب ! هاهو قد أتى . .
ـ استرخي على كرسيك كما كنت .
وأمسك بيدها بينما كانت خطوات أبي سلطان تقرع السلم الخشبي . . وحين وصل إلى الباب قال الشيخ :
ـ ولكن العفاريت مقيدة بقيود لاتفلت منها إلا بطلاسم وأسرار . .
والتفت إلى أبي سلطان مكملاً :
ـ لقد كانت خائفة جداً وهي الآن أحسن حالاً . . هيا حضر منقوع البابونج وفي منتصف الليل قاد الرجل زوجته إلى غرفتها وأضجعها في الفراش ،

وحين عاد لم يجد الشيخ في القاعة فأسرع إلى النافذة ، وتطلع نحو الطريق . وفي ضوء القمر رأى شبحه يغيب بين البيوت . ولم يداخله شك في أن الشيخ قد ذهب يحضر المصاغ . فتنفس بارتياح ثم راح يعد له الفراش ريثما يعود .

- ٨ -

دار حسين السعيدي في الأزقة الملتوية ، البيوت مقفلة والناس نيام . وهو يحس أن قوة ما تطارده ، وأنه يريد أن يهرب . . أن يمشي ، ويمشي، ويمشي . . إلى أقصى أطراف المعمورة ، إلى أي مكان يستطيع فيه أن يستريح من ثقل ما يحمله في قلبه . .

الناس نيام ! . . في هدوئهم المطمئن ورضاهم ، يغمضون العيون التي تبدوا أحياناً وادعة كعيون الخراف وأحياناً يجول فيها غضب صامت عاجز فلا تلبث أن تنفجر بالبكاء . . وهو . . هو ، الرجل الذي يرهبه الجميع . . يرهبه كل أصحاب العيون الوادعة أو الغاضبة ، عاجز عن أن يغمض ويستريح لحظة واحدة . . عاجز أن يستقر لحظة في مكان ليس فيه من يخفف عنه هذه النار التي تستعر في أعصابه . .

يعبر أشجار سنديان كبيرة على حافة البيوت وتداخله رهبة من الظلال السوداء المنتشرة . . وتخش أصوات خطاه على الأوراق الجافة خشيش حيوان هائج ، ويعبق السكون بوحشة خانقة . أية أقدار هذه التي كتب عليه أن يراها ؟ إنه يكتشف دائماً هذا الزيف الذي يلوث الحياة . . الزيف الذي يزورها حتى يضيع فيها كل بصيص ضوء ! كيف اتيح للانسان أن ينحدر الى هذه السوية ؟ ؟

امرأة أبي سلطان تريد الهرب . . وزوجة سرحان السليم تأتيه مثل

عاهرة . . والفرس الشقراء تسير بذي اليد الواحدة إلى حيث يوجد قرش يمكن أن ينهب ويستلب . . . والأفندي يغطس في خيالاته ويبني لنفسه سجناً من الأبهة الكاذبة والمجد الذي لاوجود له ، ويختنق في ظلام تصوراته البائسة التي يرجو بها أن يسترد اعتباره . . وقريته علموها أن تقامر وان تسكر وان تخنع مثل كلب ذليل . . وهو . . هو الدجال ، يسمونه بخشوع « شيخاً » عظيماً . . ومازال يداه ملوثتين بجسد امرأة ويدم امرأة . . « اين هو الصفاء والنقاء في حياة الناس ، أين ؟ ؟ » . .

السؤال يهوي كمطرقة ، ورأسه يترنح خائفاً خائباً . . اين هو الإنسان النقي أين ؟ . .

فجأة يخترق بهلول سؤاله الذبيح ! يخترق في رأسه أحلاماً غامضة وطموحات مستحيلة .

بهلول ؟ . . آه بهلول نعم ! ! بهلول الذي ضربه ورماه خارجاً ، كخرقة تافهة ، هل يصلح هو حسين السعيدي بكل « معجزاته ؟ » الملفقة ليغسل قدم بهلول ؟ ؟

رفع راسه إلى القمر ، الساطع كوردة كبيرة زاهية ، وتأمل عناقيد النجوم . . شعر كأن عيوناً ترقبه فاطرق مغضياً ورن في أذنه صوت بهلول :

ـ كيف تتهم قرية بكاملها ؟ ألست تخاف من الله ؟ ؟

آه . . أين أنت يا بهلول ليركع عند قدميك ؟ أين ؟ ؟

الطريق تبتعد . . وهو لايدري أين يتجه حقاً ! وليس مهتماً بذلك ! يسير ويسير حتى يحس بالاطمئنان . . حتى يشعر بأنه قادر على الاستقرار في لحظات الخوف والوحدة القادمة ! تأمل الشجر ذا الظلال المتداخلة . . الشجر المنبسط على جانبي الطريق ، ساكناً تحت الضوء الناعم اللطيف . الشجر لايوحي بأية حياة ! ! شجر ، متطاول ، هادىء ، موحش ! « آه كيف أقفر كل شيء ، هكذا ، دفعة واحدة ؟ كيف . . كيف ؟ ؟ » .

استمر في سيره ، والطريق استمرت في تعرجها بين الأشجار ذات الوحشة المتسعة ، والصراصير ، بصفيرها الواهن ، تجعل السكون يطن طنيناً مبهماً . . وهو يسير ، يسير غارقاً في همومه ، حاملاً قلبه العاجز ، يتمنى لو ينفض عنه كل تاريخه

الذي يثقله وينغص عليه !

وفجأة تنبه ! التقط سمعه همساً خافتاً وادعاً كتلك العيون التي يعرفها . . واختلجت كل خلاياه . . وتوتر جسده . . فوقف مترقباً مذهولاً . . من الذي يعمّر بصوته هذا الليل الحزين . . من ؟ ؟

الصوت يرتفع أكثر . . صوت ضراعة خاشعة وإن يكن غير مفهوم ! إنه قريب . . قريب ! ! تقدم . . ودار ببصره في الضياء البارد . . ضياء القمر الذي يغمر الحقول والتلال صافياً رقراقاً .

دار ببصره . . وتأمل فوق صخرة قريبة . . ثمة رجل يركع متجهاً إلى القبلة . . لابد أن يكون « بهلول » . نعم لابد أن يكون هو ! ومن غيره ؟ وراح يقترب حتى حاذاه والرجل ساكن غارق في صلاته وفي أدعيته الخافتة ، لايكاد يتحرك . تأمله ذاهلاً مأخوذاً . . بهلول إذن ؟

« ويلك من الله يا حسين السعيدي . . كيف أسأت إليه ، كيف ؟ » .

يتآكله الآن ندم رهيب . . وينتشر الخوف من أطراف أصابعه حتى قمة شعر رأسه والرجل الوحيد الساكن غارق في ضراعته . . وأحس الشيخ حسين كأنما قد تقدم الزمن به عشرين عاماً إلى الأمام . . وهو قد صار كأنه جذع كبير ، تخترقه من الداخل دودة رهيبة ستجعله يسقط عند أول نفخة ريح !

يود من أعماقه أن يتجه إلى الله . . ولكنه يتذكر آثامه التي لم تنقطع ، فيتراجع كفأرة هاربة . . « كيف تلقى الله يا ابن محمود السعيدي ؟ بينك وبينه تاريخ لايمّسح ! بينك وبينه ستار من الزمن المدنس والآثام والذنوب ، فكيف يمكن أن تلقاه ؟ كيف . . كيف ؟ ؟ » .

يتضاءل قلبه ويتصاغر ، حتى صار كأنه رأس ابره . وهو يتأمل بهلول بوله مجنون عات اجتاحه مثل عاصفة . . وللحظة أحس كأن الاعتذار إليه والندم بين يديه ، سيجعل باب الله مفتوحاً أمامه . وبدون أن يدري وجد نفسه ينزل بكل جسده على أقدام بهلول منخرطاً في بكاء فاجع ! !

وتململ ، والدمع يتساقط ، وصدره يعلو ويهبط ، وأجفانه المطبقة مستسلمة لمرارة البكاء النادم ، وتمنى لو أن الصخرة تتحول شراباً موحلاً يمرغ نفسه فيه حتى تتلاشى قوته . . تمنى أن ينسحق انسحاقاً لقاء أن يحس بالصفاء لحظة واحدة . .

وراح يحشرج بين زفراته المتصاعدة :

- سامحني يا بهلول سامحني ! !

وسرت برودة الحجر إلى خده وتسربت في عروقه ، وهبت نسمة رخية من أعماق الوادي تمايلت لها أغصان الزيتون بلطف شديد ، وداعبت أجفانه المبتلة المغمضة . . فشعر بهدوء يكاد يملأ قلبه . . وهمس :

- شيخ بهلول . . هل صفحت عني ؟

ولم يجبه بهلول . . فمد يده مفرداً أصابعه الغليظة قائلاً :

- مد لي يدك يا شيخ بهلول ! إذا سامحتني أنت فلعل الله أن يغفر لي ! !

ولم يمد بهلول يده ، فتركها الشيخ حسين تسقط ، وتمنى أن يغفو لحظة ، فيفيق وقد وجد بهلول جالساً عند رأسه يتمتم بالدعاء إلى الله ليغفر له . .

ولم يوقظه من هذا الحلم إلا صوت أذان يرن في سكون الليل متباعداً في الوادي بين الزيتون : « الله أكبر . . الله أكبر »

كان صوت بهلول ! !

وفتح حسين السعيدي عينيه ، ورفع رأسه متعجباً . . كان وحيداً على الصخرة مع خطاياه وأحلامه وضراعته ، ومع القمر الذي لايتوقف عن الرحيل في قبة السماء . . وحيداً مع رغبته وخيبته . . وصوت بهلول يتجاوب بين الجبال « الله أكبر . . الله أكبر ! »

ومن جديد ملأت الدموع عينيه ! هل كان لقاء بهلول حلماً ؟ هل كان حقيقة وبهلول هرب ؟ ؟ همس لنفسه ناشجاً :

- من يدري ؟ آه . . . من يدري ؟ ؟

- ٩ -

في الصباح الباكر استيقظ على خطأ تعبر غرفته . .

فتح عينيه . مايزال ثمة وقت على اشراق النهار ! زوجة الرجل ذي اليد الواحدة تدخل الغرفة بحركات تحاول أن تجعلها رشيقة . . وبدت له أجمل مما رآها في الليل . . تأملها وهي تبحث في الغرفة عن شيء ما . . فسرت رعشة خفيفة حارة في جسده ، فاغمض عينيه وانقلب . . انها متزينة كما ينبغي لامرأة تكره زوجها أن تفعل بحضرة رجل غريب .

حاول أن يطرد رغبته بامتلاكها جاهداً ، لايدري لماذا تستولي عليه هذه الرغبة الشيطانية بحضرة امرأة . .

همس صوت في داخله . . « لا . . لا » ثم عاد فانقلب .

وسألت المرأة التي مانزال تبحث . . سألت بصوت منغوم :

- هل استيقظت يا سيدنا الشيخ ؟

- نعم ! صباح الخير .

- يا صباح النور .

واقتربت من الفراش وهي تقول :

- لقد أوصاني أبو سلطان بأن أخبرك أنه اضطر للذهاب إلى البلدة . . لقد دعاه المدير لأمر هام . . وهو يرجوك ألا تذهب قبل أن يعود .

ثم اقتربت أكثر :

ـ يقول انها صفقة مربحة . . وسيعود بسرعة !

ظل مستلقياً يتأملها ثم قال :

ـ طيب سأنتظره ! لابد ان أعطيه المصاغ ! !

ومرت لحظات صمت ، والمرأة تنظر إليه ثم تأوهت وقالت :

ـ آه يا شيخ حسين ! انني خائفة منك ! ! ولولاك . .

قالت ذلك وهزت رأسها . . وابتسم الشيخ حسين ، وأحس بالرغبة فيها تجتاحه اجتياحاً . تأمل منديلها الذي يضم شعرها وراء العنق واستدارة جسدها الممتلىء ، وأصابعها وهي تشير له . .

ـ لولاك لتخلصت من هذا الوغد .

ـ لم تحدثيني بتفاصيل قصتك !

وجالت المرأة ببصرها في الغرفة ، وتأملت الباب نصف المغلق ، ثم دنت فجلست على حافة الفراش . . وتنفس الشيخ عبيرها وأحس دفء جسدها يقترب منه . . لكنه أدار بصره راغباً في أن يغير الأفكار التي سيطرت عليه وراحت هي تتحدث ، لدقائق ، عن خسته ودناءته وفصوله ومقالبه . . وعن جشعه وبخله . . والشيخ يقاوم رغبته ، وعبرته صورة بهلول . . ثم مالبثت أن تلاشت ، وجلس حتى صار قريباً منها . . وتأمل وجهها ، فرأى كأنما تشع عيناها إشعاعاً غريباً . . كان لها حقاً منظر امرأة تنتظر رجلاً . . ودون أن يفكر بشيء ، طوقتها يداه ، وجذبها نحوه حتى ألقاها إليه ، وحاولت أن تظهر أنها غير راضية ثم لم تلبث أن استسلمت لمداعباته ، ثم انسلت من بين يديه فأغلقت الباب وعادت تحشر نفسها في الفراش وهي تهمس :

ـ لسوف أنتقم منه . . لسوف أنتقم !

وبعد فترة كان حسين يحاول أن يغفو بينما هي تسوي شعرها خلف الباب نصف المفتوح .

* * *

أفاق متحطماً ، يملؤه شعور أنه قد فقد الله نهائياً . كانت الشمس تسكب الألق والوهج في الطرقات ، وعلى الوادي ، وفوق القمم التي تترامى متباعدة في الأفق . فغض بصره ، غير راغب في النظر إلى شيء ، لا شيء له ، ولا شيء يعنيه ! وثقل دنسه يجثم على صدره مثل صخرة ، حيثما حل تنفتح الهوة أمامه ، وتدعوه الشياطين للانحدار .

وقلبه ، وحيداً ، يحتمل كارثة السقوط ، ويعرف أن بينه وبين الخلاص سداً . . لقد رفض بهلول أن يساعده . . رفض حتى أن يكلمه . . ولاريب في أن الله قد رفضه أيضاً . . وظلمته الشخصية ماتزال تشتد وتشتد ، وتلف القاعة في دوامتها وتنسل من الأشياء نقاءها وبراءتها . .

سكب على وجهه شيئاً من الماء ، ثم عاد فجلس على كرسي جلدي في القاعة الكبيرة ، ينتظر بلا رغبة ، وبلا أمل ، مجيء الرجل ذي اليد الواحدة !

* * *

كلما تكلم الرجل ذو اليد الواحدة ، تحرك جسده متقلقلاً منفتلاً ، وكشّر عن ابتسامة أو قهقهة بصوت عال فاتحاً يده على اتساعها . . وتأرجحت اختلاجاته لحظة دون هدف ، ثم استقرت . وحسين السعيدي يرى كأنما هناك غاية لايعرفها ، يبذل الأبتر من أجلها جهداً ، ويكافح كي يكون منسجماً . . . والشيخ يرى أكثر من ذي قبل ، سماجة هذه الحركات الضائعة ، وثقلها .

ناوله الحلي مشيراً له بيده إشارة الصمت المطلق . وكانت المرأة ، الحاضرة في غرفة أخرى . المرأة السمراء المحرّقة الوجه ، تعبر كحلم بعيد . . بعيد ! وحسب أنه لم يكن بينهما شيء لولا أن جسده مازال مخدراً قليلاً بآثار ردفيها .

كانت تداعبه كأنها تريد أن تلتهمه ، وكان يريد منها أن تسرع ، ذلك أن النهار لايرحم . . ، ولكن ذلك كان حلماً . . حلماً نعم ! ! ، غير إنه الآن ممتلىء باشمئزاز مطلق . . من نفسه ومن كل شيء . . وهو يحتقر بشدة ، هذا الرجل الأبتر الذي يتمعن في حليه وبقلبها جامد العينين . وتراخى حسين السعيدي في كرسيه ، وفجأة حمل الأبتر الحلي بيده بلا مبالاة وألقاها في حجر الشيخ قائلاً :

ـ إنني أمنحك إياها جميعاً ، شريطة أن تقول لي من كان السارق ؟ :

نظر إليه نظرة فارغة ، لم يكن يفكر فيه تقريباً . كان خياله يطوف على درب الأموات . وشبح المرأة المقتولة يمسح . . بشدة حين يريد أن يقترب . . ومع ذلك فلا يغادر . . يعود ويمسح . . ثم يعود . . وبهلول يصلي في ليلة قمرية ساكنة . . والمرأة الحاضرة ـ الغائبة تنادي أحداً في الداخل ، وهو يطوف ببصره على جسد ذي اليد الواحدة ، ويترك اشمئزازه على مداه ، ثم يهدوء ، يتناول الحلي ويقذفها بعيداً . .

ـ ولكن من حقي أن أعرف الذي سرقني !

ـ ومن واجبي أنا ألا أقول لك ! لقد أعطيته عهداً ! وإنني لا أريد شيئاً منك ! !

ـ ولكن . . .

ـ دعنا من هذا . . لقد حصلت على ذهبك .

صمتا قليلاً مطرقين . ثم مالبث الشيخ أن استأنف وقد خفت الحدة في لهجته :

ـ ها . . حدثنا لماذا بكرت إلى المركز . الواقع أنه كان يجب أن أحدثك في موضوع مهم، بالمناسبة . . هل رأيت عاصي أفندي ؟

التقط الرجل حليه ، وقد غمره شعور بين الحزن والخزي . كان من الصعب عليه أن يقسر الشيخ على أن يقول له شيئاً عن السارق . .

ـ لم أره إلا قليلاً . . مدير المركز استدعاني لقضية شخصية . . الرجل صديقي . . .

ـ كان يريد أن يستدين نقوداً ؟ هاه ؟ ؟

ـ يعني . . .

ابتسم ذو اليد الواحدة ابتسامة صفراء ، ثم مالبث أن مال إلى استعادة مرحه شاعراً بأهميته في هذه القضية . . واسترخى في مقعد مجاور للشيخ ثم قال :

ـ رأيت عاصي أفندي معه في المقهى . . شربنا القهوة صباحاً . . ثم انصرف عاصي بحجة أنه مشغول قليلاً . . وأنا فهمت أن في الأمر سراً . . . كان عاصي يبدو كأنه مريض ! وبعد انصرافه هز مدير المركز رأسه وقال لي : مسكين الأفندي ،

رزقه الله أولاداً عاقين . اضطررت أخيراً إلى تهديدهم قليلاً كي لايزعجوه . . .
قال لي : تصور يا أبا سلطان رجلاً مثل عاصي أفندي عاش طيلة عمره مبجلاً مكرماً . هل يستطيع أن يمتنع بعد أن قارب السبعين عن عاداته ومصروفاته ؟ الواقع يا أباسلطان ، أقرضته مبلغاً كبيراً خلال هذا العام حفاظاً على سمعته . . دع هذا الكلام بيننا !

وطبعاً أنا ياشيخ حسين لم أقله إلا لك ! ولكنني مقتنع بأنه لم يقرضه شيئاً كثيراً ، بل ربح منه مبالغ في القمار . . .

ـ بالمناسبة عاصي أفندي حدثني في موضوع يهمك !

كان قد نسي الموضوع تقريباً ، وهو يغرق في دوامة قضاياه الشخصية . .

ـ خلني أكمل لك الحكاية . . سيادة المدير حدثني أكثر عن الخلافات بين عاصي وأولاده . عاصي ينوي أن يحرمهم من ميراثه . . ولذلك ينوي أن يبيع أجزاء من أرضه . . طبعاً المدير لمح لي إلى ذلك تلميحاً . . وفيما بعد اقترح علي أن أساعده على حفظ كرامة عاصي أفندي واعتباره بين الناس ، يعني . . لمح لي أنه مستعد لتدبير بيع بعض الأراضي بسعر مناسب !

ـ الواقع ، ان هذا ما كلفني به عاصي أفندي تقريباً . هو يريد أن يبيع بعض أملاكه في قريتنا ، أو كلها . . وأنت لديك المال فلماذا لاتشتري ؟

ـ يا أخي أنا لا مانع لدي من الشراء ولكن . .

ـ ولكن ماذا ؟ الأرض كنز الكنوز يا رجل ! المال يذهب ويأتي . . ولكن الأرض ثابتة . . أنت تعرف أسعار الزيت . تشتري من الناس بليرتين وفي الموسم تبيع بخمسة وأحياناً بأكثر . .

ـ هذا مفهوم يا شيخ حسين . . مفهوم ! ولكنني لا أريد مشاكل مع أبناء الأفندي .

ـ يا رجل ماعلاقتك بهم ؟ أساساً هم لايعرفون أن لهم أرضاً في قريتنا ! أولاد « بلاعيص » إن لم يبعها أبوهم فسيبيعونها هم . ألم تسمع المثل العامي : الذي لاتتعب فيه الأيدي لاتشفق عليه القلوب ؟ ؟

وفكر الرجل ذو اليد الواحدة قليلاً . هو يعلم أنه سيشتري . . ولكن ، يجب ألا يتهافت ! سيبيع الأفندي بأي سعر ! وفجأة برق في ذهنه خاطر جديد :

ـ وماذا لو عارضني أهل قريتكم ؟

ضحك الشيخ حسين ضحكة كبيرة ثم قال :

ـ قال أهل قريتنا . . قال ! يا رجل كيف يعارضونك ؟ الثري فيهم لايمتلك ثمن خبزه ! !

ـ أقصد إذا وقفوا مع أبناء الأفندي .

ـ ياعمي . . الناس مع من يملكها . . أهل ضيعتنا ناس يهمهم أن يعيشوا ، وبعضهم يعمل في أرض عاصي أفندي ولذلك يحبونه ، أو قل يتظاهرون بحبه . وحين تصبح أنت مالك الأرض فسيحبونك مثله .

ـ أو يتظاهرون بحبي !

ضربه الشيخ حسين على كتفه مداعباً وهو يضحك :

ـ أصبحت تعير اهتماماً كبيراً للعواطف يا أبا سلطان ! !

ـ لا ياشيخ حسين لا ! المسألة مسألة مال ، وفشل المشروع يعني خسارة . .

ـ يا أخي ، ماذا يهمك أنت ؟ في كل موسم تقدر الحاصل على فلاحيك قبل أن ينضج وتحسب مالك فيه ومالهم ، ثم تكتب سندات تقبضها زيتاً في آخر الموسم . . ولست مسؤولا عن شيء آخر . .

ـ وإذا تمردوا ؟

ـ ومن يتمرد ؟ وكيف يتمردون ؟ ! يارجل هناك دولة وقضاء ودرك يحفظون حقوق الناس ! ! وفوق كل ذلك مدير المركز صاحبك . . . وتعرف ماذا يعني ذلك .

ـ وإذا انتقل إلى مركز آخر ؟ !

ـ طيب ، إذا انتقل يأتي صديق جديد . .

لم يكن أبو سلطان مطمئناً تماماً . إن دعوة مدير المركز ، في الواقع ، لم تعجبه . وهو خائف من أن يكون هناك لعبة ما .

طاف بنظراته على السقف الخشبي المرصوف بعناية . . وفكر . . إنه يريد ضيافة . . ضيافة من داخل القرية . . ضيافة الشيخ نفسه ! ! وسأله بعد لحظات :

ـ ولماذا لاتكون شريكي يا شيخ حسين ؟

ـ شريكك ؟ ! هه هه هي ! ولكنني بلا أي مال !

ـ لا . . تستطيع أن تدبر لك الفين . . وسأقرضك الباقي . . تكون شريكي بالربع !

ـ ها . . تقرضني المال بالفوائد ، وأرهن لك ما أشتريه ، وفيما بعد تأخذه بالفوائد وتأخذني أنا برأس المال . . لا يا عمي . . لا ! !

وضحك الرجلان ، وتجاهل أبو سلطان هذه الغمزة وقال له :

ـ يا أخي سأقرضك بدون أية فوائد !

ـ لماذا لاتعفيني من الموضوع ؟

ـ بغير شراكتك لن أشتري ! !

ـ أهذه كلمتك الأخيرة ؟

ـ نعم كلمتي الأخيرة . . أقسم بشرفي !

ابتسم الشيخ حسين خلسة وهو يفكر بذلك القسم . . ولم يطل تردده ! اقال له :

ـ ما دمت مصراً اتفقنا ، وسأتدبرأمري كما قلت لك . . أرجو ألا تتراجع !

ـ أعوذ بالله ! متى نباشر الموضوع ؟

ـ متى ما أردت أنت ! ولكن ليس قبل قطاف الموسم .

ـ طيب . . فاوض أنت عاصي أفندي على الأسعار . . ادفع له أقل ما يمكن وأنا واثق من أنه سيقبل . .

عندي فكرة !

ـ أم همه ؟ !

ـ عليك أن تبادر إلى إهداء مدير المركز شيئاً وإلا تعبنا . . طبعاً أنت تعرف كيف يجب أن تتصرف ؟ ! مبلغ لابأس به ، ثلاثمئة أو أربعمئة . . دسها في يده اثناء الحديث . . . أنت تعرف . .

ـ طيب سأكون عنده قريباً . . .

وبينما تصافح الرجلان مؤكدين نواياهما الطيبة ، كان صوت أم سلطان يتعالى من جديد في إحدى الغرف الداخلية ، تأمر أحداً بإنجاز أمر ما . . وكانت القرية تغرق في سكون لحظة القيلولة . وفجأة من بين الأشجار البعيدة وعبر الوادي الطويل ، ارتفع صوت أذان بهلول :

« الله أكبر الله أكبر » .

وتهاوى الشيخ حسين على مقعده ، وأوشك أن يضع رأسه بين يديه على وعيد الكلمات الهادئة الآتية من الحقول . إلا أنه عاد فرفعها ملقياً نظرة جديدة إلى الرجل ذي اليد الواحدة ، ولم تلبث شفتاه أن انفرجتا عن ابتسامة خزيانه ، فيما كان الآخر يتأمل حليه المستردة ويخطو بها متجهاً إلى الداخل .

الجزء الثاني

خيول الدرك تنتهك مزرعة
« بيت عاصي »

- ١ -

في تشرين حدث مالم يستطع أبو حامد أن يفهمه ! أحس كان ثمة شيئاً في القرية قد انفجر ، فبدل صورتها وهزها كما تهز الريح شجرة صغيرة ، إلا أنه مع ذلك ظل هادئاً ! !

طلب منه نجم الدين أن يرافقه في جولة في القرى المجاورة ، باحثين عن امرأة تخلف سعدى . . ابتسم وهو يلبس حذاءه السميك ، وأدار نجم الدين وجهه . وعلقت أم حامد تعليقاً حاداً على اخلاص الرجال . . ورفع حامد رأسه عن دفتره متأملاً ذلك الرجل الذي يبحث عن زوجة مثلما يبحث عن عنزة ! ! ثم عاد إلى قراءته ساكناً ، طاوياً صدره على تساؤل كبير !

أصبح للأرض لونها المختلف ، توقف صخب الصيف وحره ، وأنين جنادبه وحشراته . وأشجار الزيتون الكبير بدت منهكة بعد القطاف : أغصانها البعيدة المتعالية تقصفت تحت ضربات العصي الطويلة ، وبقيت معلقة كأهداب كسرها النعاس ، ثم جاءت هبات ريح متقطعة فلوتها في الاتجاهات الأربعة ، حاملة خشيشها المتواصل المتجمع مثل الحشرجات الطويلة .

ومعاصر الزيتون توقفت ، وسط الرائحة النفاذة الحامضة لبقايا المياه الموحلة المترسبة بعد اعتصار الموسم ، وتساقط المطر الأول فجمد الغبار وغسله عن الحجارة والأغصان وأذاب بهدوء أوساخ الصيف ، وبرد جلد الأرض المتوهج الذي أعاد نشر

قطراته بخاراً محملاً بعبق الأرض الخاص النفاذ .

كان محسن السلوم يفكر : إن للأرض رائحة امرأة لفحها الحر فتوهجت حتى عرقت ! وتضاحك وهو يرى لطيف التامر يصلح حائطاً فيها ذات نهار مشمس . وهمس لنفسه وهو يبتعد « مع ذلك ، إنها أرض الأفندي . . وإذا باع حصتك في جملة ما يبيع فقد ذهبت أتعابك بلا فائدة . . يا لطيف ! » .

كان المطر الأول يثير في الرجال دائماً نوعاً من الاستيقاظ المبهم المتحفز ، فتغوص سكك المحاريث مدفوعة بالأيدي التي شنجتها قليلاً تلك الرغبة المجهولة . . وتتسرب البذور الصغيرة إلى الداخل بينما تستسلم « المرأة التي عرقت » ! ناشرة كل عطرها الواخز . . ومن بين البيوت يصبح منظرها ، شيئاً فشيئاً ، مغموراً بحمرة داكنة ساكنة ، كأنما هي قد افترعت ! وحين سقط المطر الثاني كانت قد أكملت استعدادها تقريباً ، وأخذ شيء من البرودة يلف الأشجار والتراب والهواء والحيوانات السارحة التي أتعبتها الحراثة ، أو التي تنتظر بفتور موعد الولادة .

والرجال الذين أضناهم العمل ، يتمددون أو يجلسون إلى جانب المواقد المحفورة في منتصف البيوت بينما تشتعل فيها أغصان غليظة يابسة وغير يابسة ، تنشر دخاناً كثيفاً يملأ الحنايا المظلمة تقريباً ، ويخرج من أعلى الباب ملفوفاً كأنما تحركه زوبعة خفيفة لاترى .

كان الرجل ذو اليد الواحدة قد جاء وتسلم ديونه .

راقبوه بنظرات كسيرة متعبة واحتج بعضهم أن سعر الزيت قد قفز إلى خمس ليرات للرطل الواحد ، وأنه ليس من العدل والدين أن يأخذ منهم بالسعر البسيط الذي دفعه من قبل ، واستعان الرجل بالشيخ حسين الذي قال :

ـ لو أن الأسعار انخفضت أكنتم تعطوه غير ماله عندكم ؟

ولم يجب أحد بشيء على هذه الحجة المفحمة . ومسح الشيخ بيده على لحيته الصغيرة وأكمل :

ـ هذه تجارة يا عمي ! قال الله تعالى : وأحل البيع وحرم الربا . صدق الله العظيم .

وتهامس رجلان بشيء ثم هزا رأسيهما دون كلام . وسأل الرجل ذو اليد

الواحدة عن سرحان السليم ، ومد يده إلى جيبه فأخرج رزمة السندات وأفرد سند سرحان من بينها ، ثم أعاد الباقي إلى جيبه . . وقال محسن السلوم :

ـ ان سرحان غائب منذ أيام . وامرأته نفسها لاتعرف أين هو .

ـ من ينادي لي زوجته ؟

وتطوع شاب صغير ، بينما علق أبو حامد الذي كان يراقب كل شيء وفي نفسه اعجاب عميق بحكمة زوجته :

ـ ليس عند سرحان أي زيت هذا العام !

ـ انني أريد حقي !

ثم دفع اليمند إلى جيبه وتابع بصوته الهادىء :

ـ وسأعرف كيف آخذه !

وجاءت المرأة وسألت مالذي يريدونه منها ؟ فسألها الشيخ :

ـ هل أوصاك زوجك بدفع حساب أبي سلطان ؟

ـ ومن أين أدفع ؟ لازيت عندي ولا مال ! !

وتنحنح أبو سلطان « القضية جد إذن ؟ ! » :

ـ ولكنه مدين لي بأربعة وثمانين رطلاً من الزيت وسعرها الآن يساوي خمسمئة ليرة تقريباً .

أدارت المرأة ظهرها وهي تقول :

ـ لاعلاقة لي !

ـ لاتجعليني أرفع دعوى بحقة وأحجز عليه !

وابتسمت المرأة بمرارة ثم قالت :

ـ لم يترك شيئاً غيري وغير بيت يشبه المغارة . فإذا أردت أن تحجزني فسأكلفك طعاماً وثياباً ومشاكل لاحاجة لك فيها .

وضحك الرجال بخفوت ثم قال الشيخ :

ـ لاتظلموا الرجل فربما يعود قريباً .

ـ لاياشيخ حسين . أظن أنه لن يعود ! ولماذا يعود ؟ لقد باع مافوقه وما تحته . . وانا لم اعد أريده . .

وارتجف الشيخ حسين قليلاً حين سمعها تقول ذلك وتنظر إليه نظرة خبيثة

ذات معنى ، فمسح بيده على لحيته وتململ في جلسته وقال :

ـ أستغفر الله العظيم .

وخرجت المرأة ، وهز أبو سلطان رأسه ناظراً إليها ، ثم التفت إلى الشيخ حسين ، وهم بقول شيء ، ولكنه سكت فجأة ، وعاد إلى إكمال حساباته دون أن يذكر قضية سرحان بشفة أو لسان بعدها .

ولم يفهم الرجال شيئاً إلا أنهم كانوا واثقين من أن الغائب سيعود ليبيع قطعتي الأرض الصغيرتين المتبقيتين له . وربما سدد دين الرجل ذي اليد الواحدة ، أو ربما سهر بالثمن سهرة حامية مع عاصي أفندي .

والواقع أن السهرات في دكان راشد كانت قد خفت ، ولم تكن تزيد في أغلب الأحيان عن تبادل أحاديث جافة ساذجة ، أو تصعيد تأوهات مكتومة خافتة . . إلا أنها حين يجيء الأفندي كانت تسترد جزءاً من حيويتها ومغامراتها الزائفة ، وكان اللغط قد انتشر ، أياماً ، بأن الأفندي قد باع الأرض . . غير ان شيئاً من الأحوال لم يتغير ، ثم خف التهامس ، ثم عاد ثانية حين تأخر عاصي عن موعده الاسبوعي مرتين متواليتين . . ثم ظهر من جديد وقد اكتست ملامحه نوعاً من البرود الساهم . ولقد حاول راشد العلي أن يثير زهوان على عادته ، إلا أن الرجل وضع حقيبته التنكية بين رجليه وألقى سباباً بارداً على راشد ، بينما تناول من يده كأس العرق الذي ظل محافظاً على بقاياه حتى نهاية السهرة ، وكانت تنهداته تقطع بين اللحظة واللحظة صمت اللاعبين والمتفرجين ، ثم قال فجأة :

ـ لابد من اللطمة على باب تونس .

والتفت الرجال ولكنه لم يعرهم اهتماماً . كان ينظر إلى الباب المغلق ذي الشقوق الكبيرة وعلق رجل من الجالسين :

ـ لايدوم إلا الحي القيوم !

ـ أسفي على أيام العز ! !

تنهد زهوان ثم شرب نقطة صغيرة، ثم عاد إلى تأمله في الشقوق ، ولم يرفع الأفندي رأسه وهمس واحد للآخر بعيداً في زاوية :

ـ سيحدث الأمر قريباً

ـ سيبيع الأفندي

وعاد الرجلان يتأملان الطاولة الساكنة التي لاتكاد الأيدي تتحرك عليها . وفجأة اختصرت السهرة عندما نظر الأفندي في ساعة جيبه ذات الغلاف المذهب وقال :

ـ التاسعة والنصف ، ألا نعود يا زهوان ؟

ـ تأمر أمراً عاصي أفندي !

وفي العاشرة كان راشد العلي قد أغلق باب دكانه جيداً وأدخل القنديل إلى مكان النوم في جناحه الداخلي ! !

ولم يكن أحد يلاحظ سفرات الشيخ المستمرة بين القرية والمرفأ . بين القرية وضيعة أبي سلطان . ولم يكن أحد يخطر في باله أن يتساءل عن شيء من هذا ! الا أن حامد ألقى السؤال ذات يوم على أمه بينما كانت تقطع أقراص العجين وتضعها على طبق قشي مغطى بقماش أبيض .

ـ لماذا يكثر عمي الشيخ حسين من زياراته للمركز ؟ لقد رأيته البارحة يدخل بيت عاصي أفندي ، فماذا يفعل هناك ؟

رمقته بعين متسائلة ثم ابتسمت :

ـ وما يدريني أنا ؟ ها . . على كل حال يابني ، الأفندي يزوره وهو يزور الأفندي . . . كل الناس تفعل مثل هذا ! !

ـ لا . لا . لقد رأيته مرات عديدة قبلها . . وهذه العلاقة جديدة .

ثبتت المرأة عينيها في العجين ، وتأمل حامد السقف المسود والأعمدة الخشبية الكثيرة التي تحمله . . وأحس بالضيق .

منذ شهر تشرين الأول كان قد بدأ يقطع كل يوم تقريباً المسافة التي تفصل القرية عن المدرسة ، مرتين ، ذهاباً وإياباً . وكان بيت الأفندي يطل عليها من الشمال بحجارته المسودة قليلاً وعرائش الزهور غير المشذبة ، وقضبان الحديد المتعارضة المصطفة كالشبك أمام النوافذ الخشبية التي صار لونها حالكاً . وكان قرميد أحمر يعلو السقف ، متقوساً كقبة مضلعة ! . . . ذات يوم كان يقرأ درساً في جغرافية فرنسا ، وفجأة قال له زميله :

ـ كل بيوت فرنسا مثل بيت عاصي أفندي . . حمراء هكذا . . انظر ! !

وتأمله ساعتها ، بينما أخذ زميله يحكي له حكاية سريعة عن تاريخ هذا البيت

ادعى أنه سمعها من أبيه . . وقال أخيراً :

ـ هذا كان بيتاً للضابط الفرنساوي ، قائد العسكر الذي بقي هنا مدة . . .

ثم قرب فمه من أذن حامد وهمس :

ـ أهداه يوم رحل لأخت عاصي أفندي . . كان . .

وقال كلمة داعرة اعتبرها حامد كبيرة على أخت الأفندي ، ثم لم يلبث أن انفجر مقهقهاً مع رفيقه .

وفي درس الرسم كان يطيب للأستاذ أن يخرج تلاميذه ، ليرسموا البيت القرميدي وعرائشه وشبابيكه . وكان حامد يتغامز عليه مع ذلك الرفيق وهو يدير ظهره لهم ويأخذ جرعة من قنينة العرق التي يحملها في جيبه ، ولكنه ما أن يأخذ برسم أول خط على الورق حتى يستميله ذلك كلية . وكان يجد لذة مبهمة في أن يرسم بيت الأفندي ، ثم اكتشف أنه يحلم حين يعود منفرداً بان يكون له في المستقبل بيت مشابه . . بيت كبيت « الظابط » الفرنساوي ! ! ! ولكنه كان يتخيل بيته بحجارة أكثر بياضاً ، وأكثر نوافذ ، وحوله أشجار سرو عالية كتلك المزروعة أمام سراي المركز . وفي الحلم كان أحياناً يرى نفسه يركض في حقول خضراء مزهرة يطارد عصافير وأرانب ، وينتهي إلى مثل هذا البيت . إلا أنه دائماً يملؤه شعور عجز عن التغلب عليه رغم محاولاته ، فقد كان يجد داخله قفراً لاحس فيه ، يثير الفزع والرهبة في صدره . . ولذلك أخذ شعوره بالخوف من كثرة تردد الشيخ حسين على البيت :

كان يفكر في كل هذا بطريقة منقطعة . . ولقد أدرك أنه أثار اهتمام أمه رغم ما حاولت التظاهر به من برودة الأعصاب ، وشعر كأن عليه أن يمتحنها . . أن يعرف السر في هذا الاهتمام التي تجهد في كبحه . . . وفجأة قال لها :

ـ أتدرين ؟ . أنا أكره الشيخ حسين ولا أثق به

ـ لا ياحامد لا . . حرام !

ـ قلبي يقول انني ساكتشف عنده شيئاً

ـ حامد ! ! ماهذا الكلام ؟ ؟

كان صوتها عالياً وقد توقفت يداها للحظة . . هي أيضاً ليست ، في الحقيقة ، مطمئنة تماماً . . ولكن . . . الشيخ حسين ؟ لا . . ثم ان حامد كان

يردد هذه الكلمات في كثير من الأحيان « أنا أكره الشيخ حسين » وكان أبوه ينتهره ! وهي كانت دائماً تود لو تقابله بمثل ما يقابله به أبوه ، إلا أنها تجد نفسها تبتسم ابتسامة غريبة . . وحامد يطمئن لها من أجل ذلك أكثر مما يطمئن لأبيه ، بل انه قد تجرأ ذات يوم وقال لها : ان أباه رجل بسيط ولايعرف شيئاً من أمور هذه الحياة . ساعتها شتمته ! ! ومع ذلك ظل يقوى هذا الاعتقاد في نفسه ، وأخذ يشعر بشيء من المرارة حين يلوح بعضهم به أمامه !

وكان يراقب في الفرص مواعيد قدوم الشيخ وخروجه من بيت الأفندي . ورغم أن الوقت لم يساعده كثيراً ، فقد عرف أن هذه الزيارات طويلة جداً أكثر من طول الزيارات العادية .

ولقد أثار اهتمامه اليوم أمر غير مألوف . . ولم يتمالك نفسه عن الضحك حين تذكره :

ـ لماذا تضحك ؟

ـ لأنني سمعت اليوم شيئاً مضحكاً

ـ هه ؟ ما هو ؟

ـ أتعرفين ؟ سمعت الأفندي يصرخ صراخاً مقلوباً بعد خروج الشيخ من بيته مباشرة .

ـ وما سمعت ؟

توقفت يداها عن الحركة وتحفزت ملامحها بنوع من الصرامة المفاجئة التي تهبط عليها في لحظات غضب خاصة ، كما كان يراها حين تجد مأخذاً ما على أبيه . . وللمرة الأولى عرف أنها بشعة قليلاً . . فخداها ناتئان تقريباً ، وفمها متجمع بطريقة صعب عليه إلا أن يضحك منها ، فأرخى لقهقهته العنان حتى دمعت عيناه .

ـ ما الذي يضحكك ؟

ـ لاشيء . . لاشيء ! لقد سمعت أشياء غريبة يقولها الأفندي لأبنائه ! تصوري قال لهم : سيأتي إلى هنا رغم أنوفكم . وسأفعل أكثر مما تسمعونه عني . . يا أبناء . . يا أبناء . . تصوري ظل دقيقة لايجد كلمة مناسبة تليق بأمهم ، ولذلك توقف . ثم أكمل معلناً أنه سيفعل كل مايروق له ، وأن أحداً لن يقدر أن يفرض

سلطانه عليه ، وان الذي لايعجبه البيت والأحوال فليرحل .

عاد يضحك للمرة الثانية ، وهو يرى القلق يغير تركيب وجه أمه من جديد فيعطيها صورة أخرى . . ان فمها يتراخى ، بينما تتراخى أهدابها في نظرة بعيدة عبر الباب . . ثم تعود يداها إلى العمل بصوت أكثر علواً وعصبية :

ـ ما الذي يضحكك ؟ ليس في كل هذا ما يضحك . .

تراجع أمام اللهجة الحازمة وتوقف عن الضحك . . لقد أحس في الواقع بشيء من العار ، لأن المرء لايجوز أن يضحك من أمه . . وتمنى أن يتمكن من تبرير ضحكه المتواصل . .

تلعثم قليلاً ثم عاد يقول :

ـ ولكن لماذا أنت غضبت مني ؟ الحقيقة . . الحقيقة يا أمي . .

ـ لم أغضب منك يا ابني . . أكمل .

جاءه صوتها هذه المرة هادئاً مرتجفاً أقرب إلى الخوف ، هامساً تقريباً ! هناك ما يقلقها في المسألة . . هذا واضح . كان ينتظر أن يسليها ويسلي نفسه عن الجوع ، بينما ينضج الخبز الذي ستذهب به إلى التنور ، ولم يكن يتوقع أن تصل الأمور بها إلى هذا الحد :

ـ ولكن لماذا قلقت يا أمي ؟

ـ ستعرف فيما بعد ! أكمل ! !

توقفت لحظة ثم بدأ صوتها يعلو من جديد :

ـ ما الذي كان يضحكك ؟

الحقيقة أن طريقته في السباب على أولاده مضحكة ! أنت لم تسمعي أحد الأفندية يسب ويلعن . . تعرفين يا أمي ؟ أمامنا يبدو بوقار الرجل العظيم الفهيم ، فإذا حدث وغضب في ظروف أخرى ترين أنه لايختلف عن زهوان أو راشد العلي . . . بل هو أشد اضحاكاً منهما . . .

ابتسمت خفية للحظة واحدة . ثم عادت ملامحها إلى التوتر . . انها تتخيله رجلاً واسع الخبرة بالحياة ، هذا الصبي الرابض أمامها ، ينتظر الخبز ، مثل جرو صغير جائع . . تتمنى أن تهمس له « من أين تعلمت كل هذا ؟ » وأن تخلل شعره باصابعها ، ثم تطبع قبلة رقيقة على وجهه ، إلا أن قضية أخرى ، مالبثت أن

استولت على تفكيرها . .

الأفندي سيبيع ! هذا واضح ، وهذا أيضاً أمر مقلق ! ! إذا كان الرجل ذو اليد الواحدة هو الذي سيشتري ، وضيع الأفندي وجدانه فمعنى ذلك الخراب ! !

منذ عشر أعوام أقنعت أبا حامد أن يأخذ من الأفندي قطعة من الأرض ويزرعها زيتوناً بالمغارسة ، ومنذ ذلك الوقت وهي تتعب ، وتُتعب معها أبا حامد في حراثتها والعناية بها ، منتظرة أن تكمل خمسة عشر عاماً ليصبح لها الحق في أن تملك ثلثها ! سبعون شجرة بالتمام ! !

والأرض مسجلة في الدولة على اسم الأفندي ، والأفندي رفض أن يكتب لهم سنداً بالحصة !

لقد صرخ بها يومها :

ـ أتشكين في وجداني يا خدوج .

ـ لا ياأفندي لا . . ولكن الدنيا فيها موت وحياة !

ـ لطيف التامر واخوته زرعوا أرضاً أكبر من الأرض التي زرعتها أنت بمرات . . ولم يطلبوا سواداً على بياض ! أنا عاصي أفندي يا خدوج ! ! وكلمتي ليست اثنتين .

كان لطيف التامر يومها شاباً صغيراً . . ولكن الأفندي أخذ يقربه إليه حتى صار كأنه تابعه . ويومها قال لها رجال القرية مؤنبين :

ـ اي بس يا خدوج ! الأفندي حن قلبه واعطى زوجك أرضاً لا لتاتي أنت وتحكي كلاماً غير لائق ! الأفندي أبو الفقراء ! عيب يا خدوج .

أسكتوها بعد أن احمر وجهها من الخجل . ولقد ظلت دائماً تلعن تلك الساعة في سرها . وظلت أيضاً تلعن الرجال الذين لم يتركوا لها الفرصة لتضمن حقوقها .

ولقد كبرت غراس الزيتون دون أي سند ، ولكن الأفندي لم يظهر على سلوكه ما يشير إلى أنه طامع في أتعابها وأتعاب زوجها . عرض على كثير من الرجال أن يغرسوا أرضاً أخرى ، ولكن أكثرهم رفضوا . .

كان الزمان ضيقاً ، والحياة قاسية ، « والفرنساوي » يصادرون كل حبة تؤكل . والأفندي تحدث فيما تحدث ، عن حرب كبيرة مدمرة . . وطوع رجالاً مع الفرنساوي بمعاشات ، وقد خدموا في منطقتهم وفي بيروت وطرابلس ثم عادوا منذ

سنتين ، وبعض الرجال سافروا إلى فرنسا . وهي وزوجها وبقية المغارسين جاعوا وتعبوا وشقوا في سبيل أن تكبر الغراس . . واليوم سيبيع الأفندي ، فمن يدري ماذا سيفعل بهم ؟

منذ بدأ اللغط حول المسألة ، بدأت الشكوك تراودها . لقد حدثت أبا حامد في الأمر ولكنه انتهرها قائلاً :

ـ اسكتي ! الأفندي لايعملها ! ! أنت مجنونة .

وقد عيرته يومها بسوء تدبيره وأفهمته أنه رجل بسيط غشيم ، وكل الناس يمكنها أن « تضحك عليه » ، لكنه ابتسم بترفع ومكابرة ، موضحاً لها أنه ليس وحده في هذه القضية . . وأن الأفندي إذا باع أرضه فلن يبيع حصته وحصة لطيف التامر واخوته !

لم تبح بشكوكها لأحد ، ولكنها قلقت كثيراً عندما لاحظت أن الدرك أخذوا يكثرون من المجيء إلى القرية . .

ففي أيام الفرنساوي منعهم الأفندي من دخول « قريته » إلا في « البيدر » ، حيث يأتي بعضهم ، فيجمعون لهم تبناً وشعيراً للخيل ، وفي أيام الزيتون يجمعون لهم زيتوناً أخضر وزيتاً . . . وفي مطلع الشتاء تحمل النسوة على رؤوسهن أحمالاً من الحطب يتوجهن بها إلى بيوت الدرك .

ولقد كانت القرى الأخرى تحسدهم على هذه « النعمة » . . ومع أن العادة لم تتغير هذا العام ، إلا أنهم أخذوا يظهرون في القرية يومياً تقريباً ، وكان هذا قد أثار فيها المزيد من الهلع . . ولقد قررت في نفسها أن تحدث الشيخ في الموضوع حين تجد ذلك مناسباً . ولم تلبث أن احتملت خبزها على رأسها وخرجت ، بينما راح حامد يراقبها مستغرقاً ؟ في تفكير عميق .

- ٢ -

الليل غالباً ما يصير مجسداً مثل حربة ، والقلب المتوحد داخل رطوبته وانغلاقه ووحشته ، يزداد ذبولاً ويزداد حزناً . وزهوان تكتسب ملامحه يوماً وراء يوم علائم الاستعداد لسفر مجهول .

كان دائماً يحس أن الزمن يتقدم وأن أمراً ما يفلت من يده ، وهو يريده ويجاهد بكل قوته كي يقبض عليه ، ولكن هذا الاحساس لم يكن يظهر إلا في لحظات استثنائية ، لحظات خارقة مضاءة بعذابها الخصوصي المتوقد الذي لايلبث أن ينكتم ، بينما تدور الساعة وتتلامس الأشياء من جديد .

وفي فضاء الليل المتسع ، الضبابي أو الممطر أو المتهيج بلسع الريح الباردة ، كان يسري إليه انبعاث جديد متحفز وتدور الدماء معجلة ، ويأخذ ذهنه في العمل مثل آلة تصوير كبيرة ، تجد دائماً يد الأفندي التي ترسم فيها صوراً مرضية للحياة ، رغم ما قدمته إليه من صنوف العذاب والحرمان .

تليح يده الحقيبة التنكية بحيوية شاب في العشرين ، وهو يجتاز مع الأفندي طريق الليل الساكنة ، أو المضطربة بتحرك عناصر الطبيعة ، وتخش الأغراض القليلة الراقدة في القاع الذي بقي وحده لماعاً ، أو في ثنايا الفوطة البيضاء التي يظل شعر قصير مبعثر وقاس منخرزاً في مسامها المتسعة باستمرار ، وتدب في قبضته قوة جديدة وهو يشعر بنفسه يواجه هذا الليل ، وهذه البرودة ، وهذه الوحشة التي لا

آخر لها ، والتي لاتبددها إلا كلمات الأفندي . . نفس الكلمات المتقنة الكبيرة الفارغة التي لاتتوقف عن وصف العالم الجميل الذي مضى ، العالم الصالح الخير ، الذي لايعق فيه الأبناء آباءهم ، ولا تضطرب فيه أمور الحياة ولا تزداد تكاليفها على هذه الصورة الفاحشة . . ثم نفس الكلمات الجميلة الواعدة عن مشاريع الأفندي القادمة لاستعادة رونق الزمان القديم بظلاله الأسرة وشمسه التي لاتغيب ! !

تصبح الحياة مثل شجرة توشك أن تورق وتزهر باكراً ، تصبح طيبة وصالحة وهي تنتظر ، فقط ، لحظة التوافق التي لابد أن تأتي ، كي يعيد لها الأفندي عظمتها وأبهتها ورونقها . . وكانت سنا تقفز دائماً في آخر صورة احتفظ بها في ذهنه ، وتصبح هي نفسها مشروع شجرة . . مشروع استعادة متألقة لسعادة الزمن القديم . . تصبح مشروعاً حقيقياً من مشاريع « استعادات » الأفندي التي ينوي تنفيذها حين تواتيه الظروف ! !

وزهوان لايشك في أن الأفندي سيبادر حين يصبح لديه الوقت ، إلى الاتصال بمعارفه في دمشق واجبار أم سنا على العودة إلى بيتها ، وكان يكرر هذا منذ سنتين على مسمع زهوان ، يكرره آسفاً على أن الوقت في هذا الزمان أصبح لايمهل الانسان حتى ليحك ما وراء أذنه ! ويسلم زهوان بهذه الحقيقة المؤسفة ، وهو يتأمل انخطاف برق بعيد . وحين يتعثر بحجر في الطريق الضيق يعمل سريعاً على استعادة توازنه ثم يشد قامته وكأنما يدفع بجسده في مواجهة هذا الليل الصارم . . الليل المغلق اللانهائي !

كان الأفندي يحتاج قليلاً إلى معونته في أواخر السهرات القصيرة الفاترة ، ولكنه في السهرات الطويلة كان يرمي بجسده الواهن المخدر ، نحوه ، معتمداً على كتفيه . وكان زهوان عندها ، يشعر بسعادة خاصة ، وبقوة حقيقية ، ويصرخ في داخله صوت سعيد :

« نعم مازال الناس . . حتى الأفندي . . بحاجة إليك ! ! » وكان يلذ له أن يصنع صورة أم سنا بهذه الكلمات . . أم سنا التي رفضته وحرمته سنا . . « آه يا سنا ! ! ومع ذلك لابد أن تعودي بها يوماً أيتها المرأة ، فلن تجدي في أي مكان من العالم رجلاً يساوي ظفر زهوان ! ! »

منذ أسبوع والأفندي يسهر في قريته ، بأسلوب لايتغير ، ولقد عبر عن سخطه

مراراً على غياب سرحان السليم معلقاً : « إنك لن تجد الرجل الحقيقي دائماً . . بل نادراً ما تجده ! » . لكن كل ذلك لم يكن يحدث إلا ريثما يلتئم الجمع على طاولة اللعب وكان لطيف التامر يصر في كل سهرة على أن يلعب ، وفي حركاته قلق من يريد التحدث بشيء لايستطيع الصبر عليه ، كما لايستطيع الافصاح عنه . .

وزهوان يبصر ذلك ولا يستطيع له تفسيراً ، ثم ما إن يتجرع الكأس الأولى حتى ينصرف عن التفكير في الأمر ، وفي سر اقبال الأفندي على القرية رغم كل ظروف ليالي تشرين ، وقسوتها أحياناً . .

كان يعرف أن الأفندي سيبيع ! هو نفسه قالها . . ولكنه تأخر . . نعم لقد تأخر ، ولقد اسعده ذلك ، فهو يشعر الآن بارتباط حقيقي بالقرية ، أكثر من أي وقت مضى . . إنه يطبعها في الحلم بظلاله الشخصية ، ويحس أنه المتفوق الثاني بعد الأفندي فيها . فلئن باع عاصي ، فسوف لن يترك المجيء إليها وإلى القرى القريبة منها يوماً من الأيام ! ولكن من المؤكد أن ذلك المجيء ستخف حرارته مع الأيام ، إلا إذا استطاع أن يثبت للقرية أنها لاتقدر على الاستغناء عنه . . وأنها لتجربة صعبة ، غير أنه إن لم يكن بد من الدخول فيها فليبع الأفندي ! وسيعرف الجميع بعدها أنه ليس مجرد عكاز لعـــاصي في الليـــالي المظلمة وإنما هو قادر . . قادر . . وبشكل شخصي تماما على الوقوف منفرداً دون أي تغيّر ! ! ولقد استعد لهذه الحالة فيما مضى ولكن الأفندي لم يبع ! وحين سأله في لحظة لم يعد يذكرها تماماً ، رفض أن يجيبه بشيء ، ثم بدا عليه أنه يندفع إلى قريته بطريقة أشد حميمية وأشد التصاقاً . .

وحار زهوان في ذلك ، وبدأ يبحث مكدوداً عن تفسير ، دون نتيجة .

لم يكن يستطيع إلا أن يرافقه . فتلك لعبته القديمة التي اعتادها ، والتي أصبح يجد نفسه الآن كـــيحاً بدونها . .

وفي الأشياء التي يعتادها المرء جاذبية غير منظورة ، ثقة خصوصية غير مدركة ، تجعله يسرع إليها ويستسلم لها . وتحت ظلالها المطمئنة يمكن أن ينسى نفسه قليلا . . أن ينسى الأفكار المتعبة ، المتأرجحة ، في عواصف الزمن المتقلب ، وأن يحس بهدوء وأمل وضوء داخل سكينته المتجددة . . يترك قلبه ينبض على مهل .

مراقباً من فسحة ما ، صورة القادم المجهول الذي سيعطي الأشياء العاصية ترتيباً واضحاً جديداً .

كل هذا يمر بزهوان حين يدير ظهره لراشد العلي غير معترف بتحرشاته السمجة أغلب الأحيان . . ولكن أشد ما كان يقلقه هو شعور عميق مبهم خافت بأن ذلك كله ليس إلا صورة مزورة ، واطمئناناً كاذباً . . وفي اللمحات التي يستيقظ فيها ذلك الشعور تصبح أعصابه كأنما حُزت بسكين مثلمة ، يستثيره كل شيء . . وعندها تقبض يده بعنف على الكأس ، ثم يترك جرعة كبيرة تنزلق ، وتتوتر أحشاؤه بلذعها الحار . . غير أنها تترك خلفها ارتياحاً ، كأنما هي تغسل عن قلبه صدأ قديماً . .

وغالباً ما كان يغني بلهجته السيالة مواويل غير موزونة ، إلا أنه لم يفعل ذلك أبداً في ليلة يعرف فيها أن الأفندي لايطيق الغناء .

وحين ينفرد في قاع الليل متجمعاً تحت غطاءه الرقيق البارد ، في غرفته الترابية المنعزلة ، يداهمه خوف من تحطم آخر ملجأ له : عاصي أفندي وسهراته وأبهته التي لايسمح لنفسه أن ينكر يوماً أنه شريك أساسي في صنعها ، وعند ذلك يساوره كره للبيع الذي سيجريه الأفندي . . وخوف وتهيب من المغامرة التي ستأتيه بعدها ، مغامرة اثبات الوجود في القرية التي لايمل من غزوها كل يوم ! !

إن أرقاً حقيقياً يجيئه ، يطير النوم ويبتعد ساعات . ويكتشف هو ، الذي لايمتلك من العالم إلا هذا الفراش البائس ، وتلك الحقيبة الصدئة ، مدى ما يلم بنفسه وبأفكاره وبآراءه من تغير لايكاد يتوقف . . تغيّر يصل الى التناقض ، ويأسف بصدق على أنه غير قادر على التوقف عند حد معين . .

إنه يفكر في أن لكل وضع حسناته . . ولكن بالمقابل لكل وضع خطورته وشروره . .

والأفضل . . أين هو الأفضل ؟

وفجأة في احدى الليالي الأخيرة اكتشف سر الأفندي . سر الوله الجديد والحب العاصف لتلك القرية البائسة البشعة : إن الأفندي يريد فقط أن تستقر الأمور على ماهي عليه . وهو عاجز عن إيقاف تحولها . . ولذلك يطيل من زمن امتلاكه لها . . يطيل من أيام اللقاء بينه وبينها كأنما هو يودعها . . تماماً كالعشاق

الذين يقبلون رؤوس أصابعهم ، وهم يرقبون من بعيد ، الحبيب الذي يبتعد خطوة خطوة . ومع كل خطوة يمتد فاصل غباري تثيره دوامات الزمان المتقلب ، ويسدل ستار سميك على فاصل اللقاء الذي يصبح ذكريات بقوة أكبر . . رغم الأيدي الممدودة للتلاقي . .

ولأول مرة ينام زهوان دون أن يفكر بسنا ! ! كان يفكر فقط في نفسه وفي الأفندي بتصور مزدوج مكتمل ، وأخيراً انكب على الفراش وراح يبكي مثل طفل . كان خائفاً من المستقبل خوفاً لايصدق . . وفي تلك اللحظة فقط ، تيقن أنه إذا بيعت الأرض خسر قطبي حياته الاساسيين : سنا وعاصي أفندي . . خسارة نهائية ! !

* * *

في الصباح أفاق ساخطاً ، ضيق الصدر ، راى الحقيبة التنكية تنتظر في الزاوية مثل امرأة مهجورة . . فلم يجد لديه رغبة في ملامستها . .

وحين خرج يطوف شارع المركز الرئيسي قاصداً المقهى ، كانت شمس فاترة تسطع مبتعدة نحو الجنوب . . ولكنها تهب دفئاً على كل حال . .

لم يجد كثيرين في ذلك الصباح التشريني النادر يحبسون أنفسهم داخل الجدران ، وحتى هو لم تكن لديه رغبة ، لو لم يحس بحاجة لكأس من الشاي يعرف أنه لن يدفع ثمنه .

فلقد كان من الأفضل أن يسير المرء في الشمس بخطا هادئة ، يرقب الوادي العميق أو الجبال المتواصلة كسلسلة ، ويتمتع بمنظر ضبابها الذي يتلاشى . .

كان هناك بضع رجال يلعبون الورق قرب المدفأة وآخرون يتفرجون ، وكان الأفندي ومدير المركز ينتحيان الركن الداخلي الأقصى ، منهمكين في حديث خافت ، متقاربين برأسيهما ، ممسكين كل بفم نرجيلة وقد اكتسى وجهاهما ملامح توتر ظاهرة . . وحياهما زهوان بخضوع وانتعاش طارىء ، مقترباً من طاولتهما سائلاً ما إذا كان أحدهما بحاجة إلى خدمة .

وأشار الرجلان برأسيهما باقتضاب علامة النفي ، وراح هو يمازح صاحب المقهى ساكباً لنفسه كأساً كبيرة من الشاي الحار طالباً كمكة على الحساب . .

وناوله الرجل الكمكة وهو يعلم أنه لن يدخل اسمه يوماً قائمة حساب في دفتره . .

وقال زهوان :

ـ سجل !

ورد الرجل مبتسماً :

ـ إي كل واشرب ! خلصني ! !

وتأمله زهوان شاكراً ، ثم قال بلهجة وقورة مصطنعة :

ـ يلعن والدي اذا كان حاتم طي أكرم منك .

ـ زهوان ! !

هتف به الرجل بصوت منخفض وهو يغمز على الأفندي ومدير المركز بطرف عينه . وكان الحديث يبدو كأنما قد دخل مرحلة حاسمة :

ـ عاصي أفندي سيبيع اليوم يا زهوان . . سيبيع أرضه في مزرعة بيت عاصي !

ـ كذب ! !

ـ هل نظرت إليه جيداً وإلى سيادة المدير ؟

ـ امْهَمْه ! !

ـ إنه مدين بمبلغ كبير لسيادته وقد ربحه منه في القمار . . ابن كلب هذا المدير ! !

ـ أعرف أنه مدين له .

ـ ومدين كذلك للرجل الذي يدعونه أبا سلطان . . الرجل المقطوعة يده .

ـ أعرف ! !

ـ تأمل المدير ! إنه يطالبه بالمبلغ ويلح عليه . . ألم أقل لك إنه ابن كلب ؟ ! انظر . . لقد سمعت كلمتين او ثلاثاً من الحديث ، بينما كنت أعد لها « نَفَس التنباك » وقد فهمت فوراً كل شيء ! !

كان زهوان قد استدار بكليته وراح يرقب المشهد ناسياً كعكته ، ورأى الأفندي وهو يطرق خزياناً حزيناً . . ثم وهو ينهض تابعاً المدير بذلة واضحة . وهمس صاحب المقهى :

ـ معلوم يا زهوان : « الرزق الخسيس بيروح فطيس » المال الحرام لايثمر يا زهوان ! !

ـ مال الأفندي . . ؟

ـ الأفندي يا زهوان إي ! ! الرشوات تصنع الثروة والقمار يضيعها ! !

كان زهوان يتمنى أن يدافع عن عاصي ! ولكن ماذا يقول ؟ . ووجد نفسه ينطلق خارجاً دون أن يقول كلمة . كان يعرف حقاً أن عاصي قد امتلك أراض واسعة في قرى مختلفة وأنه فعل « الكثير » من أجل ذلك . . ومع أنه لم يجلد بعض فلاحيه كما كان يفعل الأفندية الكبار بين الحين والحين لأسباب مختلفة ، من توكيد الهيبة إلى قمع العصيان ـ إلا أنه لم يقصر ! ! فلقد كان يفخر دائماً بلياقته « الفرنسية » في معاملة فلاحيه ، وكان ذلك يجعله يحصل على كل ما يريد منهم : المحصول والخدمة . . والطاعة . . وفوق ذلك المحبة التي تبدأ بقرع الكاس وتنتهي بالمقامرة شراكة كأنداد ! !

وفي الطريق أحس فجأة يد تمسك كتفه ، فالتفت . كان ابن الأفندي ، الكبير :

ـ أهلاً معلمي ! !

ـ هذا لاينفعك ! أريد أن أفهم منك شيئاً . لماذا يفعل أبي كل هذا ؟ أجبني بصدق يا زهوان . وإلا . .

كان الشاب مضطرباً . . محنقاً . . لايكاد يعرف ما سيقول . ورد زهوان بأسى :

ـ وما يدريني أنا ؟

ـ زهوان . . لاتكذب ! ! اتركنا أصدقاء . أنت ترافقه كل يوم ، وهو يبوح لك بكل أسراره . انظر أنت ! انه سيجعلنا « على الأرض يا حكم » بتصرفاته ! نحن لانستطيع أن نمنعه طبعاً . . ولكن فقط ، أريد أن أعرف لماذا ؟

ـ تريد الحقيقة ؟

ـ الحقيقة ! !

ـ أقسم بالله لا أعرف كيف حدث له كل هذا ! ! يلعن والدي إذا لم أكن متألماً أكثر منك لهذه الحالة . وأنا لا أرافقه الا ستراً لهيبته أمام الفلاحين . . أنت

تعرف . . أنا أعتبر نفسي عبداً مأموراً عنده . . وصدقني أنه لم يحدثني يوماً بشيء عن نياته .

ـ أنت كذاب ! أنت أكبر ابن كلب رأيته في حياتي .

وانفلت الشاب ضارباً في الشارع . . وتملك زهوان ألم حقيقي . وباع الأفندي في ذلك اليوم ، ولجأ زهوان إلى غرفته وقد سيطر عليه حزن شديد !

ولكن مفاجأة كبرى كانت تنتظره ، مفاجأة لاتصدق ! فعند الظهر سلمه عامل البريد رسالة مضمونة . .

ولم يطل استغرابه ، فقد كانت أختام دمشق واضحة عليها . . ولم يصدق أول مرة . ارتجفت يداه ، وأحس بشيء من الدوار . . أيكون هذا صحيحاً ؟ واختلط فرحه الغامر بحزنه الكبير . . ثم لم يلبث أن أحس أن الشمس تملأ بضيائها كل شيء . . وأن اشراقاً لايدرك كنهه يعم الموجودات ويصل حتى سريره البارد ، وقلبه الموحش . كان في الرسالة خمسون ليرة ورجاء في أن يرسل لأم سنا صورة قيد نفوس لسنا ، فقد سجلتها في المدرسة ولاينقصها إلاه . . وأكثر من ذلك كان في الداخل صورة لسنا المحبوبة !

وقبلها ثم عاد يتأملها ، وانهمرت دموعه . . أين أنت يا ابن الكلب يا راشد العلي لترى بعينيك ، أين ؟ ان أم سنا لايمكن أن تنسى زهوان أبداً ! ! فاين أنت لترى . . ؟

ودون انتظار أسرع إلى حقيبته فتناولها ، وراح يجري مهرولاً نحو القرية . . فقد كان يجب أن يرى « ابن الكلب » صورة سنا بعينيه . . فوراً . . فوراً . . وأن يرى غلاف الرسالة . . بل والرسالة نفسها ! ومع أنه « بهيمة » لايقرأ ولايكتب إلا أنه يجب أن يرى كل شيء . . كل شيء ! !

كان فرح زهوان في الواقع قاسياً وعنيفاً ، بحيث لم يكن بإمكانه في حقيقة الأمر أن يحمل اطلاقاً عبئه الثمين منفرداً .

- ٣ -

كانت الروح التي لاتتوقف عن الانسحاق ، تستقر خاوية متعبة تحت مشاعر الذل الخفية الضارية ، التي يعرفها جيداً ويتجاهلها مدافعاً ضدها بكل غريزة الاستمرار في الحياة ، وبكل الرغبة العنيفة في استعادة التوازن الذي يشعر حسين السعيدي أنه قد انهار .

كانت الروح لاتتوقف عن الانسحاق ! وهو يعرف أنه ابن تلك الظلمة السرية التي لفه بها محمود السعيدي ! ابن ذلك الاختباء الملفق تحت اللحية . . وتحت الوقار ومظاهر أخرى كثيرة تظهر في حينها ثم تختفي .

وهو ينتظر التجربة المخيفة القادمة . . تجربة أنه مضطر أن يخلع كل ذلك عنه . . وأن ينزع من اسمه كلمة الشيخ التي لاتليق إلا ببهلول . . وأن يبقى « حسين السعيدي » ، حسين السعيدي لا أكثر ولا أقل ، بعفن الخبايا التي يسترها ، وجنون التطلعات التي يطمح إليها ، وانهيار الثقة بالغفران ، كما انهارت من قبل بالتوبة أو بالحساب !

كانت الروح لاتتوقف عن الانسحاق . وكان في الليالي الثقيلة يلجأ إلى الهرب ! إن بيته ليجلده جلداً كما لو أنه مسكون بالشياطين . وفي غير ساعات النهار لم يكن يجرؤ على النظر إلى الكهف السري . . إن النهار يحمل أثقاله عنه أو ينزلها . . ولكن الليل . . آه من الليل ! ! إن الكهف ليأخذ فيه ملامح خرافية

مرعبة . . ملامح تجعل القلب ينصعق بجبروتها الوحشي ، ورهبتها القاسية . . حتى إنه لم يكن يجرؤ على النوم قبل أن يقفل البوابة الداخلية بإحكام ! ! !

وفي الليالي الثقيلة ، كان يلجأ إلى المرب . . فمنذ العصر يجر أقدامه بعيداً عن القرية التي أصبح الآن يعرف عنها ، أن كل ما كان بينهما من مجاملات قد تقطع ! من جهته هو على الأقل ! وكان يبيت في أول مكان يصادفه ويجد له فيه مستقراً . . وفي بعض اللحظات كان يستعيد شيئاً من الثقة بأن الحياة ماتزال جارية إلى غايتها مثلما كانت ، وأنه لابد من التعامل معها بأسلوب آخر . . . ثم ما يلبث كل شيء أن يمحي ! ويغرق القلب في الظلمة من جديد !

يستطيع أن يؤكد لنفسه أن القرية ماتزال تريده « مزارعا » الحي . . . وثنها الخصوصي . . . تعترف له وترجو مساعدته ، وتعطيه لقاء الأمل الذي يمنحه لها كل احترامها وتوقيرها ، وكل خضوعها وطاعتها . . نعم هكذا الأمر . . وهكذا دائماً هم الضعفاء ! !

لقد كرسه أغلبهم بصفة نهائية ! ويستطيع أن يؤكد أن ما سيقوم به قريباً . . أن حسين السعيدي الذي سيصير ملاكاً . . سيكون مفاجئاً لهم لدرجة أنهم لن يصدقوا في أول الأمر ! ! ! وسيهمس بعض من أشقيائهم : « الشيخ حسين يشتري أرض القرية ويتملك ؟ » وسيمط بعضهم شفاههم باستهانة بينما يرد بعض آخر « وما المانع ؟ أليس الشيخ حسين أولى بها ؟ ؟ » ولكن شراكته للأبتر هي التي ستثيرهم . . . ومع ذلك فسيبتلعون القضية . . نعم سيبتلعونها . . فهم قد تعودوا على ذلك أبداً . . وهم قد فعلوه دائماً . . وكل الأشياء تدخل في النسيان ! ولكن الأبتر لن يرضى بأقل من استخدامه استخداماً تاماً في سبيل مطامحه . . إنه يعرف مايفعل هذا الوغد ! ! !

إنه منطق الزمان . . ولابد من أن يكشف المرء نفسه ! وكان هذا يخيفه كما يخيفه غول خرافي يخرج له من جدران الكهف السري ذات ليلة عاصفة ! !

وسر سعدى لم ينكشف وقد لاينكشف أبداً . . ولكن الحكاية نفسها ثقيلة ماحقة . . وهي في سريتها وخصوصيتها العجيبتين تظل تجيء برعبها المزدوج :

رعب أنه فعل ذلك حقاً ، ورعب أن أمرها قد يفتضح . . وكان هذا يجعله مهيضاً متلاشياً ، أو محتقناً بدنسه موشكاً على الانفجار .

وخيال سعدى لايريد أن يبلى . إنه يتجدد في كل فرصة سانحة ، حتى ليوشك أن يصير مألوفاً ، لولا أن أطياف الموتى تظل أقسى من أن تحتمل وأبعد كثيراً عن أن تتقبلها أرواح الأحياء . .

والمقبرة قريبة تكاد تزحف إلى الباب . والمقبرة جبروت خرافي مستقل . ورغم ان أحداً لايستطيع أن يجزم بأن ذلك الجبروت قد أفصح عن نفسه ذات يوم ، فما أسهل أن يتخيل ذلك أولئك المشبعون بخوفهم الذليل ! !

انه يعرف جميع الموتى تقريباً . يعرفهم بأجسادهم المتراخية ساعة غسلها ان كانت أجساد رجال ، ويعرف كل الأجساد بأشكالها الخضراء ، وهي ملفوفة جيداً بأكفانها ، ساعة يوسدها أعماق القبر ويلقمها قبضة من تراب . . وكان هذا في أول الأمر يريد ثقته برجولته التي ترفض أن تنهزم ، حتى أمام الموت . ويزيد معرفته بعجز تلك الأجساد بعد أن سقطت في هذه الغيبوبة العجيبة المحيرة التي لايجد لها أحد تفسيراً . .

ولكن سعدى تختلف تماماً ، انها تستعصي على كل معرفة ، وتعصى كل ثقة . . ان سعدى تقلب الأشياء رأساً على عقب . . انها جريمته الخصوصية ، الموت الذي صنعه بيده ، والذي يبدو له الآن فاتكاً مسيطراً ، تتهاوى رجولته أمامه ، حتى لايبقى منه ، هو حسين السعيدي العملاق ، إلا الهيكل الخارجي المتهافت ، الذي لو نفخته ريح صغيرة لأوشك أن يطير ! !

صار إذا أوى ليلة إلى بيته أنهى كل أشغاله بسرعة ، ثم دس نفسه تحت اللحاف ، حتى إذا خفض أخيراً ضوء القنديل ، طمر رأسه باللحاف ، كأنما يحتمي من كل الذكريات المريرة ، ويتحصن به من كل الخوف المتراكم في زوايا البيت الأربع .

كان رأيه قد استقر أخيراً على أن يهجر هذا البيت الملعون فور شراء الأرض من عاصي أفندي . . سوف يبني بيتاً آخر في رأس تلك الأرض في مكان وقع عليه اختياره . . وسيبحث له عن فتاة شريفة . . نعم . . فتاة شريفة ، وسيحاول أن ينسى ! أن ينسى ! !

واليوم باع الأفندي الأرض ! وهو ، لايدري لماذا أوى إلى فراشه مبكراً ؟ لم يصل الخبر بعد إلى القرية . وهو قد انقطع منذ مدة عن الظهور ليلاً في طرقاتها ،

مثلما صار نادراً ما يرى في بيوتها نهاراً . . والآن هل ستنتهي كل هذه الكوابيس؟

لأول مرة يتبدد خيال سعدى بهذا الشكل . لقد غمرته مشاعر متناقضة من السخرية والاشمئزاز والرضا وهو يتذكر أنه منذ أيام ، قرأ « الفاتحة » في الزواج الجديد لنجم الدين . ورغم جمال الصبية لم يشعر نحوها بأكثر من مشاعر أبوية . . لقد باركها سعيداً كأنما كان يكفر عن خطيئته . . ولقد قبل نجم الدين يده في خضوع عجيب ارتاح له ارتياحاً عظيماً ، لم يعكره الا ابتسامة خبيثة من امرأة سرحان السليم ! ابتسامة رأى خلفها ألف معنى مخيف ! ! ولقد بدا له الزوجان مثيرين للاشفاق والحب وهما يرتجفان حين وضع يد نجم الدين في يدها بعد اتمام المراسيم ، ودعا لهما دعوات ، لو كان يثق بنفسه ، لظن أنها ستتحقق فوراً . .

وحين أوشك أن يغفو على هذا الارتياح الطارىء ، سمع نقراً خفيفاً على الباب ، فتحفز كأنما لدغ ، وانتصبت أشعار جسده ، وكشف اللحاف عن رأسه مصيخاً بسمعه ، ثم عاد فاطمأن بعد أن عاد النقر ثانية ، ورفع لهب القنديل ثم ذهب إلى الباب ففتحه . وشد ما داخله شعور بالمقت حين دست امرأة سرحان السليم نفسها بينه وبين الجدار ثم انفلتت إلى الداخل ! كان مجيئها في الواقع مفاجئاً . . بل كان مدهشاً وقاسياً أيضاً ! !

تستطيع هذه المرأة أن تفعل ماتشاء ! انها تمتلك وقاحة داعرةٍ حقيقية ، ومكر ثعلب ، وهدوء بحر في نهار صيفي ! ! وهي لم تنتظر اذنه ، انها تَفْد كربّة بيت عائدة من زيارة . وكان في هذا من التحدي له ماجعله يتوقد غضباً . ولكنه كتم مشاعره بانتظار أن يعرف ماتريد .

جلست على طرف فراشه ، بينما كان لايزال واقفاً قرب الباب :

ـ لماذا لاتتحرك ياعمي الشيخ ؟ ؟ هل أزعجك مجيئي ؟

كانت طريقتها في الكلام استفزازية حقاً ، ومع أن ابتسامتها كانت قاسية قسوة مخيفة ، إلا أنه لم يسمح لنفسه بالانسحاق أمامها ، أو الاندفاع إلى اغضابها ، هي المرأة التي تعتبره شريكاً ضعيفاً في عمليات سقوط مشينة .

قال في نفسه إن النساء خطيرات حين يملكن سراً مؤذياً ولابد من مداراتهن . . وتقدم :

ـ لا . . ولكن . . في الواقع إنه فاجأني فقط .

- ولماذا يفاجئك ؟ ألا ترى أن من حقي أن آتي متى شئت ؟

هي اذن ترمي إلى تأكيد حقوقها ؟ هكذا ! ! تبدو منفعلة من شيء ما . . عصبية وليس لها أي نية في التنازل عن شيء مما تعتبره ملكاً لها :

- ولكني لم أقل شيئاً حتى الآن . لابد أن طريق المقبرة الموحش قد جعلك منفعلة هكذا . .

تقدم أكثر نحوها محاولاً أن يظهر في تمام الرضى ، ولكنها فاجأته بنبرة ساخرة جمدته :

- لقد عبرته قبل الآن مراراً يا حسين . . أنا لاأخاف من شيء !

كان تعريضها واضحاً ، وكان يبدو جلياً أنها قد تحولت إلى امرأة لايؤمن جانبها ، وليس أمامه من طريق إلا استدراجها :

- حسناً إذن أنت غاضبة ؟ !

- اطمئن . . لم أغضب حتى الآن !

انها طريقة خصوصية وجديدة في التعامل إذن ، يابنت الكلب ؟ تظنين حسين السعيدي خروفاً صغيراً يستطيع أي ثعلب اصطياده ؟ ها . . . ؟

- أنت اليوم لست طبيعية ! تتحدثين وكأنما ضبطتني في جرم خطير ! !

- ضبطتك ؟

انفجرت مقهقهة بصوت عال ثم تابعت :

- مسكين يا خروفي الصغير ! ! ان لك قلباً سليماً ورأساً لايفكر في أية هموم .

رجعت تقهقه كأنما تتعمد اغضابه تعمداً . . وكان يحاول أن يبذل آخر مجهود للسيطرة على نفسه ، فسألها وهو يجلس قبالتها :

- لابد أنك مريضة . . هل أسقيك بعض الشراب ؟

- من جنس شراب سعدى ؟

قفز من مكانه كأنما لامسته جمرة متقدة وتهيجت أعصابه وصرخ :

- كفاك ثرثرة فارغة ها ! إذا ظننت أنك اصطدتني فأنت مخطئة ! !

تأملته قليلاً وهو يشير باصبعه نحوها مهدداً ، مرتجفاً من الغيظ . . فلم تتحرك قيد شعرة من مكانها بل ردت بلهجة هادئة مريرة :

ـ حسين لم يعد لدي ما أخسره ! ولهذا فأنا لا أخشى أي شيء ! . أي شيء ! !

ظلا لحظات يتبادلان النظرات الممعنة ، المحتقنة . . فكر في الفائدة التي يمكن أن يجنيها من معركة مع امرأة مثل هذه المرأة . . انه الخاسر الوحيد ! وما يصيبها سيكون بسيطاً تافهاً إذا ماقيس بدماره الذي لايمكن له أن يكون محدوداً ! !

وفكرت هي من جانبها في أن الرجال لايخضعون لمثل هذه الأساليب العنيفة ، وأن الشيخ حسين ليس نجم الدين مثلاً ! انها ، هي ، الضعيفة رغم كل مانعرفه من أسرار . وأحست بالحرارة اللاذعة تنتشر في عينيها . وبحاجة محرقة إلى دمعة مهدئة . ولكنها لم تشأ أن تبكي الآن . . فسوف يكون أمامها متسع للكثير من الدموع !

تحرك حسين السعيدي مطرقاً حائراً فيما يجب أن يعمله . . ان هذه المرأة تريد أن تقول شيئاً . ولكنها لن تتكلم قبل أن تجعله يعترف أنه عبدها المطيع ، كما يبدو ! ! فجأة سمعها تقول :

ـ لاتعرض جسدك للبرد ياحسين ، سيصيبك قولنج اذا ظللت هكذا ! !

هاهي المهرة الشموس تسلس قيادها . كان يجب أن يغضب منذ اللحظة الأولى إذن ؟ ؟

ـ شكراً على هذه العواطف .

ـ حسين اجلس لأحدثك بعد أن تضع شيئاً على ظهرك ليدفئك !

ـ تحدثي ، انني أستمع ! ولكن إياك أن تثيريني أو أن تهدديني ! !

ـ حسين ! انني لا أهددك انني أريدك .

كانت لهجتها شاكية حزينة ، ولقد بدا الآن واضحاً أنها متعبة ووحيدة ، متألمة !

لم يشأ الرد على قولها ، انه يعرف كل ذلك سلفاً بل انه لايخشى شيئاً كما يخشى هذه العلاقة التي يريد من كل قلبه أن ينتهي منها على سلام .

ـ انني الآن وحيدة وعاجزة يا حسين . . لم يعد لي ملجأ آخر . . ولهذا جئت

ـ ملجأ آخر ؟ ولكنك امرأة متزوجة يا هذه . . ولك بيتك ! !

ـ لم تكن تقول لي مثل هذا من قبل ! أرأيت ؟

صمتنا لحظة ثم أكملت :

ـ حسين أنت تعرف أن سرحان السليم لم يكن رجلي . .

ـ اسمعي . اذا كنت تستطيعين أن تقولي هذا بيني وبينك لأننا مارسنا الفجور معاً ، فهذا لايعني أن من حقك أن تعتقدي أن سرحان لم يكن رجلك . . أو بتعبير آخر يجب أن تعرفي أن الناس لايقرون أن أكون أنا ، هكذا ، بدلاً من رجلك . . فهمت ؟ ثم أنا لا أستطيع . . لااستطيع . . ان لي مركزي وأنا لا أرضى بأن ادمر نفسي !

ـ كيف إذن رضيت أن تدمرني . . ها ؟ أجبني ! كيف تدمر غيرك ولا تهتم بذلك ، بينما تريد أن يهتم غيرك بدمارك ؟ ؟

ـ ولكنك مستورة فلماذا تبحثين عن الفضيحة ؟

ـ سأجيبك عن هذا . . ولكن يجب أن تعرف أولا أنني لست من صنف سعدى ! وعليك أن تفكر في الأمر . . وأنت لاتجهل ما أريد . . .

ـ ماذا تريدين ؟

ـ قل لي أنت . لماذا تبتعد عني بهذه الطريقة ؟ أنت منذ زمن ترفض أن تنام في بيتك خشية أن أجيئك في ليلة مثل هذه ، فأجعلك تقرر مالذي تنوي أن تفعله بشأني . . فلماذا ؟

كان حائراً عاجزاً في الحقيقة عن أن يُفهم هذه المرأة أن ما بينهما من علاقة خفية لايتيح لها أن تفكر به مثل هذا التفكير ، ولا أن تفرض عليه مثل هذه الحقوق . . .

ـ يا امرأة ! أنت متزوجة ! ! وسوف .

ـ لم أعد متزوجة !

ـ كيف ؟

ـ سوف تعرف « كيف » قريباً ، إنما أريد أن تعرف الآن أنني أصبحت حرة ، وأنني لا أملك شيئاً ولا أهم احداً ، وأن عليك أن تجد حلاً او أدمرك وادمر نفسي معك ! !

كان الكلام يصعقه صعقاً . ولقد نهضت بينما يكاد يحرقها بعينيه المتقدتين بالغضب . وهاهي تخاوفه بشأنها تتجسد أمامه بانتظار الحل ! وهو عاجز تماماً تجاه

هذه الذئبة ، مشلول أمام هجومها المباغت ، الذي حسب لغبائه أنها لن تجرؤ على مجابهته به . . . ولقد وجد نفسه يعض على اصبعه بلا شعور . . لو تزوج قبل تخلي زوجها عنها ـ إذا صح أنه تخلى ـ لكان الآن مرتاحاً من كل هذا الهم الجديد . . . ولكن . . .

ـ أنت تعض اصبعك ياشيخي ؟ ! لابد أنك نادم على ما فعلت بي . أو نادم على علاقتنا من أساسها . . ومهما يكن فأنا سأنتظرك إلى غد أو بعد غد . . . ففكر في الأمر . ولقد عرفت أنك أصبحت اليوم ملاّكاً كبيراً . . ولابد لك من أسرة ! ها ؟ فكر أنت وسأعود قريباً .

وخرجت دون أن تنتظر جوابه . وكان غضبه المحتقن يستعر في داخله كالجحيم . . وصفق الباب بعنف ، وأقفله . . ثم انطرح على فراشه هامساً :

ـ كان يجب أن أخنقها . كان يجب أن أخنقها ! !

- ٤ -

وصلت أخبار البيع إلى القرية متأخرة يوماً واحداً فقط !

وبدا لطيف التامر طيلة ساعات متحفزاً مثل قط بري بعينيه المتقدتين ، وهيئته المستفزة ، بينما لم يظهر إخوته أي قلق .

والرجال الذين لم تربطهم بالأفندي شراكة كانوا باردين تماماً في ذلك النهار المشمس الصاحي . ولقد علق أحدهم قائلاً :

ـ سوف « نضمن » جزءاً من الزيتون من أبي سلطان كما كنا نضمن من عاصي .

إلا أن لطيف التامر رد بهدوء لاينسجم مع هيئته :

ـ غير أن هذا الأبتر وغد حقيقي

ـ هل أنت آسف على صديقك ؟

ـ ليست المسألة هكذا . . لا ! ! أنا مثلي مثل غيري ، نحن جميعاً لن نستطيع أن نستفيد شيئاً من هذا الأبتر .

ـ لاتبالغ يا رجل !

ولم يكمل لطيف حديثه بل اكتفى بهز رأسه في شيء من التوعد المكتوم ، وكان هذا كافياً ليجعل قلقاً خفياً يتسرب إلى النفوس . إن أياً منهم لايمتلك أرضاً تكفيه رغم ضآلة حاجاتهم ، ومن أجل ذلك كانوا مرغمين على العمل في أرض

عاصي . . وهم يعرفون أن الرجل لم يكن كريماً جداً معهم ، ففي المسائل التي تتعلق بالرزق والموسم قليلاً ما كان يتغافل عن شيء ! ! إلا أنه من جهة أخرى كان متلافاً . . وكان يطيب له حين يسكر أن يوزع « احسانه ! » ذات اليمين وذات الشمال . وكان يشعر دائماً بسمو وأهمية شخصه حين يقرض أحدهم ثمن « كيس طحين » ويظل اياماً يتباهى بذلك حتى لينذحر المقترض المسكين إلى جحره لايُرى في « السهرة » حتى ينسى الأفندي احسانه العظيم !

ورغم هذا فالأمور لم تكن سيئة معه بالقياس إلى مايفعله أبو سلطان بحججه وسنداته وفوائده . .

الرجال يقتعدون الأرض مستندين إلى حائط دكان راشد ، تاركين وجوههم للشمس ، ناظرين باتجاه الطريق المؤدية إلى المركز . فاليوم هو موعد مجيء الأفندي . وهو عادة لايتأخر كثيراً . .

أبو حامد يجلس متضائلاً على طرف . . حدثته زوجته أمس في « الموضوع » وكان هو ينفش ريشه آنذاك متباهياً أنه قد زوج نجم الدين بفضل حكمته وبراعته ، وبين كل جملة وجملة كان يضرب بيده على ركبة أبي محمود الجالس قربه ويضحك بفرح غامر وهو يصف كيف دخل على أهل الفتاة ، وكيف رحبوا به وقالوا له : لو طلبت دماء لأعطيناك ! ! . .

كان يبدو مثل ديك مختال . وحين قال لأبي محمود عبارة : « وأخيراً انطبق الفخ ! ! » . دخلت خدوج . . وقال أبو محمود :

ـ لا . . نجم الدين مايزال شاباً ولا بأس به !

ـ يعني يا ابا محمود لولاي ولولا مافعلت من أين كان له أن يحصل على هذه الفتاة ؟ !

وهم أبو محمود أن يظهر موافقته . . لولا أن صرخت خدوج :

ـ سنرى غداً كيف تدبر رأسك ؟ ! لقد باع الأفندي الأرض . .

وتظاهر أبو حامد بقلة الاكتراث ، وهمّ بالعودة إلى حديث نجم الدين . ولكن أم حامد نظرت إليه نظرة ثاقبة وقالت :

ـ في البيت واحد يريد أن يراك !

نهض فوراً وسار وراءها . . ولم يكن هناك أحد ! كان هناك درس صغير

فقط ، ألقته عليه أم حامد ! !

انه الآن يجلس صامتاً بانتظار الأفندي ، وبينه وبين نفسه يحس بارتباك عجيب . . ماذا سيقول له حين يجيء ؟ وأخيراً وجد الحل . سينتظر لطيف التامر حتى يتحدث ما دامت القضية واحدة ، وسيوافقه على كل مايقول . وداخله شيء من الرضى عن حكمته الجديدة . . ونطلع صوب لطيف التامر كأنما يريد أن يطمئن إلى وجوده بجانبه ، وفجأة وقعت عينه على خدوج التي حيت الرجال ووقفت ، فقال راشد العلي :

ـ هذا هو أبو حامد ، ان كنت تبحثين عنه !

ـ ألم يصل الأفندي ؟

ـ وماذا تريدين أنت من الأفندي ؟

تأملت الوجوه قبل أن تجيب على السؤال ، ولم تفتها ملاحظة الهموم الطائرة والانشغال الحقيقي ، وقالت :

ـ أخشى أن يكون الأفندي قد باع حصتنا فيها باعه ! ! أريد أن أطمئن إلى حقي .

ولم يتكلم أحد رغم أنهم رفعوا رؤوسهم إليها . . وتابعت هي :

ـ الأفندية حين يتعلق الأمر بالبيع والشراء لايعرفون إلا أنفسهم ! !

رد واحد من الجالسين بصوت خافت :

ـ الأفندي وجدانه كبير ياخدوج !

وكانت خدوج في الحقيقة بحاجة إلى كلمة كهذه فقط ، لتنفجر ! !

ـ نعم وجدانه كبير ! الله لايوفقكم ! أنتم الذين منعتموني من ضمان حقوقي يوم جئت إليه أطلب سنداً بمغارستي . . يومها قلتم : الأفندي حنّ عليكم يا خدوج . . الأفندي قلبه كبير ياخدوج . . الأفندي . . الأفندي . . وإذا كان اليوم قد باع حصتي . . فماذا تقولون لخدوج ؟ هاه ؟

ـ الأفندي لايعملها ! لم نسمع عنه مثل هذا قبل الآن .

ـ انتم قلوبكم طيبة . . كلكم مثل أبي حامد لاتعرفون شيئاً من مصلحتكم . . كل الأفندية سواء ياعمي . . كلهم ! !

ـ المولى ليس له صاحب ! يرحم الله المثل ! !

هزت خدوج رأسها ساخرة ، ثم استدارت عائدة ، وعم صمت وسكون . كان الجميع يتطلعون إلى لطيف وأخوته . . ولكن لطيف كان ينظر إلى بعيد منقلاً حجراً صغيراً من يد إلى يد . .

وفجأة عادت خدوج :

ـ نسيت أن اخبركم . . الشيخ حسين شريك أبي سلطان .

ـ الشيخ حسين ؟ ؟

قالها الجميع بصوت واحد غير مصدقين ، وهزت هي كتفها :

ـ هه . . نعم الشيخ حسين

ـ ومن أين سمعتِ ؟

ـ سمعت من امرأة سرحان السليم

ـ ومن أين عرفت هي ؟

ـ كانت أمس في المركز . . الشيخ شريك بالربع

وبدا عليهم أنهم لم يصدقوا . . . كانوا مندهشين حقاً من الخبر ولكن الدهشة سرعان مازالت ـ ذلك أن الخبر بدا عادياً بعد اللحظات الأولى . وقال رجل من الجالسين :

ـ وماذا فيها ؟ الشيخ حسين أولى بهذه الأرض !

ـ الشيخ حسين أولى . . ولكن يجب ألا يكون قد اشترى أرضنا .

قالت خدوج ذلك بلهجة فيها الكثير من التهديد ، فصرخ أبو حامد :

ـ إلى هذا الحد وكفى . اذهبي إلى البيت !

رمقته شزراً ثم قالت مظهرة الخضوع :

ـ انني ذاهبة . ولكن إذا صح أنه اشترى أرضنا ، فلن يسلم مني لاهو ولا غيره .

سقط قولها كما يسقط الحجر الكبير في بركة ماء ، أخذت الدوائر تنتشر وتنتشر ثم تتلاشى ، وسرت همهمة واختلج شيء ما في قرارة الرجال ، فالحجر لامس الأعماق الموحلة ، وتصاعد عكر منها حتى وصل إلى السطح ، ثم عاد فتساكن . .

كان بعضهم يرهب أن يقترب من سيرة حسين السعيدي اقتراباً . . وكان آخرون يودون برغبة خفية غير متضحة أن يسقطوه من ذلك المرتفع الذي يقبع فوقه

ولا يجرؤون . . وينتظرون غيرهم أن يبدأ . وعلق واحد منهم بصوت عال :

ـ نتمنى حقاً أن نسمع شيئاً جديداً .

فرد آخر وهو ينهض ناقضاً سرواله :

ـ نتمنى ؟ ها أنت تسمع . .

ونهض ثالث وقال :

ـ « الأيام والدنيا تسوي العجايب ! »

وضحك بعضهم بلا سبب تقريباً ، ولكن خيال الشيخ حسين كان يراودهم بطريقة عجزوا عن ايضاحها . . وأقفر المجلس تقريباً ، حتى لطيف التامر ذهب . . فقد بدا أن الأفندي لن يأتي !

ولكن المفاجأة كانت في أن الأفندي وصل بعد أقل من ساعة وكان بصحبته . . سرحان السليم ! ! وسرعان ما التم الرجال ، ولكن هدوء اللحظات كان قاسياً ، وارتجف قلب عاصي ، وهو ينظر في الوجوه . . ان تغييرا ما لم يحدث عليها . لم يقل أحد كلمة تعبر عن استيائه من فعلة الأفندي وليس هناك من ظهرت عليه علامة حزن .

وفكر عاصي في أنه لو حصل على مثل هذه العلامة . . لوحصل على كلمة عتاب إذن لتعزى ! ! وبدأ قلبه ينقبض وقال في نفسه :

« المولى ليس له صاحب ! ! »

وألقى نكتة ، وحاول أن يستعيد الصخب الذي كان يرافق حضوره عادة . ولكن حديثه كله كان متكلفاً . . والجميع صامتون ، وليس إلا ابتسامة مجاملة على فم هذا أو ذاك . وازداد انقباض صدره وشعر بنوع غريب من الحزي . . وبغضب حزين مشلول . . كيف يُعامل هكذا ؟ ؟ ان وثائق بيع الأرض لم تكد توقع ! الخبثاء ! ! دفعة واحدة يظهرون كل هذا الإنكار وكل هذا العقوق ؟ ! لاباس . . هذه حال الدنيا . يطير افندي ويجيء أفندي . . وسأل محسن السلوم عن رأيه في البيع فأجاب :

ـ كلكم خير وبركة عاصي افندي . . كل الأفندية سواء !

أحس عاصي بالدماء تغلي في عروقه « يا جاحد ! بمثل هذا تجيبني ؟ حسناً يا ابن السلوم . عاصي أفندي لايساوي أكثر من رجل بيد واحدة ؟ ؟ تفوه ! ! »

ودارت عيناه في الرجال كأنما يستفتيهم آراءهم . ولكن وجوههم كانت جامدة تقريباً . . وفي الجو برود عجيب . . غير أنه برود موشك على الانفجار ! ! سألهم :

ـ مالكم اليوم ساكتين ؟ ! هل آذاكم البيع إلى هذه الدرجة ؟ ؟

تطلع الرجال بقلق إلى الباب ، كانوا في الواقع ينتظرون مجيء خدوج أو لطيف التامر أو غيرهما من المغارسين . . وتغامز بعضهم خلسة ثم قال راشد العلي :

ـ يا أفندي الملك ملكك . أنت اشتريت وأنت بعت . . .

ـ ماذا يعني ؟ أترون أن عمكم عاصي قد أخطأ ؟ لا يا ابني لا . . عمكم عاصي بصراحة قد بلغ مرحلة من العمر كبيرة ولم يبق إلا القليل . . وعمكم عاصي يريد أن يشبع من هذه الدنيا . . الدنيا يا ابني مولّية . .

ولم تحدث الموعظة أثرها المطلوب ، بل غمغم بعضهم بكلمات غامضة ، وتهامس آخرون عن خدوج ولطيف ، وأخيراً قال محسن السعيد ضاحكاً :

ـ أنت حكيم يا أفندي . . حكيم ! ! أنت رجل عاشرت ملوكاً وباشوات وجنرالات . . ونحن . . من نظننا ، يعني ؟ نحن يا أفندي لانستطيع في الحقيقة أن نفهم مثل هذه الأمور الصعبة . .

وضحك الأفندي ، وأحس كأنما استرد شيئاً من ثقته بنفسه ، فطلب كأساً من العرق وأمر راشد بنصب الطاولة . . وأن يصب كأسا لكل من يريد أن يشرب ، ولكن واحداً منهم لم يقبل بذلك رغم الحاح عاصي . . وأخيراً اتجه إلى محسن السلوم قائلاً برجاء :

ـ إنما أنت . . يجب أن تشرب معي كأساً . . يجب ! !

ـ أنا لم أشرب في حياتي على طاولة أفندي غيرك . . اسمح لي

ـ لا أقبل !

ـ وأنا يا سيدي لا أستطيع . . أخشى أن أتعود ! !

وللمرة الأولى أدرك أن محسن يسخر منه . ولكن رغبة عنيدة في أن يرغمه على الشرب معه استولت على أحاسيسه . . كانت المسألة مسألة اعتبار ، وكان من غير الممكن في نظره ألا يشمل بإحسانه لعميم المألوف واحداً من هذا الحشد . .

ولكن الكأس ضرورية من أجل اللعب ! أم تراني أجيء للتفرج على صورة راشد العلي ؟ هات ياراشد . . هات !

ثم التفت إلى محسن قائلاً :

ـ لاتعاندني . . أنا عمك عاصي ، لايستطيع أحد أن يعاندني يارجل ! اقترب . . اقترب . . انظر ! لقد أحضرت معي ورقاً جديداً من أجلك وحدك ! ! اقترب . .

كانت اغراءات عاصي لاتقاوم هذه المرة ، وأدرك محسن السلوم أن عليه أن يحرص على الشرب مادام أحد لايفعل ذلك . . وحين اقترب بكرسيه ظهرت على الأفندي سعادة غامرة ، وتفرس في الرجال كأنما يتباهى بقدرته وحنكته ، ولكنه فجأة قطب مابين حاجبيه كمن تذكر شيئاً مهماً . .

ـ أين سرحان السليم ؟ أين ؟

كان سرحان قد تابع طريقه لحظة الوصول تقريباً ، فلم يتوقف إلا قليلاً جداً ، وحين سأله راشد أين غاب كل هذه المدة ، اكتفى بالابتسام الذي رسم في وجهه الناحل أخاديد عميقة ، وهمس رجل لآخر :

ـ انظر لقد أصبح عجوزاً في أقل من شهر

وتأمله الرجال ، بينما كان الأفندي يحاول أن يثير جلبته الخصوصية ، ثم انفلت من بينهم دون أن يدخل الدكان .

وحين تذكره الأفندي لم يكن أحد يعرف أين ذهب . إلا أن أغلبهم ظنوا أنه لابد أن يذهب إلى بيته ليرى امرأته وليحيطها علماً بأنه قد رجع . .

وعاد الأفندي يسأل :

ـ سرحان . . أين سرحان ؟

قبل أن يجيبه أحد كان لطيف التامر يدخل الدكان مسلماً ، وقام الأفندي فاتحاً ذراعيه يدفعه احساس بأنه قد تخلص من ورطته مع محسن السلوم ، فها هو رجل حقيقي . . ها هو واحد من « الرعية » . . ورسم لطيف ابتسامة متفائلة على شفتيه . . كانت عاطفة الأفندي تتدفق في كلماته المرحبة حارة صادقة ، وكان يستحيل على لطيف بعدها أن يحتفظ بوجهه المقطب . . ووجد نفسه يجلس بدون ارادته إلى جانب « ولي النعمة ! » ويرشف من كأسه ذاتها ، ثم ما لبث أن أفاق إلى

نفسه فباعد كرسيه الصغير قليلاً محاولا أن يستعيد بعضاً من غمه السابق . . ودفع الأفندي إليه كأساً خاصة به ، بينما كان يعمل ذهنه في وسيلة يدخل بها الموضوع .

لكن الأمور مالبثت أن انحلت من تلقاء نفسها !

* * *

رفع الأفندي عينيه وطاف بهما على الوجه الدميم ، دون أن يرد تحية المرأة . . ولم تكن خدوج تكترث لهذا كثيراً ، فليفعل ما يريد . . ولكن . . ليترك حصتها في الأرض !

كان الرجال قد خف توترهم بعد دخول لطيف . . حتى لقد ظنوا أن الأمر سيحل بين الأفندي وتلميذه سراً ! ! ولكن ما إن دخلت خدوج حتى تأهب كل عصب في أجساد الرجال بانتظار أقوال المرأة الخائفة على أتعابها :

ـ يا أفندي هل تسمح لي بكلمة ؟

ـ هاه ! جئت يا خدوج ؟ نعم ؟ ؟

ـ صحيح يا أفندي انك بعت الأرض ؟

تطلع إليها بسخرية ! وداخله شعور بالخزي . . أهذه المرأة جاءت لتحاسبه ؟ ولكن . . . من الحكمة ألا يكلف نفسه عناء الرد عليها .

تناول كأسه ورشف شيئاً منها ثم التفت إلى محسن السلوم متظاهراً بالمرح :

ـ ها . . ألم تنته من كأسك بعد ؟ يا حيف . .

ـ يا أفندي أنا لا أفهم أصول الشرب ! أنا افهم في مسائل أخرى . . .

قهقه الأفندي متظاهراً بالسعادة لنكتة محسن السلوم الخبيثة . . ولكن صوت خدوج جاء حاداً وغاضباً تقريباً . .

ـ لم تقل لي يا أفندي ؟ !

وتوقف الأفندي في منتصف ضحكه ، وران الصمت على الجميع ، وطاف ببصره عليها للحظات ثم قال بصوت غاضب :

ـ خدوج ! ! الزمي أدبك ! ! هل جئت تحاسبيني يا خدوج ؟ حلوة والله . . لم يبق غيرها . عيب يا خدوج ! !

ـ يا أفندي أرجوك . . أستغفر الله . . أنا لا أحاسبك ياسيدي ولكن . .

يعني . . أريد يا أفندي أن أطمئن إلى أنك لم تنس أننا شركاء مغارسة في أرض « الوقف »

ـ أهذا وقت السؤال ؟

ـ يا أفندي . . نحن تعبنا نريد أن نطمئن .

ـ حقوقكم محفوظة يا خدوج ! !

الكلمات واضحة ، ولكن خدوج لن تعيد التجربة الأولى . . إنها لن تقبل بالكلام وحده ولابد من سند ، وقال لطيف التامر :

ـ نحن لانشك في طيبك يا أفندي . . ولكن الحقوق مطلوب حفظها . . الدنيا فيها موت وحياة !

ـ قلت حقوقكم محفوظة ياناس . . ألم تسمعوا ؟

وتقدمت خدوج إلى أمام :

ـ ولكن يا أفندي أنا أريد ورقة من يدك . . أنت تعرف أبا سلطان . . أنت كنت لنا مثل الأب . . إنما ذلك الرجل . . ! من يدري يا أفندي ؟

ـ الزمي أدبك يا خدوج ! قلت ان حقوقكم محفوظة ! !

وسأل لطيف التامر :

ـ ولكن يا عاصي أفندي . . هل ذكرتمونا صراحة في سندات البيع .

ـ لا يا لطيف ! وما الداعي إلى ذلك ؟

ـ الداعي . . الداعي . . يا أفندي كيف لاتعرف ؟ اذا كنا نثق بك فهذا لايعني أننا نثق بذلك الرجل .

ـ ها . . بسيطة ! إذا كانت المسألة مسألة ثقة فأبو سلطان رجل محترم . .

ولكن خدوج لم تقنعها هذه الكلمات المرتبة فقالت :

ـ أنا لايهمني أبو سلطان ولا غيره . . أنا أريد ورقة من يدك بأتعابي ولا شيء غيرها .

ـ خدوج ! ! أنت خربت علي مجلسي . . . قلت لك الزمي أدبك . . أف ! !

ـ يا أفندي أنا أيضاً مثل خدوج أريد ورقة من يدك . . ولاشيء غيرها ، واعذرني يا أفندي ، فالدنيا فيها موت وحياة ، ومن حق المرء أن يضمن أتعابه . .

تأمل عاصي وجه لطيف ملياً . كان يشيع منه تصميم غريب أقرب إلى التحدي . . والأفندي يعرف أنه قد باع دون استثناءات . . حسناً . . القانون في جانبه ، فليس معهم مستندات . . وهو قد باع ! ! فإذا صدقوا أنهم مغارسون ، فهذه مشكلة تحتاج إلى حل ، ولابد أنها ستسبب له وجع رأس كبيراً . . انه بحاجة إلى وقت للتفكير في الأمر . عليه الآن أن ينهي كل هذه النقاشات وأن يستعيد اعتباره . . نعم هذا مايجب فعله ! ! رشف جرعة من كأسه وتأمل وجه لطيف ثانية ثم قال :

ـ غداً اذهب أنت وأبو حامد والبقية إلى بيتي ، وستعودون مسرورين . . أما الآن فأمره امر آخر . . هاه ؟

ضربه على كتفه مداعباً ، وسألت خدوج لتطمئن :

ـ غداً يا أفندي ؟

وحدجها الأفندي بنظرة غاضبة . . وقال الرجال :

ـ غداً . . ألا تسمعين ؟

وعقب راشد :

ـ حقك محفوظ فلماذا الكلام الفاضي ؟

حين خرجت خدوج تنفس الأفندي بارتياح ، غير انه لم يكن الا ارتياحاً مؤقتاً ، فقد داهمه شعور بالحرج والزراية أمام الرجال . . شعور أشبه بالاحساس بالعري بين جمع من الناس ، وعليه أن يستتر ، فبدأ الهجوم :

ـ لم أكن أظن أنكم ستتنكرون لي هكذا بسرعة ! ياساتر . . أحسنت ظني فيكم فانظروا بماذا تكافئونني ؟ مع ذلك فعمكم عاصي لم يمت دفعة واحدة كما تخيلتم . . عمكم عاصي لم يبع ارضه عن ضيق أبداً . . عمكم عاصي باع لأنه لايستطيع الاشراف على كل أملاكه ولأنه يريد أن يعاقب أبناءه الذي عقوه مثلكم تماماً . . عاصي أفندي مايزال هو ، هو . . ولكن قلة عقولكم وسوء نيتكم جعلتكم تفكرون أن الأفندي لم يعد يصلح لشيء . . ولم يعد قادراً على افادة أحد . . طيب ! ! على كل حال أنا أعرف من زمان أن الناس الفاضلين الأوفياء قد ولوا . .

واستولى على الرجال خجل كبير . . كيف سمحوا لهذه المرأة الثرثارة أن تمس كرامة الأفندي ؟

نعم لقد كانت غلطتهم ! وخرج بعضهم متسللاً ، وبادر راشد إلى القول كالمعتذر :

ـ كلامك ذهب يا افندي ! ! جواهر ! ! ولكن يجب الا تنصت لحديث امرأة . . .

غير أن لطيف التامر لم يعجبه هذا التملق الواضح فقال لراشد :

ـ وماذا قالت المرأة ؟ ولماذا نلومها ؟ ؟ انها لم تطلب شيئاً حراماً . . لقد طلبت حقها . . وأنا أقول لكم جميعاً أن أحداً لايقدر عاصي أفندي أكثر مني . انما . . هل يعني هذا الا أطلب منه أن يحفظ لي اتعابي ، لاسيما وهو يسلم الأرض إلى رجل مثل أبي سلطان ، قرشه حرام ودمه نفسه حرام ؟ ؟

تأمل عاصي وجه لطيف للمرة الثالثة ، كان واضحاً أنه اذا استمرا في المناقشة فسيجر إلى معركة هو في غنى عنها ، وما لبث أن اتخذ وضعه الأبوي القديم ومد يده إلى كتف لطيف وشعره . . ثم قال :

ـ أنا أسامحك يا لطيف ! فأنت ماتزال شاباً لم يعركك الدهر . . اني أسامحك على قلة ثقتك بي أنا الذي جعلتك أهلاً للجلوس بين الرجال . . أسامحك كما أسامح ابنا لي . . اهدأ . . اهدأ . . وظن خيراً بعمك عاصي . . ولاتجعلني أقول شيئاً أكثر من هذا . .

فعلت هذه الكلمات فعلها في نفس لطيف فاطرق . . وخشي محسن السلوم أن يغضب الأفندي فيذهب قبل أن يظهر شيئاً من براعته في المقامرة هذا اليوم . . فتناول الورق الجديد المطروح ، وبدأ يخرج الأوراق العليا منه قائلاً :

ـ الكل أبناؤك يا أفندي ، ولحم أكتافنا من خيرك . . أنت حكيم يا افندي ونحن جاهلون فلا تؤاخذنا . . وكل ما أرجوه منك يا افندي أن تعلمني تلك اللعبة التي أسميتها . . ما اسمها يا محسن . . ؟ بكرة . . بكرة ! !

وصحح عاصي أفندي بفتور :

ـ باكاراه . . با . . كا . . راه . .

ـ اعذرني يا أفندي . هذا اسم افرنجي ، في الحقيقة هناك شيئان لم استطع

ذات يوم أن أفهمها . . هذه الأسماء الافرنجية ، واختفاء عيني راشد العلي عند الضحك . انظر يا أفندي انظر ! !

وجد الأفندي نفسه يبتسم ، ثم يضحك وهو يتأمل وجه راشد الذي كان غارقاً في الضحك ، الله وحده يعلم لماذا ؟ ومع ابتسامة عاصي انجلت غيمة كبيرة من الجو المكفهر . . وصاح الرجل الكبير :

ـ قاتلك الله ما أخف دمك !

ـ الواقع يا أفندي أنا نسيت شيئاً ثالثاً لا أفهمه . . واظن أنني اذا ظللت اكتشف مالاأفهمه عرفت أخيراً انني لا أفهم شيئاً ! ! أي ياسيدي الواقع انني لا أفهم سر حنكتك العظيمة في لعبة البوكر هذه . . حين يكون ورقي أعلى من ورقك تجعلني أنهزم مثل فأرة مذعورة . . وحين يكون ورقك أعلى ، تستدرجني فأقع مثل وقوع الذبان في اللبن ! !

وضحك الأفندي بسعادة حقة . انه يميل ميلاً شديداً إلى الإطراء وينتفخ زهواً وتباهياً . . وعبر ضحكته الكبيرة قال لمحسن السعيد :

ـ ومع ذلك فأنت تربح مني ! !

ـ يا افندي هذا ليس شيئاً ! أنت لا تلاعبنا للربح . . أنا أعرف ذلك . . أنت تلاعبنا للتسلية فقط . . واظن أنك ترفض أن تضع نقودنا التافهة في جيبك . . واظن ايضاً انك تتركنا نربح منك في نهاية السهرة وأنت سعيد . صدقني . أحياناً كان قلبي يقول لي : يا محسن لو لم يعطك الأفندي هذه الدراهم باسم اللعب ، لأعطاها غداً لابنك الصغير ، لأن الأفندي مفطور على محبة الناس والإحسان إليهم . . أنا والله يا أفندي لا اقولها مجاملة ، وانما عن يقين . . عن يقين يا أفندي ! !

وطرب الأفندي طرباً عظيماً في داخله ، وأنصت الرجال لهذا الفخ الرهيب دون أن يدركوا مغزاه ، ولكن لطيف التامر وحده ، ابتسم مشيراً إلى أنه فهم ، بل لقد بادر إلى غمز محسن بطرف عينه . . وأظهر الأفندي التواضع والزهد فقال :

ـ يا ابني الحياة خيال . . والمال والرزق والناس وغيره . . كله زائل . . زائل ! الأغبياء وحدهم يتعلقون بالدنيا . . هه انظر عمك عاصي . . أمس . . أمس فقط كنت شاباً يفتن الأميرات . . أميرات اسطمبول وحسناوات الفرنساوي !

واليوم . . انظر هذا البياض . . !

ومد يده إلى جانب رأسه فلامس شعره ساحبا كفه فوقه ، وتابع :

ـ كله زائل ياحسن . . كله ! الاصل الاخلاص والمحبة . . عمك عاصي لايبيع صديقه بمال العالم جميعه ! !

قال ذلك والتفت إلى لطيف التامر ، وكان هذا يستمع مطرقاً . . فتأمله قليلاً ثم تناول كأسه فشرب ، وأخرج ساعته من جيبه فنظر فيها ثم قال

ـ بقيت ساعة للمغيب ! ولكن أين هذا اللعين سرحان ؟ هل سأذهب قبل أن اراه ؟

رفع لطيف رأسه وقال :

ـ لا يا أفندي لن تذهب . أنت اليوم معزوم عندي على العشاء .

ـ لا استطيع ! أجلها ! ! انني أشعر بضيق في الليل مالم يكن زهوان الى جانبي . .

صاح محسن السلوم :

ـ ياافندي ، أنا أرافقك إلى آخر الأرض وأحميك من كل شيء !

ـ صحيح انك لاتفهم شيئاً يا محسن السلوم ! أتظن أن عمك عاصي يخاف ؟ عاصي يا أبني يخاف منه الأسود في أوكارها . . نعم في أوكارها . . .

توقف قليلاً كأنما يشك في أن الكلمة : « أوكارها » غير مناسبة ، ولكنه فكر في أنه أمام مجموعة من الحمير لايفقهون شيئاً . . .

ـ عمك عاصي لم يخف من شيء في حياته . . خاض حروباً وأهوالاً وقطع براري وقفاراً يا محسن السلوم ! هه . . قال يحميني قال ! ! يابلعوص أنا قلت أشعر بضيق في غياب زهوان . . ضيق يعني أن حكايات زهوان المسكين تسليني وتضحكني . . وتمتعني . . هل فهمت الآن ؟ ؟

ـ سامحني يا أفندي فأنا لم أقصد ماقلته . . أنا غشيم لا أحسن التعبير . .

وصاح راشد :

ـ ولكن أين زهوان يا أفندي ؟

ـ أنتم لم تسمعوا إذن ؟ لقد أرسلت له أم سنا مكتوباً . . هاهاها . . مسكين زهوان ! !

ـ نعم يافندي ! لقد جاء أمس وأخبرنا بكل شيء وأرانا صورة سنا . . كان مضطرباً جداً ، لايعرف كيف يفعل ، ولم يبق أكثر من دقائق . . قال لنا ، على كل حال أنا لم أصدقه في هذه . . ان أم سنا بعثت له خمسين ليرة .

ـ صحيح . والآن ذهب إلى الشام آملاً في أن يعيدها .

علق محسن السلوم :

ـ مسكين زهوان ! ! لو كنت مكانه لجررتها من أذنيها كالكلبة . .

قال راشد :

ـ لن تأتي معه ! انها أكثر ذكاء من أن توافق على العودة .

لكن الأفندي لم يعجبه هذا ، فقال موجهاً حديثه إلى راشد :

ـ بل ستعود مثل الكلبة ! لقد وجدت نفسي أخيراً مضطراً للتدخل في الموضوع . . وقد أعطيته رسالة لأحد أصدقائي . . قاض كبير في دمشق . . فإذا لم تعد معه بالتي هي أحسن . . أعطاه الرسالة ، وهو يتكفل بالباقي . .

قال ذلك ودار بعينيه في الوجوه القليلة التي بقي أصحابها في الدكان . . كانو ينظرون إليه عارفين أن قوله ليس أكثر من كذبة على « قد المقام » مما عودهم عليه . . وردد بعضهم :

ـ مسكين زهوان . . يستأهل . .

ولاحظ من جانبه عدم التصديق في قسماتهم . . وكان في الحقيقة قد تخيل ذلك تخيلاً . . ولم يكن يعرف أحداً في دمشق منذ سنين بعيدة ، وخشي أن يسأله واحد منهم سؤالاً آخر حول الموضوع ، ولذلك بادر إلى تغييره قائلاً :

ـ مالنا وله الآن . . ليبحث لنا أحدكم عن سرحان ، فأنا أريد أن أراه قبل ان أذهب . .

ـ ولكن يا أفندي يجب أن تشرفني على العشاء . . سأذهب لاعداد مايلزم . .

وصاح راشد :

ـ وسنرافقك جميعاً لتسليتك . .

ـ والله يا أفندي اشتقنا إلى سهراتك الممتعة . . فلا تحرمنا أنسك اليوم ! !

قال محسن ذلك وهو يعلم أن الأفندي لايحتاج إلى أكثر منه ليبقى ! !

- ولكنني ان بقيت فلن أستطيع أن أظل وحيداً معك في البيت يا لطيف . . وأنت لاتستطيع أن تحتمل كل هؤلاء الثقلاء . . ها ها ها ، ثم انني متعود على جو الدكان والآخرون يفضلونه كما أظن . .

- طيب ! إذن يا أفندي سأحضر العشاء إلى هنا .

قال ذلك ونهض ، لكن الأفندي استوقفه قائلاً :

- ابعث أحدهم . . أنت قم أنت .

وأشار إلى شاب في عمر لطيف فنهض .

- اذهب الى بيت لطيف وعاون العجوز في اعداد العشاء . . ولابأس من التأخر فيه قليلاً . أما لطيف فسيبقى لنتسلى هنا . .

وخرج الشاب فتبعه لطيف وعاد بعد لحظات . . وقال الأفندي :

- ولكن سرحان . . أين سرحان ؟ أيختفي كل هذه المدة ولايذكرني ؟ عجيب ! !

وفجأة دخل سرحان ، وصرخ الأفندي مغتبطاً :

- ابن الحلال عند ذكره يبين ! ! أين كنت حتى الآن ؟

ولم يجب سرحان ، فقد دخلت امرأته خلفه . . وكان على وجهها شيء يشبه الحزن فقال عاصي مازحاً :

- هل جئت تحصين عليه أنفاسه ؟

- لا ياأفندي جئت أريحه مني وأرتاح منه .

- ماذا ؟ ها ها ها ها هل ستطلقينه ؟ ها ها ها . . .

ضحك الأفندي مرحاً ساخراً . وهم بأن يلقي عليها موعظة ، ولكن سرحان بادر إلى القول :

- والله يا أفندي القضية جد ! ! أنا إنسان ، وضعي كما تعرفه ولاحاجة للشرح . ثم إنني مسافر إلى بلد بعيد ، وقد أبقى سنين . . لا أدري ، قد أموت هناك ! على كل حال ، أنا لا أريد أن أتركها مربوطة بي بهذا الشكل . أنا عندي ضمير وشرف . . ولولا هذا ما عدت ! !

- أنا دائماً أقول : أنك رجل حقيقي . . رجل . . نعم ! ولكن . . .

- نعم . . نعم يا أفندي أعرف ماستقول . . انما هذه هي نيتي ، ولا أستطيع

التراجع عنها ، وأنا أشهدكم جميعاً على أنها حرة . . وعلى كل . . فهي ليست مسجلة في دوائر النفوس على أنها زوجتي وهذا يكسبني بعض الوقت الذي أنا في أمس الحاجة إليه . .

وعلقت المرأة ساخرة :

ـ نعم حتى لاتأكل الناس مشاريعك في غيبتك ! !

التفت إليها دون كلمة ، ثم عاد يقول :

ـ أشهدكم على أنني طلقتها وتركت لها البيت . . وأرض « البستان » ملكاً لها . . ولا علاقة لأحد بهما . .

قالت المرأة :

ـ أرض البستان سيحجزها أبو سلطان بديونه !

ـ لقد صفيت حسابي معه ! نعم . . الأفندي أنهى كل شيء . . . فاطمئني ! !

كان الرجال صامتين متعجبين من كل ذلك . . والتفت سرحان إليهم حزيناً بعض الشيء ودار بصره بينهم ثم قال :

ـ الواقع انني أرسلت لها مكتوباً بهذا المعنى ، ولكني خفت ألا يصدقها أحد . . وكان سفري سيتم اليوم لولا أنني قررت العودة فجأة . . فضميري لم يتحمل تركها هكذا . . .

ـ طيب . . اكتب لي « حجة » بالأرض والبيت وليشهد عليها الأفندي ولطيف ومحسن . . لئلا يطالبني أقرباؤك بهما . .

صرخ الأفندي قائلاً :

ـ هذا عدل . . هذا عدل ! ! هه . . هيا . . سأكتبها بيدي وأظن أن معي بعض الطوابع وأنها تكفي لذلك . . ابحثوا لي عن ورقة بيضاء . . . سأجعلها سند بيع . . هيا .

وتطوع راشد قائلاً :

ـ سأحضرها أنا . . هل تصح الكتابة على ورقة من دفاتر حامد ؟

ـ تصح ، مادمت سأضع الطوابع عليها . . . أسرع ولننته من هذا الأمر ! !

* * *

حين تناولت المرأة الورقة ، سيطرت عليها نوبة بكاء مفاجئة . . حاولت كبتها . . دست الورقة في عبها وهمت أن تقول شيئاً ،ورفع الرجال رؤوسهم نحوها . . لكن نشيجها علا فجأة . . . فاسندت رأسها إلى الباب وبكت بكاء حاراً صامتاً . . . كان شعور من الحب المقتول يتحرك في أعماقها هائجاً مثل عاصفة . . .ثم لم يلبث أن هدأ . . فمسحت دموعها بكمها مثل طفل صغير . .

وصرخ الأفندي زاعقاً :

ـ سرحان ! سرحان ! !

كان سرحان قد انفلت خارجاً ، وجرى راشد متطلعاً إليه ولكنه لم ير له أثراً ، فأدرك أنه قد سلك طريقاً بين الأشجار القريبة . .

وخرجت المرأة دون أن تقول شيئاً .

كان من الواضح أن سهرة الأفندي قد أصبحت حزينة ومضجرة ، وتمنى أن يتخلص منها . . غير أن المطر هطل فجأة . . . دون أن يتوقعه أحد . ثم لم يتوقف حتى التاسعة .

ـ ٥ ـ

ربضت خدوج مثل هرة ، على الطرف الشمالي للموقد ، هادئة هدوءاً مكروباً .

كان الضوء الشاحب يلقي ظلالاً عميقة على تقاطيع وجهها المتجمع ويبرز بشكل حاد وجنتيها المتيبستين . . لم تكن قد نطقت بكلمة واحدة منذ اللحظة التي تركت فيها الأفندي باستثناء جملة صغيرة قذفتها في وجه زوجها الذي كان لايزال يتبسم ويتصنع المرح محاولاً أن يخرجها عن صمتها . .

ـ لقد خدعوني ! ! تفوه . . !

قالت له ذلك والمرارة تقطر من كل حرف قالته ، وبدا وجهها كأنما يوشك أن يتمزق تحت ثقل التشنجات العنيفة التي علته . .

وفاجأته الكلمات الحادة الغاضبة مفاجأة جعلته يرتعش ، انه لايفهم كيف يخطر في بالها مثل هذا الكلام ، وقد سمعت بأذنيها أنه سيكتب لهم سندات غداً . . نعم سيفعل فهو يعرفه حق المعرفة ، فالأفندي لايكذب ، وليس طماعاً إلى هذه الدرجة المشينة ، وهو على يقين من كل مايعرفه عنه ! نعم . . على يقين . .

وفي البدء لم يفهم سر هذا العضب المحتقن . . هذا التشاؤم الذي لايرى له موضعاً . . ثم عاد فظن أن ذلك لابد أن يكون عائداً إلى طبيعتها العصبية ، وأخلاقها التي لاتطيق الانتظار ولو يوماً واحداً . . ثم اعتقد أن عليه أن يزيل

مخاوفها . . أن يباسطها ويجعلها أكثر ثقة بالناس ، وأكثر احتراماً لهم .

ولذلك أخذ بين الحين والحين ، يطلق عبارات يسخر فيها ، من آرائها ومزاجها الذي تعكره أبسط التصورات . . ثم ما يلبث أن يضحك ضحكة مفتعلة وراء كل عبارة ، ضارباً بيده على كتف حامد كأنما يدعوه إلى مشاركته الضحك ، ولكن حامد ظل يتأمل أبويه بهدوء وصمت . . وقد انتابه شعوربأن عليه أن يفعل شيئاً ما . . أن يتحرك . . وشعر برغبة لاتقاوم ، في أن يعلن عن عزمه على القيام بعمل . . كان في داخله قوة خفية تصرخ به تهزه ، وترجّه . . ولكنه لم يدرك ما الذي يتوجب عليه أن يقوم به ، بينما ظلت هذه الرغبة تضنيه وتؤلمه دون أن يجد فرصة للبوح بها والتعبير عنها بشكل واضح ! فسكن ملتزماً الصمت مراقباً والديه الجالسين حوله ، منقلاً بصره بينهما . . ولكنه أوشك أن ينفجر مقهقهاً حين قال والده :

ـ قلت لك اتركي لي هذا الأمر ، انني أعرف كيف أحله . .

رفعت المرأة بصرها عن الجمر ، ونظرت طويلاً في وجه زوجها والتمعت عيناها التماعة ساخرة قاسية ، وارتجفت زاويتا فمها كأنما تكاد تبتسم هازئة . . وتلاقت نظرتها بنظرة الزوج الذي بدا وكأنه ينفش ريشه مثل ديك رومي ، فرأى نظرتها الملتهبة ، وسرعان ما انكمشت ملامحه وظهر عليه خذلان عميق فغض بصره قليلاً وقد داهمه ألم مفاجيء . . في هذه اللحظة بالذات كاد حامد ينفجر بالضحك ، ولكن أمه مالبثت هي الأخرى أن غضت بصرها محدقة من جديد في الجمرات الساكنة المتقدة . وعرف حامد أن ذلك اللمعان الساخر قد غطاه كمد وحزن . . وأن الوجه قد عاد إلى تجهمه ومرارته ، وسرت بين الجالسين حالة احساس ناعم بألم هادىء ، فسكت الجميع كل على طريقته : غارقين في أحلامهم الخاصة التي لاتريد أن تظهر نفسها قبل أن يحين الوقت الملائم . .

إن خدوج لاتستطيع أن تطرد تلك الصورة المضطربة لوجه الأفندي حين سألته أسئلتها في الدكان . ان لمحة معينة مر بها ذلك الوجه قد انطبعت في ذاكرة خدوج انطباعاً قوياً . ومع أنها عجزت تماماً عن تفسير الأمر ، إلا أنها في أعماقها لم ترتح لتلك اللمحة الخاطفة التي لم يلبث بعدها وجه الأفندي حتى استعاد حيويته وطبعه أو مايقرب من ذلك . انها ماتزال تحاكم هذا الانطباع الغريب ، وتستغرب

كيف لاتجد نفسها قادرة على تذكر ضحكته مثلاً أو شكل وجهه . . أو نظرته حين ادعى أن كلماتها تسيء إلى كرامته . يخيل إليها أن مايشبه الخوف قد علا الوجه في هذه الصورة التي لاتريد أن تبتعد . . حسناً . انه يكذب ! ! انما . . انما . . لماذا وعد بإنهاء كل شيء غداً ؟ ؟

حين تصل الى هذه النقطة تتوقف خائفة ثم تندفع في قرارة نفسها ريح مهتاجة . غير أنها تلجمها محدثة نفسها بأن على المرء أن يلحق بالكذاب إلى باب الدار ! ! ومادامت قد انتظرت عشر سنين فيمكن لها أن تنتظر يوماً آخر ! !

إن شعورها بأنها قد خدعت يثير في قلبها حقداً على الجميع من الأفندي إلى أبي حامد ، نعم . . نعم . . أبو حامد أيضاً شارك في خديعتها ألم يقل لها يومها : ان الأفندي كلامه حجة وسند ؟ ؟ ولكن لماذا تحقد عليه هو ؟ أهو راض حقاً بأن يأكلوا تعبه وعرق جبينه ! مستحيل . . ! ! مستحيل أن يكون راضياً ! إن قناعتها بهذا تجعلها غير قادرة على الحقد عليه . . انه مسكين . غشيم . . رجل لايفهم شيئاً من أمور الدنيا . . يظن الخير في كل شيء ، وفي كل الناس . . وهي من جانبها ظلت دائماً تقدس فيه هذا الجانب بقدر ما تحتقره . انه ساذج مثل طفل غبي . . ولهذا فهو يكاد يكون في نظرها بريئاً . غير أن هذه السذاجة الغبية هي بالذات مصدر مقتها وغضبها .

إنها تتمنى أن تراه حازماً يتصرف بوضوح ولو مرة واحدة على الأقل . . وها هو الآن تؤكل أتعابه أمام عينيه فلا يفعل شيئاً أكثر من العبث والسخرية منها . . نعم السخرية منها هي ، التي لولاها لأكلوه حياً ! !

كان هو من جهته يفكر في أنه مادام معه شركاء في المصيبة مثل لطيف التامر ، فلابد أن تحل الأمور لمصلحتهم تماماً . انه يؤاخذ نفسه على الإهمال الذي أبداه يوم طلبت خدوج سند مغارسة ، ولكن ثقته بلطيف التامر ثقة تكاد تكون مطلقة . . بل ان هذا الشاب ليكاد يصبح في نظره رجلاً لايفوقه الأفندي بالكثير من الأهمية . . ألم يقربه هو نفسه إليه تقريباً عجيباً ؟ ألم يكن يعلن في الدكان على مسمع من الجميع أنه لايطيب له لعب ولا شراب مالم يكن لطيف موجوداً قربه ؟ أهو يقربه هكذا لو لم ير فيه « شيئاً » مهماً ، شيئاً مدهشاً ؟ .

نعم لابد أن يكون الأمر كذلك ! وأن رجلاً مثل هذا الشاب لابد أن يحصل

على حقه ، ومادام سيحصل على حقه فإن جميع الذين هم في حالة تشبه حالته سيصلون إلى حقوقهم !

هذه هي الفكرة التي كانت تراوده دائماً . . وهي بالذات راودته حين قال جملته الأخيرة لزوجته . انه يتكيء على مجهود لطيف التامر اتكاء كلياً ، ولهذا فهو مطمئن تماماً . . وهو قادر على القول : ان في امكانه حل المشكلة . ولكن النظرة التي فاجأته بها زوجته كانت من القسوة لدرجة أن الابتسامة التي همّ برسمها على شفتيه وهو ينظر إليها قد اختفت قبل ظهورها ، وهبطت على قلبه كآبة وألم ، وأحساس مرير بالعجز وبالنقص أيضاً . . انه . . انه . . ليس قادراً مثل أولئك الرجال الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف مثل محسن السلوم ولطيف التامر . . و . . و . . راشد العلي . . نعم راشد العلي نفسه ! ! ولابد أن خدوج تفكر في هذا . . لابد ! !

تضاءل وهو يتخيل ذلك مطرقاً . . وتطلع إلى ولده دون قصد فرآه مكروباً ساكناً ، يقلب صفحة من كتاب ملقى بين يديه ويدخل قلم رصاص بين الصفحتين ويضغطه بأصابعه كأنما يريد أن يشق الكتاب إلى نصفين . . من الواضح أن الصبي تعذبه فكرة ما . . . نعم . . هذا واضح . .

عاد إلى اطراقه ، ولكنه مالبث أن سمع الصبي يقول :

ـ كل هذا من شيخ النحس . . شيخكم !

ـ اسكت يا حامد ! !

كذلك صرخت خدوج . . ولكن دون كبير استياء . . ورفع الأب رأسه قائلاً :

ـ لا . . هكذا ، لا . . انك تستهتر كثيراً يا حامد . . انتبه لنفسك .

ـ ولماذا أستهتر ؟ أليس هو المشتري ؟ نعم هو شريك ذلك الأبتر .

ـ وماذا فيها ؟ الرجل لم يسيء إلينا يا ولد

ـ يا أبي أنت لاترى الأشياء إلا كما يحلو لك !

كان من الواضح أن الأب سيعد هذا اهانة له ، وفكرت خدوج في أنه سيتخذه حجة ليفش كربته بحامد ، فبادرت تقول :

ـ من الواضح أنه شريك . . ولكنني لن أقول شيئاً حتى يتوضح الأمر . .

فإذا قبل أن يأكل أتعابي فسأريه نجوم الظهر .

ـ كفى خرافات يا امرأة . . عيب ! ! هل فقدت عقلك ؟ لماذا تريدين أن تسيئي إلى الشيخ حسين ؟

ولم تجب خدوج بل اكتفت بالتحديق إليه بنفس النظرة الهادئة الساخرة . وثبت الرجل ، لم يحول بصره عنها ، ولم يطرق إلى الأرض كما يفعل دائماً . . وفكر في نفسه « ان القضية قضية رجال ، وليس لخدوج حق في دس أنفها هنا ! » وتأوهت المرأة ثم حولت وجهها ، وتناول هو عوداً فراح يعبث بالجمرات المحمرة في الموقد ويجمعها بعضها فوق بعض ، بينما كان حامد يغلق كتابه ويتسلل واقفاً ثم يتجه إلى الباب ويتوقف . .

وسألت خدوج :

ـ أين تخرج يا حامد في هذا الليل ؟

ـ لن أخرج ! انها تمطر ! !

ـ تمطر ؟ هكذا فجأة تمطر ؟

ـ نعم اسمعي . . ألا تسمعين كيف يسقط على مزراب السطح ؟

وأنصت الأبوان للصوت الرتيب ، كان يقرع صفيح المزراب متوالياً قوياً . . ثم أخذت أصواته على السطح تصبح قوية مسموعة . وأحست خدوج ارتياحاً مفاجئاً . . ان المطر يملأ رأسها بذكريات بعيدة من ايام الطفولة والشباب الأول . . ذكريات بعيدة مهمة ، ولكنها كافية لاثارة النشوة في القلب . وهمست وهي تستسلم لرتابة الصوت الجميل :

ـ كيف هذا ؟ عند المغيب لم يكن في السماء غيوم تقريباً .

فقال أبو حامد :

ـ الملك لله ؟ صلي على النبي يا امرأة ! !

كان صوته قوياً واضحاً ، كأنما المطر انتصار له ! وهكذا اعتقد وهو يمتلىء ثقة ، عند ذكر اسم الله ، وهمست المرأة :

ـ اللهم صلي على النبي

والتمع برق بعيد ولكنه خاطف . ثم تلاه صوت رعد عميق .

ويصق حامد في الظلمة عبر الباب . كان ينوي أن يقوم بعمل صغير في هذا

الليل . . زيارة قصيرة لدرب الأموات ، ولكن هذا المطر أفسد كل شيء ! ! !

وحين جلس في مكانه مستمعاً إلى نقراته على السطح مغمضاً عينيه ، عبرت خياله صورة الشيخ حسين ، وهو يخرج من بيت عاصي أفندي ، صورة وحيدة تلازمه دائماً . . وبدأ قلبه يمتلىء شيئاً فشيئاً بحقد كبير . . « حسناً ، إلى الغد إذن أيها الشيخ ! » وتردد الصوت في داخله طويلاً . . انه لايعرف ماذا سيفعل . . ولكن لابد أن يزوره ذات يوم . . لابد ! !

٦

طلع الصباح وردياً منعشاً ، مغسولاً .

الريح نقّت السماء من الغيوم خلال الليل ، وترك المطر لذعة برد واخزة قليلاً . كان كل شيء يغري العصافير لتقترب من البيوت : الأرض الرطبة المتخمرة بالماء ، والمزابل القريبة على زوايا «الحواكير» المحروثة حتى أركان كل بيت ، والهدوء الصامت الذي يلف القرية في صباح بارد كهذا . .

وما إن التمعت الأطراف الشرقية للسماء مصطبغة بالحمرة الوهاجة التي تسبق الشمس حتى بدأ كل شيء يتغير ! !

الصمت يتمزق بثغاء الماعز والغنم وخوار العجول الصغيرة التي تتبع أمهاتها على طول الطريق الممتدة حتى المرعى البعيد . ولابد أن النسوة قد حلبن المواشي التي ولدت حديثاً دون أن يفتحن الأبواب ، وأن الرجال قد أضرموا النار في المواقد منذ الفجر المبكر .

وحين فتحت الأبواب كان الأولاد قد تناولوا افطارهم خبزاً وحليباً وتهيأوا للخروج إلى المرعى . ومع فتح الأبواب تدفقت الأصوات عالية ، متداخلة . . وتدفقت الحوافر الصغيرة والكبيرة ، تقرع حصا الطرقات وتضيف أصواتاً جديدة إلى الضجة الكبيرة . . إنها موسيقى الاستيقاظ تأتي دفعة واحدة كأنما كانت القرية على موعد .

ولقد طارت العصافير مبتعدة وهي تزقزق باحتجاج ، ثم ظهرت أولى خيوط الشمس غمازة ، متراقصة على أعالي الزيتون راسمة ظلالاً بعيدة غير محدودة ، ثم ظهر القرص الذهبي مستديراً وهاجاً ، وبدأت الأرض تصعد بخاراً ضئيلاً ينتشر ويتبدد عبر الدفء القادم من السماء . . وانقطع الضجيج الكبير ، ضجيج ساعة الخروج إلى المرعى ، ولم يعد هناك إلا أصوات واضحة محددة تعلو على همس النهار المتصل المنبعث ربما عن احتكاك الأشياء أو عن الحيوية المنتشرة في كل مكان بعد هدوء الليل العميق . .

أنهت خدوج أشغالها سريعاً . كنست البيت . ولمت الفرش من الأرض ، ثم أخرجت الحصيرتين الكبيرتين وفرشتهما على الحافة التي أمام البيت تاركة للهواء والشمس أن يخترقاهما . . وحمل حامد كتبه ودفاتره وأسرع إلى مدرسته ، ولم تنس خدوج أن تكرر على أبي حامد ضرورة وضع الروبة في الحليب حين يصبح فاتراً .

وحلق لطيف التامر ذقنه على المرآة الصغيرة . . المرآة المكسورة المثبتة في طين الحائط قرب الباب ، دون أن ينتبه إلى ماكانت العجوز تفعله . . لقد ساعد الراعي على أخذ الدواب من البيت . . وهذا هو ما عليه ! وسيساعده حين يعود إن كان موجوداً . . وفكر في نفسه : انه راع طيب ! ! ، كان شاباً صامتاً فيه غباء وسذاجة مفرطان وقد استقدمه عدد ممن ليس لهم أولاد يسرحون بدوابهم ، وقد أعطوه غرفة عتيقة وتبرع أحدهم بفراش ولحاف . . وكان الطعام يرسل اليه بالدور . . وكانت أجرته السنوية مئة وخمسين ليرة وثلاثة أثواب كاملة . . انه يبدو قانعا ! وكان هذا يغيظ لطيف التامر أولاً . . ثم ألف أن يرى هذه الرجولة الضائعة في مثل هذا العمل التافة ! ! ، واستغرقه التفكير في ذلك حتى جرح جرحاً صغيراً وسال دم على خده ، فلم يمسحه حتى تجمد . . وثبت عينيه على شاربيه وهو يسوي طرفيهما . .

لقد أبعد قضية اليوم عن ذهنه ، قضية اليوم التي تنتظر الحل . . سيتوقف عن كل الموضوع حتى يعودوا من زيارة الأفندي ، ويرى النتائج النهائية بعينيه . . وانه ليشك في أن عاصي أفندي سينفذ وعده ، انما يجب التريث ! !

كان يغسل وجهه حين دخلت خدوج فسلمت عليه وعلى العجوز ، وأسندت ظهرها إلى العمود الذي يحمل السقف الخشبي ، وبدأت تثرثر بصوت عالٍ مع أمه عن البيت والأشغال وما فعلته كل منهما ، وما تنتظر أن تفعله اليوم . . ومسح

لطيف وجهه بقميص أبيض عتيق ولم يدر بصره نحو خدوج . إن حديثها ممل ، حتى ليصعب على المرء ألا يكرهها ويكره حديثها . ورغم ضيقه بها فقد أحس بشيء من العطف نحوها ونحو زوجها . لقد عملا مثل الحمير طيلة سنين في سبيل تلك القطعة من الأرض ! ! وتذكر حامد وأيقن في نفسه أن للصبي مستقبلاً جيداً ، فهو يقرأ ويكتب بأفضل مما يفعله كل رجال المنطقة . . ولا عجب في أن يصبح أستاذ مدرسة تقريباً ، وصاحب معاش ! ! نعم ربما أصبح كذلك . . وداخله شيء من الاحترام وكثير من المحبة للصبي ، فقد كان يطمئن إليه دائماً ، ويحدثه في أمور بسيطة ، فكان يبدي حيوية وفهماً جديرين برجل لابصبي في الرابعة عشرة ! !

وقالت خدوج أخيراً :

ـ متى نذهب يا لطيف ؟ هل سننتظر كثيراً ؟ أظن أن من الأفضل أن نذهب باكراً قبل أن يهرب الأفندي . أنا ، والله ، قلبي غير مطمئن من جهته .

ولم تنتظر جوابه ، بل توجهت بالحديث إلى العجوز قائلة :

ـ والله يا أم ابراهيم علاقة وسخة ! رجل لاذمة له ولا ضمير . والله لولا لطيف لنتفت شواربه أمس ! ولكن اليوم إذا لم يكن عند قوله . . فسوف . .

قال لطيف مقاطعاً :

ـ أنت تظلمين الرجل يا أم حامد ! لماذا تقولين في حقه أشياء غير لائقة قبل أن تتبيني الأمر ، وتتأكدي من أنه أكل حقك ؟ لا ياأم حامد لا . . هذا عيب ! ! أنا لا أدافع عنه . . ولكن لايليق أن نتهمه بشيء قبل أن نرى أنه كذب معنا . . وعلى كل حال « نحن ست مغارسين ، وسنرى ما إذا كان سيقدر على أكل حقوقنا أم لا » .

ـ ومن الذي يمنعه يا لطيف ؟ لاسندات معنا ولا أوراق . . هه ؟

ـ يا عمي هناك حكومة ! لم يعد الأمر كما كان أيام فرنسا . . أصبح لدينا الآن دولة تحمي أصحاب الحقوق . .

ـ طيب سنرى . . بقي وقت قصير لنراه . . قل متى ستذهبون ؟

فكر لطيف قليلاً ، ومسح بيده على الجرح في وجهه ، ثم نظر فيها ليرى ماإذا كان هناك دم من جديد . وبدت على أصابعه آثار باهتة فأعاد لمس الجرح ثم تأمل خدوج وقال :

ـ أنا أرى أن ترسلي زوجك معنا .
ـ لا . . لن يذهب أحد غيري . . أبو حامد لايفهم في هذه الأمور .
ـ عيب يا أم حامد ! لاتقولي هكذا عن زوجك .
ـ لاعيب ولا غيره . هذه هي الحقيقة !
صمت لحظة ، ثم عاد يتأمل سحنتها المتوترة المنفعلة ، وقال :
ـ أم حامد . لن يسمح لك الأفندي بدخول بيته على ما أظن . . انه يعتقد أنك قد أهنته البارحة .
وصرخت أم حامد بصوت مقلوب كأنها تنوي المعاركة :
ـ وكيف لايسمح لي اليوم ؟ لماذا كان يسمح لي عندما كنت أحمل له الحطب على رأسي من هذه القرية . . أحمل له حملاً لايحمله بغل . . عشر مرات في السنة و أكثر ؟ لماذا كان يسمح لي عندما كنت أحمل له قدور اللبن عشرين مرة في السنة ؟ لماذا كان يسمح لي عندما كنت آخذ له الفراريج والسمن . . وغيره ؟ هاه ؟ ؟ قل لي ! الآن لأني أطالب بحقي لايجوز لي الدخول إلى بيته ؟ ؟ لماذا خدمته كالأجيرة عنده كل هذه السنين إذاً ؟ قل لي . . قل لي أنت . .
ـ يا أم حامد أنا أقول هذا من عندي . ولا أعرف ان كان له هو رأي آخر . . المهم أنا أرى أن من الأفضل أن ترسلي أبا حامد . .
ـ هل تخاف أن أتكلم معه كلاماً جارحاً ؟
ـ لا . . ولكن أبا حامد هو الرجل في البيت ولست أنت !
ـ أبو حامد على رأسي . . أبو حامد روحي وعيني . . لاتظن أني لا أحب أبا حامد ! أبو حامد درويش . . بريء مثل الولد الصغير ، ولهذا أريد أن أكون أنا في هذه المعركة لاهو ! ! أنا فقيرة يا لطيف . . فقيرة . . وتعبت في سبيل هذه الأرض كثيراً . . .
ـ يا أم حامد ليس هناك أية معركة ! الرجل قال إنه سيكتب لكل منا « حجة » بملكيته .
ولم تتركه يكمل بل هزت رأسها كأنما تسخر من قوله ثم صرخت :
ـ لاتكن « غشيماً » يا لطيف ـ لاتواخذني بهذه الكلمة ياعين خالتك ـ أنا قلبي دليلي ولايخدعني . لن يكتب لنا الأفندي سواداً على بياض .

ـ طيب يا أم حامد . . لنفرض هذا ! ! في كل الأحوال يجب أن يكون أبو حامد هو المدافع عن الحق لا أنت ! ! الناس لاتعرفك . . والأفندي لايتعرف عليك . . والدولة نفسها لن تتعرف إلا على أبي حامد . . فلا تكوني عنيدة . . أبو حامد هو الرجل ! !

وتأملته خدوج وهو يقول هذه الكلمات . كان صوته حازماً قاسياً ، وفكرت بأن عليها ألا تظهر كل هذا الغضب من الأفندي بدون سبب . وأنها لاتريد إلا حقها . . وعليها أن تكون لينة مادام اللين يمكن أن يفيد ، وأنها ستجد فرصة لتسب حين تلزم المسبات ! ! . . وأخيراً وجدت أن من الحكمة ألا تخالف لطيف التامر كثيراً ، فعلى صلابته ، ورأيه ، تعلق أكبر آمالها . ومادام هو إلى جانب زوجها ، فستكون مطمئنة إلى أن الأفندي لن يستطيع أن يسلبه حقوقه .

وتطلعت إليه ثم تحركت بقلق ثم قالت :

ـ أهذا هو رأيك ؟

ـ نعم هذا هو رأيي ! وارجو أن تذهبي الآن وترسلي لي أبا حامد .

وهمت خدوج بالخروج وهي تقول :

ـ طيب . . سأفعل ! ولكن إياكم أن تدعوه يخدعكم .

وهمّ هو أن يقول لها شيئاً ولكن صوتاً في الخارج ناداه :

ـ لطيف . . يالطيف !

كان صوت أخيه ابراهيم .

ـ ماذا تريد يا ابراهيم ؟

ـ تعال انظر ! وأسرع ! !

ـ ماذا هناك . . .

خرجت خدوج قبله وخرج هو ، وكان الاثنان في عجلة . وقال ابراهيم وهو يشير ناحية بيت أبي حامد :

ـ انظر !

كان هناك أربعة من الدرك ينزلون عن خيولهم . وكان الأمر مثيراً حقاً ، فالقرية لم تعتد على رؤية الدرك إلا نادراً ، ولم يكن عددهم قبل الآن يزيد على اثنين

كما لم يكن أحد منهم يتوقف فيها تقريباً . وتبادل الأخوان النظرات ثم أسرعا إلى المكان . . . تسبقهم أم حامد مستعجلة وقد داهمها خوف كبير .

وتجمع الرجال أمام بيت أبي حامد ، أمسك بعضهم بأعنة الخيول ثم ربطوها إلى الجدران وشجرات التوت هنا وهناك . . وقال أبو حامد للدرك :

ـ تفضلوا شرفوا محلكم !

فنظر إليه دركي يضع نجمة على ساعده ، نظرة اشمئزاز ولم يجب . وتشاغل الدرك الآخرون بالتنقل أمام البيت أو التطلع إلى بعيد ، واعتلى الدركي ذو النجمة صخرة موجودة على الزاوية ، فبدا بجزمته الطويلة وصف « الخرطوش » في وسطه وعلى عاتقه مثل الديك الرومي . ونكش الأرض بعصا صغيرة من الخيزران ثم قال :

ـ لمن هذا البيت ؟

فتقدمت خدوج قائلة :

ـ لي أنا ؟

ـ ما أسمك أنت ؟

ـ أم حامد ، خدوج !

ـ ها ! !

برقت عينا الرجل بغضب مفتعل وصرخ بها :

ـ ولماذا كل هذه الأوساخ ؟ لماذا تتراكم الأوساخ أمام بيتك هكذا ؟

ـ أوساخ ؟ لقد كنست اليوم ياسيدي . . ثم لا توجد أوساخ . . هذا وحل . . لاتوجد اية أوساخ ! !

ـ كذابة حقيرة ! أنا أكذب إذن ؟ ! قولي لي هل أكذب أنا يا فاجرة ؟ . . يا عريف جادو . .

قفز العريف جادو حتى صار أمام الدركي ذي النجمة وهتف :

ـ حاضر سيدي الوكيل .

ـ ضبط أوساخ ! ألا ترون ؟ طبقوا القانون بحذافيره .

ـ أمرك سيدي الوكيل .

عندئذ تقدم لطيف التامر قائلاً :

ـ يا سيادة الوكيل . . نحن فلاحون وعيشة الفلاحين هكذا ! لابد من وجود بعض الأوساخ . . زبل الدواب . . وحل الأرض . . بقايا علف الدواب . . عيشة فلاحين ياسيدي . . عيشة فلاحين !

تطلع الوكيل إليه مندهشاً وغاضباً من هذه الجرأة وقال له :

ـ ماشاء الله ، رجل فهيم ! ! ألا تعلم ياحمار أن هذا يضر بالصحة العامة ؟ . . هذا الوسخ يا جحش ؟ ! الدولة تريد أن ترفعكم من الوسخ وأنتم ترفضون . أنا هنا أنفذ القانون . . فهمت يا حمار ؟ !

احمرت عينا لطيف التامر من الغيظ وارتجف فمه ، وفكر في نفسه أنه لن يبلع هذه الإهانة أمام القرية كلها ، وليكن ما يكون . . فاقترب أكثر من الرجل ذي النجمة وهو يهمس همساً تقريباً :

ـ أنا اسمي لطيف التامر . . واست حماراً ، وليكن هذا في علمك ياسيدي !

ولم يلبث الوكيل أن انهال بالخيزرانة على لطيف وهو يقول :

ـ لطيف التامر ؟ سترى إذن أيها الكلب !

غلى دم لطيف من الغضب فتناول الخيزرانة من قبضة الرجل وكسرها ثلاث قطع وقذفها في وجهه فاصابت صدره ، عندئذ اندفع الآخر بقبضته على ظهر لطيف ووجهه ، فرفسه لطيف رفسة ألقته بعيداً . . حدث كل هذا في لمحة تقريباً ، وكان رجال القرية مدهوشين مما يحدث . . ولم ينتبه رجال الدرك تماماً ، حتى كان قائدهم قد وقع ، وعندئذ اندفع اثنان منهم نحو لطيف بينما أخذ الآخر يجمع الأوراق بعجلة ويضعها في الخرج الجلدي الخاص بها . وقبل أن ينتهي كان رفاقه الثلاثة يشتبكون مع رجال القرية في معركة حقيقية بالأيدي ، ونظر فإذا هم قد وقعوا على الأرض وطوقهم عدد كبير من الرجال ، كان من الواضح أنهم فقدوا ادراكهم فلا يعرفون ما يفعلون ! !

ورأى أنه ان ساهم في هذه المعركة فسيزيد الأمر سوءاً ، فما كان منه إلا أن هيأ سلاحه وأطلق رصاصة في الهواء ، وصرخ بأهل القرية الذين تراجعوا سريعاً :

ـ سأطلق النار على كل من يحاول الهرب !

كان صوت الرصاص حازماً ومخيفاً ، وجمد الرجال في أماكنهم ، ونهض الدرك الآخرون .

كانت ثيابهم ملطخة بالوحل ، وسرعان ما وقفوا بمواجهة أهل القرية وقد هيؤوا بنادقهم وصوبوها نحوهم . . قال الوكيل :

ـ على الجميع الدخول إلى هذا البيت ، ولايحاول أحد الهرب ، فيكون ذلك آخرته ! !

ولم يتحرك أحد :

ـ هيا . . كلاب ! تظنون أنكم تعصون على الدولة هاه ؟ هيا . . وسأرى بطولتك قريباً أيها الكلب . . هيا الآن ! !

تحركوا بصمت ثم دخلوا بيت أبي حامد . . كان للبيت باب واطىء وشباك صغير الى جواره ! وتفقده الوكيل جيداً ، ليتأكد من أنه ليس له منفذ آخر . بينما تهيأت جماعته قرب الباب . وحين انتهى من ذلك أشار إلى محسن السلوم أن يخرج من بين الرجال ففعل ، وقال الوكيل :

ـ سأريكم أقداركم أيها الكلاب ! ! والله لأجرنكم بذيل حصاني إلى السراي ! . سأخرب بيوتكم . . تظنون الدنيا فوضى وتعتدون على رجال الأمن . . آ . . ؟ ! يا دركي نبهان . . ! !

رد الدركي الذي أنقذ الجماعة قائلاً :

ـ نعم سيدي الوكيل !

ـ قف على الباب . كل من يتحرك حركة مريبة أطلق عليه النار .

قال له ذلك وغمز بعينه خفية ، فقال نبهان :

ـ حاضر سيدي !

ـ أما نحن . . فسنضبط مخالفات القرية . . الأقذار . . وأكداس الحطب التي يقطعونها من أملاك الدولة . . وحين ننتهي فسأقود هؤلاء الكلاب إلى السجن ! !

كان أبو محمود يسمع هذه التهديدات وهو جالس على الأرض ، غير قادر على الوقوف لعجزه وخوفه . . وهو في الحقيقة لم يشارك في « المعركة » رغم أنه غضب كما غضب لطيف التامر وغيره . . ولكن . . الآن ذهبت السكرة وجاءت الفكرة

كما يقول المثل ! ضبط بالحطب ؟ ضبط بالأوساخ ؟ ! هذا يعني خراب البيوت . . نعم خراب البيوت ! ! يجب أن يعمل الرجال على إيقاف هذا . . يجب أن يـترضوا الدرك بأي ثمن . . يجب ذلك ! ومن المؤكد أن أهل القرية قد تجاوزوا أقدارهم ، فأية قرية سبق لها أن تجرأت ورمت « ابن حكومة » في الوحل ؟ ؟ لسوف يخربونها . . نعم . . نعم . . .

ـ سيدي الوكيل . . ارحمنا . . نحن غلطنا بحقكم . . سامحونا . . لاتخربوا بيوتنا ، وسوف تكونوا راضين منا . . .

وسرت الهمهمة بين الرجال ، وصرخ الوكيل :

ـ كلاب . . هس ! انظر أيها العجوز . . لقد لوثتم شرف هذه « البذلة » . . أنا ابن حكومة وستعرف الحكومة كيف تثأر لشرفها ، والله لسوف أجعلكم عبرة لكل من يعتبر . . يا كلاب ! ! عريف جادو . . ادفع أمامك هذا البهيمة . .

ودفع جادو محسن السلوم أمامه وخرج الوكيل والدركي الآخر . . وقال أبو محمود للدركي نبهان :

ـ والله يا سيدي أنتم تظلموننا . . نحن نقطع الحراج من أرضنا . . نحن لانعرف كيف تكبر الزيتونة إذا لم ندفع عنها شجرة السنديان أو شجرة البلوط . . ومع ذلك فنحن لانلمس الأشجار الكبيرة لمساً . . نحن فقط نقلع الشجيرات الصغيرة . . فلا تظلمونا . . .

أنتم ظلمتم أنفسكم ! فلو كان في رؤوسكم عقول لما فعلتم الذي فعلتموه .

وأطرق الرجال جميعاً وقد أدركوا أنهم وقعوا في بلية ، وأن الله وحده هو القادر على انقاذهم .

وتابع الدركي قوله :

ـ ألا تعرفون أن قانون الحراج واسع وأننا نستطيع كتابة ضبط بالأعشاب اليابسة ؟ على كلّ هذا بسيط . . فلو لم تكونوا مجانين لما تجرأتم على ضرب سيادة الوكيل . . فهذا العمل وحده يكفي لقطع أياديكم ! ! ! مجانين . . ولابد أن تلين نفوسكم اليوم في « الفلق » قبل إلقائكم في السجن . . أما أنت . . فاستعد لما يرضيك .

قال ذلك وأشار إلى لطيف التاجر . . الذي تأمله قليلاً ثم أجاب بصوت خافت :

ـ لم أفعل أكثر من الدفاع عن كرامتي ، وأنت رأيت أنه ضربني اولاً ، وأهانني . . ولو كنت أنت مكاني لم تسكت على ذلك . . .

ونظر إليه الدركي وغمزه خلسة وقال :

ـ لو كنت مكانك لهربت . . ولكن . . إياك أن تحاول هذا معي . . فأنا لست الوكيل . . إنني قادر على كسر رقبتك بضربة واحدة . .

وعاد يغمز بعينه ثانية . . فأطرق لطيف مفكراً ، كان للرجل فعلاً جسد عملاق . ولكن في حديثه دعوة واضحة إلى الهرب فلماذا تراه يفعل ذلك ؟ من المؤكد أنهم في السراي سيجلدونه جلداً لارحمة فيه . . وربما كانت لديهم وسائل للإهانة أفظع من الجلد . . فلماذا لايحاول الهرب ؟ ولكن . . كيف ؟

ثمة شيء يحيره في مسألة هذا اليوم كلها ! لماذا جاء الدرك وهم على وفاق كامل مع القرية ؟ لقد نالوا نصيبهم من التبن والحب والزيتون والزيت حسب العادة وأكثر . . فلماذا جاؤوا ؟ على أنه لم يشغل نفسه كثيراً بهذا التساؤل ؟ بل أخذ ينشغل بمسألة العقاب أو الانتقام الذي سيمر على رأسه ! نعم لابد أن يهرب ! ! إن هذا الدركي على حق . . فلتكن هزيمته بحكمة ! يبدو أن الدركي موافق . ولكن . . لن يكون ذلك مجاناً . . نعم لابد لكل شيء من ثمن .

مد يده إلى جيبه . كان يمتلك خمساً وعشرين ليرة ، ورقة واحدة ولاشيء غيرها . . . ووافته فكرة سرعان ما بدأ بتنفيذها .

رفع الورقة المالية بهدوء ، والدركي يراه ، وطواها ثم أخرج علبة تبغه فوضعها فيها ، ولف سيكارة له . . ثم سأل الدركي :

ـ هل تدخن سيكارة يا حضرة الدركي ؟

وفهم نبهان أن صاحبه ليس غبياً فقال له :

ـ إياك أن تكون قد دبرت لي حيلة ! !

وتقدم لطيف مادأ يده بالعلبة ، واقترب الدركي بعيداً قليلاً عن الباب المفتوح ، وهمس للطيف بينما أخذ الرجال يهمهمون بأحاديث خافتة :

ـ لقد فعلها عاصي أفندي معكم . . .

ـ عاصي أفندي ؟ ؟

ـ هس ! اندفع إلى الباب في اللحظة التي أبلل فيها السيكارة بريقي . . وإياك أن تلفظ حرفاً عما دار بيننا . . وإلا كسرت لك حنكك . .

ـ لاتخف . . أنا رجل ! !

ـ لاتقترب من القرية بعد الآن . وربما استطعت أن أسوي الأمور مع الوكيل لقاء مئة ليرة بعد أيام . . فهل أنت موافق ؟

ـ كما تريد ! !

قال ذلك وقفز مندفعاً عبر الباب ، بينما كان الدركي يبلل سيكارته بلعابه ممسكاً بها بيمينه مسنداً بارودته بيساره . . .

وسرعان ما ترك السيكارة تسقط ثم اندفع إلى الباب فأطلق رصاصتين في الهواء . . وفر جمع من النسوة والأطفال كانوا مجتمعين على سطح مجاور وهم يولولون . واختفى لطيف التامر . وحدث هرج ومرج في البيت فأخمده بإشارة غاضبة من يده وهو يصرخ :

ـ الماكر ! ! لقد خدعني . . ولكن . . لسوف أريه من يكون نبهان ! . . والآن لايتحرك احد . وإلا . . . .

صمت الجميع معجبين لجرأة لطيف ، ناظرين إلى الدركي نظرة تشفٍّ ، فأدار وجهه عنهم . . وخلال دقائق حضر الوكيل وجماعته راكضين :

ـ مالذي حدث ؟

ـ لقد غافلني لطيف التامر وهرب !

ـ اللعين !

قال ذلك وهو ينظر إلى نبهان مرتاباً . ولكن هذا رماه بنظرة واثقة جعلته يعدل عن كل شكوكه . . وفكر في أن رجلاً متهوراً مثل لطيف ليحد . . . ب جداً ان يهرب تحت الرصاص ولا يدع دركياً قاسياً ينتقم منه .

ـ ولكن . . أين يهرب ؟ سأريه من أكون ! !

ـ سيدي الوكيل لقد غافلني بينما كنت الف سيكارة . لم أكن أظن أنه يجرؤ على ذلك !

ـ الوغد ! !

ورفس الوكيل الأرض برجله ، ثم أخرج ورقة من جيبه فقرأ أسماء المعارضين الآخرين . . واتهمهم بمشاركة لطيف التامر في إهانة الدولة وإهانة رجالها . ثم قادهم مخفورين برجاله إلى السراي ، بعد أن أخبر الآخرين أنه لن يغيب طويلاً عنهم ، وأن عليهم أن يحضروا لطيف التامر أو يستعدوا لخراب البيوت ! ! !

- ٧ -

عاد حامد من المدرسة ممتلئاً هماً وغيظاً . إن قلبه لينبض بحزن وحقد لامثيل لهما ، وطوال الطريق بين المدرسة والقرية ظل مطرقاً لايلتفت يميناً ولا يساراً . لقد أهين حتى أعمق أعماق نفسه ، وهو عاجز عن أن يرد الإهانة . . وأكثر من ذلك عاجز عن أن يفهم تماماً هذه الأسرار التي تحيط به ، والتي جعلت أولئك الرجال يقبعون في سجن « السراي » وقد تورمت أرجلهم من الضرب وحلقت شواربهم ورؤوسهم ! !

لايفارقه منظر أبيه المسكين وهو راقد على غبار وأوساخ السجن الضيق ، وقد أصبحت رجلاه زرقاوين منتفختين قليلاً ، فعجز عن إدخالهما في الحذاء ! ! وامتلأت عيناه لدى رؤية ابنه بدمعة ظلت تجول فيهما فتملؤهما حمرة وألماً ، بعد أن رفض أن يذرفها .

صرخ حامد صرخة واهنة حين رآه ، وسقطت دفاتره من يده ، وركع على باب الغرفة ، ولم يلبث أن انفجر باكياً :

- أبي . . . لماذا أنت هنا ؟ لماذا ؟ . . لماذا أنتم هكذا ؟

واحتقن صوت الرجل واختنق فعض على شفته وأدار وجهه . . كان واضحاً أنهم قد جلدوه جلداً . هذا الرجل البريء . . الرجل البسيط الذي كان يظن أنه لايجب تقريباً . . هاهو يشعر نحوه بألم مرٍّ قاسٍ . . ألم غير مفهوم لديه ، ومحبة

عارمة تستولي عليه فتعصر قلبه عصراً .

قال الدركي الذي أحضره من المدرسة ليوصي السجناء معه إلى أهلهم عن حاجاتهم في الأيام القادمة :

ـ أظنك شجاعاً فلا تأسف على وضع هؤلاء المشاغبين الذين عصوا الدولة وأهانوا الدرك .

ولم يجب حامد . بل رماه بنظرة حاقدة ، رد عليها الدركي بعنجهية . . ثم تابع :

ـ سأتركك الآن معهم ليقولوا لك عما يلزمهم هنا . . فلا تطل الحديث .

وبصق وهو يستدير مبتعداً . وبأصوات واهنة أوصى الرجال على تبغ وطعام ولوازم أخرى . وحامد مطرق يراوح خلسة بين اصابع يديه التي أخذ يعصر بعضها على بعض ، وبين قدمي والده المتورمتين . . ويهز رأسه بهدوء مع كل كلمة تاركاً دمعه يتجمع حول الأهداب ، وعاصفة من الغضب تتجمع في قلبه الصغير . .

وفي الطريق أحس بشيء محير . كان غضبه وحقده يتجهان رغماً عنه إلى درب الأموات . . . إلى المنزل الأبيض الذي ينافس « المزار » على قمة التل . . . إلى الشيخ حسين . . نعم . . . الشيخ حسين ! !

حين وصل ، وجد القرية مطوقة بعدد كبير من رجال الدرك ، جاؤوا بهم من مركز القضاء .

كان رئيسهم قد جمع الرجال وطلب منهم أن يحضروا لطيف التامر :

ـ كلمة واحدة . . . رجل واحد فقط . . لطيف التامر . . وإلا . . .

ودمدم الرجال : انهم لايعرفون . . وصرخ الرئيس الذي يضع نجمتين على كل كتف :

ـ انني أمنحكم ساعتين !

ـ ولكن يا سيدنا ، الرجل هرب بينما كنا نحن محبوسين ، فكيف نأتي به ؟ إننا لانعرف أين ذهب . .

ـ كلاب . . لا أريد أن أسمع صوت واحد منكم . قلت ساعتين . . يعني ساعتين ! ! عريف سلطان . .

ـ نعم سيدي .

ـ خذ ثلاثة دزك ، وجهزوا العشاء للعناصر . . اجمع خمسة نساء أو أكثر ، واطلب منهن تحضير العشاء . . .

وذهب الدزك فذبحوا جديين وعدداً من الدجاج جمعوه من بيوت القرية . .

وعاد الرئيس يهدد ، فالساعتان توشكان أن تنتهيا ولم يحرك الرجال ساكناً ، ولم يحضر لطيف التامر . .

وخدوج في زاوية البيت تبكي من الغيظ والألم . كان دركي ذو كرش ضخمة قد ضربها على وجهها بقبضته ، وهو يفك الجدي عن المعلف ، لأنها احتجت !

كانت النكبات قد هزتها هزاً . . ولكنها زادتها حقداً على كل الرجال المغفلين في القرية وعلى عاصي أفندي . . وعلى . . على جميع أبناء الحكومة ! ! وأخيراً على ذلك « الغشيم » ابي حامد الذي لم تنس أن تسأل حامد عنه بلهفة ولوعة .

وكزّ حامد على أسنانه وقال عبارات مختصرة . . ونادت خدوج زوجة ابراهيم التامر فحملتا أغراضاً للسجناء : طعاماً وتبغاً . . وتسللتا من القرية حين أخذت الشمس تنحدر . ومع المغيب رجعتا إلى القرية . . لم يسمح لهما بمقابلة الرجال ، ولم تجد الفرصة مناسبة لزيارة الأفندي ونكش قبور أجداده ! وأثناء ذلك أقسم الضابط أن الرجال سينامون « هكذا . . حيث هم . . » مالم يحضر لطيف ! وكان حضور لطيف مستحيلاً .

وجيء بالعجوز أم ابراهيم فأقسمت بهدوء أنها لو عرفت مكانه لما قالت عنه . فهي لن تسلم ابنها أبداً إلى ناس ليس في قلوبهم رحمة .

وزمجر الضابط وهدر ، ولكن المرأة كانت عجوزاً عتيقة . . فاكتفى بقليل من السباب « الرفيع ! » وبصقت أم ابراهيم أمام جميع الدزك . وفي الطريق قابلت حامد . كان يمشي إلى غير هدف ، محتقن الوجه ، متغير القسمات . . رجل صغير ولكنه معذب ، وعاجز لأن قبضته ماتزال ضعيفة . وهمست العجوز :

ـ هل أنت مازلت غلاماً صغيراً ، أم أنك صرت تستحق أن تحمل سراً ؟

فكز على أسنانه قائلاً :

ـ سترين ياجدتي ! !

ونظرت العجوز حولها مستطلعة ، لم تكن تريد أن يراهما أحد معاً . . وكان عليها أن تختبر شجاعة هذا الصبي . .

قالت له :

- الكلاب ! إنهم يطوقون القرية . . أكثر من عشرين دركياً . . .

تأملت وجهه الذي كان يرقبها باهتمام ، منتظراً كلمة السر ، ثم تابعت :

- قل لي يا حامد ، هل تخاف من الدرك ؟

- أنا ؟ قلت لك سترين . . انني أكرههم . . أكرههم . . ! أنت لم تري أبي . . ولا ابراهيم . . ولا بقية المسجونين . .

- لقد جلدوهم كثيراً أليس كذلك ؟

- نعم ياجدتي . . نعم . . ولكن . . آه

توقف عن الكلام هازاً رأسه ، وألقى نظرة إلى بعيد . . نظرة ساهمة متألمة . . فأمسكته العجوز من ذراعه . . وجرته نحو الحارة وهي تقول :

- يوم كنت صبية يا ابني ، هرب أبو ابراهيم من ظلم الفرنساوي أول دخولهم البلاد وهربت معه . . آه . . تلك أيام يا ابني ! ! يومها أردنا الذهاب إلى المجاهدين عند طرطوس . . ولكن الثورة انتهت ، فجأة ، هناك . . أنا لم أكن أخاف من الدرك !

- ولا أنا يا جدتي . . ولا أنا ! !

- طيب . .

شدت على ذراعه ، وتوقفت . . فراح يتأملها ثانية :

- وهل تخاف من الليل ؟

- سأحاول ألا أخاف من الليل . . ولكنك لم تقولي لي ماذا تريدين ؟ !

- اسمع يا حامد . . هل تريد الذهاب إلى لطيف ؟

- جدتي ! هل أنت تعنين هذا حقاً ؟ لن أقول لك شيئاً . . فستعرفين كل شيء بعد أن تجربيني ! انك سترسلين أحداً إليه . . ولن تجدي واحداً مثلي .

صمتت العجوز لحظة ثم همست :

- بل هو أراد أن تذهب أنت . . أنت بالذات حين يسقط الليل . لقد قال لي ذلك لحظة هربه من الدرك .

- حسناً اين هو الآن ؟ لابد أنه صار جائعاً ! !

- اسمع ياحامد . . لقد أعددت له طعاماً كثيراً ووضعته في جوف جذع التينة

الكبيرة في الحاكورة . . أنت تعرفها . بعد ساعة من الآن اذهب إلى هناك ، وتأكد من أن أحداً لايراك . ثم توجه إلى « حرش الدوار » سينتظرك قرب البلوطة الكبيرة على طرفه الشمالي . . فهل ستفعل ؟ .

ـ طيب عودي الآن إلى بيتك يا جدتي واطمئني !

كان صوته ينبض بقوة وحيوية غير منسجمين تماماً مع جسده الغض الصغير . .

ولم تعلق العجوز بشيء . بل استدارت . وقد غمرها اطمئنان حزين بأن كل شيء يسير على مايرام .

- ٨ -

حين أوشكت الشمس أن تغرب جلس مدير الناحية مع عاصي أفندي ، وحيدين في مكتبه . . وقد غمرهما قلق عميق

قال المدير دون مقدمات :

ـ لقد أوقعت نفسك في ورطة ، وأوقعتنا معك . . .

ـ وماذا كنت ، سعادتك ، تظن في ؟ هل تريد أن أمنحهم أرزاقي ؟ لقد خسرت عليهم وأعنتهم بما فيه الكفاية طوال سنين . . فماذا أفعل ؟

ـ لابد من إيجاد حل للمسألة . . لقد بعت أرضهم . . أعني حصصهم . . فكيف تريد منهم أن يبتلعوا هذه العملية ؟

ـ لقد كان عليهم أن يخدموني بشيء ما . . أنا أنفقت كثيراً من أجلهم ، ثم انهم لايحملون أي مستندات قانونية تجعل لهم حصة في أملاكي التي بعتها للأبتر . . .

تأمله المدير ملياً ! ! ! وكان قد قبض أمس ديونه كاملة ، وراء نفس المكتب الذي يجلس عليه الآن ، فأحس أنه صار قادراً على أن يتكلم بحرية أكبر مع هذا الرجل الذي لم يعد يبصر إلا مصلحته الخاصة :

ـ ولكن يا أخي أنت عشت معهم أغلب أيامك ولا أظنك ستنكر لهم سريعاً . . هكذا . .

يا سعادة المدير . . والله أنا أحبهم مثل أولادي . . ولكن . .

أوقفته بسمة سخرية طافت بوجه المدير . تذكر ساعة الصبح حين أيقظه لحل المعضلة . . لم يكن أمامها إلا إرهابهم بكرباج الدرك . . ولقد طلب الأفندي ذلك صراحة . . وها هو الآن « يحبهم كأولاده ! ! » . همس لنفسه وهو يبتسم « يا للقلب الكبير ! » وهمّ أن يقاطع صاحبه مازحاً فيوضح له أنه يعرف كل شيء فلا داعي للرياء . .

إلا أن توقف عاصي عن الحديث فجأة أوقفه هو الآخر . . ثم مالبث أن أكمل :

ـ أنت تقول في نفسك إنني دجال ! ولكنني اقسم لك اني لا أعرف كيف سأعيش من دونهم . . أنا بالحقيقة تعودت على الحياة بينهم . . وسترى بعينيك صدق ذلك في المستقبل ! ! ولولا إهانتهم لي أمس لما طلبت أن تقوم بأي عمل ضدهم . .

ـ اي . . يكفي يا عاصي ! ! لا أهانوك ولا من يحزنون ! الأمر ! كما فهمت منك نفسك ، أن امرأة ثرثارة طلبت منك اعترافاً قانونياً بحقها . . هل هناك أكثر من هذا ؟ . . أنا لولا معزتك عندي لما حركت ساكناً في الموضوع . ولكنني أحببت مساعدتك . فلا تقل لي إهانة . . أو غير إهانة . . ماحدث حدث . . وأنا لا أريد أن أورط رجال الدرك في صراعات مع أهل القرى ! . . لايخفاك . . هذه الأمور تسيء إليّ وظيفياً . . .

نظر الأفندي إلى « سعادة المدير » حائراً . كان كلامه الآن واضحاً وصريحاً ، و« سعادته » لن يشترك معه في اللعبة إلى أبعد من هذا ، وعليه من جانبه أن يقدم بعض التضحيات ! ! لقد قبض ماربحه منه في الأيام الماضية ، ولم يعد يهتم لما يجري به . . « هكذا . . هكذا هي الأيام ! » تنهد الأفندي دون أن يقول شيئاً . . فتابع المدير قائلاً

ـ وهكذا ترى أنه لابد من حل !

ـ حل ؟

ـ وهل تتصور أنهم سيبقون في السجن إلى أبد الآبدين ؟ . . وأن الدرك سيبقون في القرية حتى مماتهم ؟ ! ! نعم . . لابد من حل ! ثم أنت تعرف أننا قد وضعناهم في السجن دون مبررات قانونية تقريباً . . لقد انتقيناهم من بين الرجال

الذين تعاركوا مع الوكيل انتقاء . . ولابد أنهم يعرفون الآن كل شيء ، إذا كان في رؤوسهم أثر للعقل والذكاء . . نعم يا عزيزي نعم . . لابد من حل ! !

ـ وماذا تتصور الحل ياسعادة المدير ؟

ـ آه . . هذا ما يشغلني حقاً . . .

وتناول عاصي علبة تبغه فقدم سيكارة للمدير وأخذ لنفسه واحدة ، ثم راح يعب دخانها صامتاً ، منتظراً الحل الذي سيقدمه ، سعادته ، وهو يلعن في سره خدوج ولطيف وكل من عرفه في تلك القرية الملعونة . .

وبعد لحظات قال المدير :

ـ سيتعين عليك أن تضحي بألفي ليرة .

ـ ألفي ليرة ؟ لا . . لا . . هذا كثير .

ـ ولماذا « كثير » هذه ؟ ! كم تساوي حصصهم لو كان معهم مستندات قانونية .

ـ حسب البيع الذي تم تساوي ستة آلاف ليرة تقريباً .

ـ ولكنك قد بعت برخص كبير .

ـ نعم . . فذلك أفضل ما تيسر لي من شروط البيع .

ـ جيد ! ! أنت قبضت سبعاً وعشرين ألفاً . وأظن أنك لو أعطيتهم كل هذا المبلغ لما تنازلوا عن حصصهم برضاهم .

قال الأفندي مؤكداً :

ـ هذا صحيح . . ولكن . .

ـ لاحاجة لهذه الـ « لكن » اننا سنشتري صمتهم بهذه الألفي ليرة . . أو قل سنجبرهم على الصمت مقابل هذا المبلغ الزهيد . . وسيكون عليك بعد هذا أن تظهر شهامتك كحامٍ لهم ، وترضي حضرة الوكيل المعتدى عليه . .

وزعق عاصي قائلاً :

ـ لا . . لا . . هذا كثير . . كثير ! !

ولم يأبه المدير لاعتراضه بل قال :

ـ سأقنعه بقبول مئتي ليرة ومئة ليرة للدرك الآخرين . أما ذلك الرجل الهارب .

ـ يا سعادة المدير . . كيف يمكنني أن أدفع كل هذا المبلغ ؟ . يا أخي فكر في الموضوع ، هذا مبلغ ضخم ! !

ـ سيكون على ابي سلطان أن يتحمل ثمن رضا ذلك الرجل الهارب . . ماذا قلت اسمه ؟

ـ لطيف التامر .

ـ نعم سنشتري رضاه بسبعمئة ليرة بعد أن أذيقه طعم « القلق » حتى لايعود لمثلها ! ! ومع قليل من التهديد ستسير الأمور على مايرام !

ـ لكن . .

ـ لا . . لا . . لن اقبل اي اعتراض . قلت ان هذا سيتم ، يعني سيتم ! ! والآن . . اسمع ما الذي يجب عليك فعله . . تأتي غداً صباحاً في التاسعة ، فتجد الرجال المسجونين هنا في مكتبي ، فتترجاني بهم وتدعي انهم أعزاء لديك مثل اولادك ، وتعاتبهم على أنهم لم يأتوا إليك لإنهاء مسألة المغارسة ، وساعتها يدخل أبو سلطان . وسأعرف عندئذ كيف أتصرف وانهي المسألة . . .

واضح ؟

ـ كما امرتم يا سعادة المدير .

عند الساعة التاسعة ليلاً ركب المدير حصانه واتجه وحيداً إلى القرية المطوقة ، فوجد الجميع مازالوا منهمكين في تناول العشاء ، بينما يجلس رجال القرية صامتين يتأملون وجوه الدرك عبر أضواء القناديل المعلقة . . ولم ينزل عن الحصان ، بل سأل الضابط ذا النجمتين عن الأحوال ، ثم هدد رجال القرية بكلمة قصيرة لكنها عنيفة ، وأنذرهم بضرورة حضور لطيف التامر قبل انتهاء أربع وعشرين ساعة إلى مكتبه ، ثم أمر الدرك أن يعودوا بانتظار تنفيذ الانذار .

وحوالي العاشرة ، كانت حوافر خيولهم تقرع الطريق إلى المركز ، بينما تجمع الرجال والنساء والأولاد في رقعة الضوء التي تنشرها القناديل . .

وفجاة بدأ صخب الجمع يرتفع ، بكاء طفل هنا . وحديث امرأتين هناك . . والرجال يتبادلون النظرات بصمت وارتياح بعد ذلك النهار العجيب ، وقال أحدهم أخيراً :

ـ لم يظهر الشيخ حسين اليوم !

ـ لعله غائب !

ـ لا أظن ذلك . .

ـ لقد كنا أحوج مانكون إليه اليوم حقاً

ـ مازلنا نحتاجه الآن . . . فلنذهب إليه !

ودون نقاش تسرب الرجال ، بهدوء وصمت ، واحداً واحداً في درب الأموات ! !

- ٩ -

« اكتب على جدران الكهف أن حسين السعيدي يوشك أن يختنق ! ! »

صمتُ هذا النهار العجيب يسقط من ناحية المزار متسربا فوق درب الأموات ، عابراً كل ذرة تراب حتى المقبرة . .

« لماذا كل هذه العزلة ؟ »

الأحلام تسقط ثم تأتي ثم تسقط . . . ثم . . . « آه . . هذا أنت يا حسين السعيدي ؟ لن تمارس لعبتك بحرية بعد اليوم . . سيرونك دون شيء من هذه الأصبغة . . وسيعرفون ! ! »

وهم يقارعون الدرك وحيدين ، مستسلمين لغبار يملأ الساعات ولا يُرى . . غير قادرين على الفهم . . غير قادرين على التخلص . . غبار يملأ الساعات ويسد الخياشيم . . ويغوص فيه حتى الاختناق . . « الاختناق . . الاختناق ! ! »

« تستقر مثل فأر هنا ! كيف سيقبلون أنك تخليت عن كل أصباغك . . منذ . . منذ . . نعم . . لاتذكر تلك الحادثة التي ماتت فيها امرأة ! . . لا . . فليرقد الأموات بسلام ، فالحياة يجب أن تعاش مادمنا قادرين على أن نحياها . . فلنقل إذن منذ أن بدأت تطمع في أن تصير ملاكاً . . ها . . ؟ »

امرأة تموت . . وأخرى تطلق . . تجعل يأسها أنشوطة في العنق . . والأثقال على الجسد أثقال الأصباغ الموروثة وأحكام الرجال الساذجة ، الرجال

الذين لايرون إلا الهالة المزوّرة حول قمر من غبار . . تتراكم جميعاً مثل جبل صغير .

« اكتب على جدار الكهف أن حسين السعيدي يوشك أن يختنق ! »

إن حوافز الحياة تتأسّن حين لاتجرؤ على الظهور في الشمس . . حين تتم بسريّة وظلام مثل مؤامرة اغتيال . .

« لو طاردك رجال الدرك لوجدت فرصة لأن تعتقد أن للحياة هدفاً لجعل بالنسبة لك . . ولكن . . هاك ماصنعوا بك وما صنعت بهم ! . . أن يمتلك المرء حفنة من تراب يعرف أنه سيحملها كما يحمل فطيسة على ظهره . . فأية لذة في الجري وراء أمر كهذا ؟ . . سجل . . سجل : ان حسين السعيدي يختنق ! ! »

ان البيت يزحف في ساعة الغروب وتتقارب جدرانه ! والرجل المتوحد ، المثقل بأصباغه الساقطة ، يدور بين الجدار والجدار بحثاً عن النسيان أو الاطمئنان دون أية جدوى . . يرقد على حصيرة ، يفتح كتاباً عتيقاً . . يحاول أن يحصر تفكيره في حروفه . . في صور حروفه المتسلسلة ، التي ترفض الآن أن تنطق . . والمصباح العتيق الذي يشتعل زيته ، يلقي ظلالاً كئيبة فوق الخطوط الصامتة . . ثم تأخذ الحروف بمطاولة قاماتها ، ثم تمد أعناقها في هالات سديمية مستقلة ، ثم تصير أشباحاً صغيرة رقاصة . . « اغمض عينيك يا شيخي اغمض . . فليس مثل النوم شيءٌ حين يتعقد المشاكل كل أصابعها على الرقبة . . أغمض ! »

ليس هناك ما ينسى ! . . الذاكرة تصبح دائماً أقوى من الإرادة حين يصل الإنسان إلى مفترق . . واللحظات الثقيلة توقظ كل مايجاهد المرء في سبيل أن يطمسه . . الذاكرة قوة ! وهي عاتية لاترحم ! ! . . حين ينفتح الكهف من تلقاء نفسه ويفرغ ذكرياته ، تخرج قطة متوحشة محتبسة ، وينسحق راس ضائع لطائر صغير . . وتخرج وراء ذلك نسوة تختلط ملامحهن . . بين منتشيات ومنسحقات . . وامرأة بكفن لاتدير وجهها الهلامي المنفتح كهوة سحيقة . . وامرأة أخرى تود أن تهرب ، ثم تقدم نفسها بينما تشرق أشعة غبارية من أفق كالح . . ورجل واحد . . رجل واحد . . بعينين حزينتين ، وملامح قاسية ، وجسد ضئيل . . يرقب من مكان ما ، مسيطراً وقادراً . . ثم يبصق . . ثم يتقدم . . والجن التي تسكن ثماراً مفتوحة ومزورة لاتفلح في هزيمته أو اسكاته ! !

والحلم يصبح وحشياً . . والغطيط قاسياً ومتعباً . . كيف أمكن أن يكون للحياة كل هذا الثقل العاتي الذي لاينسحب عن الصدر ؟ ؟

وحسين السعيدي يتقلب مرتعداً ، ثم تهب امرأة ، منتشية أو باكية ، لا أحد يدري ، فتصرخ « وأنا ؟ » . . ويضحك الرجل الضئيل . ويتسرب الصوت الهادر تاركاً صداه يتردد في الكهف الخامس بين القرية والمقبرة « أنا لاأخشى شيئاً . . أمامك الدمار . . أو . . » وفي مكان بعيد بارد ومنطفىء ، تدور طاحون إلى الوراء . وطفل ، يمتلىء قلبه بكره غير معروف ، يفتح قناة للماء المنحدر . . والرجال ينحنون . . وشيخ يموت إلى جانب صخرة يخرش ملمسها اليدين . . والثمار المفتوحة تتراقص والرجل الضئيل يضحك . . ثم ينحني الطفل بدوره دون أن تدور الطاحون إلى الأمام . ودون أن تستقيم أجساد الرجال . . .

ويتقدم الرجل ذو العينين الحزينتين ، الرجل الذي يخفي حزنه وراء ملامحه القاسية . . . ويصرخ الطفل المنحني الذي أخذ يزحف مبتلاً بوحل الساقية . . يصرخ وسط الغطيط المتقطع . .

ـ أيها البهلول . . لماذا جئت ؟

ـ حسين السعيدي ! إننا الآن نَحْتكِم

ـ الرجال ـ جميعاً لايحتكمون يابهلول ! إنهم يعيشون . . يعيشون فقط ! كل الرجال يفعلونها . . فلماذا تريد أن نحتكم ؟ وعلى أي شيء . . على أي شيء نحتكم ؟ ؟

ـ الرجال ينحنون فقط . . أمامك . . أمام الأبتر . . أمام الأفندي . . أمام الدرك . . ينحنون دائماً . أنت تعرف هذا جيداً . . دعني أضغط على عنقك الغليظة هذه ! ! أله . . ! ! انك تتذكر الآن كل ذرة لحم كدستها على جسدك المنتفخ .

ـ سيدي . . إنك . . إنك تميـ . . ـتني ! !

ـ اطمئن ! إن هذا لن يحدث ! واقول لك انك ستميتني أنت . . هنا على الأقل . . أنت ستميتني ! ! . . اسمع يا حسين أريد أن أتسلى قليلاً بمشهد شوائك . . قليلاً . . قبل أن نفترق إلى الأبد . . أنت الليلة على موعد ، وضميرك لن يجيء بعد اليوم . . سيكون هذا آخر كابوس لك .

حسين السعيدي يتململ وينقلب وراء ذلك العالم . . عالم الحلم ! ثم يتنفس بارتياح . . ولكن . إلى حين ! وتجيء المرأة المنتشية صارخة وسط الغطيط الذي بدأ يتنظم ثانية :

ـ وأنا يا حسين ؟

ـ وأنت ماذا ؟ ! ماذا يعني ؟ !

ـ أمامكَ الدمار . . أو . .

تمتد اصبعها منذرة ، وفي لمحة تتراجع متلاشية ، وبهلول وحده يملأ الحلم من جديد :

ـ أمامك الدمار . . أو . . الدمار ! !

ـ الدمار أو الدمار ؟ ؟ . . أوف ! !

ـ ها . . انظر ! انك تتأفف والناس في السجن يبكون . . وأنت تصبح ملاكاً . . همْ ! !

ـ ماذا أفعل ؟ قل لي : ماذا أفعل ؟ ! ! الرجال هنا يبدؤون بأشواق غامضة حارة إلى الحكاية . . ومحبتهم تكبر . . وتكبر . . وتكبر . . والحياة تتراجع امهامها وتصغر ! ! صدقني يا بهلول ، تصبح الحياة في لحظة ما غير قادرة على تحمل كل الحب الذي يعيش في قلب رجل ! بعبارة أخرى يا بهلول . . الحياة لاتلبي ! ! والرجل يقف . . حائراً . . عاجزاً . . ثم متردداً . . ثم يتراجع . . الحب يصبح دودة تنخر جذع تفاحة عجوز ! ! الأشواق لاتنفذ . . والآمال لاتنفذ . . والزمن . . يكر ولا ينفذ . . والدودة تنخر في الجذع حتى تفتته ثم تموت . . ويظل الهيكل من الخارج هشاً وتافهاً ، وعندما نسعى إلى ملء الأمكنة المنخمدة بالطين والنفايات . . وتفقد الأشياء قدرتها على اثارة الدهشة . . إن الجذع يعرف أنه سيتحطم وهو لايفعل أكثر من أن ينتظر . . وينتظر . وحين يأتي زمن العاصفة التي تنهيه ، يكون هو قد فقد كل شوق وكل الق . . يكون من زمان بعيد ، قد أصبح حطباً ! . . انني أقسم لك ! ! لاشيء آخر . . أبداً لاشيء ! !

ـ طيب ! ! أنت تكذب ياحسين السعيدي . . تكذب ! أنت والأفندي أحرقتم كل الجذوع قبل أن تنخر . . واليوم أنت والأبتر والأفندي والدرك تحرقونها ثانية ! ! تفعلونها وتحاولون التملص . . ها ؟ ! !

ـ ولكن يا بهلول اعترف . . اعترف أنني أسعدتُ أم سلطان . . وامرأة سرحان السليم . . و . . و . .

بصق البهلول ، وتأرجح الحلم . . فصار بلا ملامح . . ومد كفه في فراغ الحلم السديمي ، ثم أصبح هو ذاته كفاً هائلة توشك أن تنقض على العنق المفعمة باللحم . . وهدر صوته :

ـ ولكن . . قل لي أنت . . من عمل على شقائهن أولاً . . من . . من ؟ الآن يجب أن نحتكم . تسلبون السعادة ، ثم تمنحون بديلاً مزوراً عنها ؟ ؟ تفوه . . كنت أرجو أن تعترف ! وانقضت الكف وصرخ حسين السعيدي زاعقاً :

ـ بهلول . . ابتعد . . سأقذف بك ثانية . . ويلا رحمة . . تذكر المرة الأولى يا بهلول ! !

وانسحب الكف . . وحل في الفراغ السديمي همس بعيد :

ـ لن نلتقي بعد ! لافائدة يا حسين ! ! لافائدة . . يا حسين . .

للمرة الثانية يتنفس حسين السعيدي بارتياح وينقلب . . ثم يفتح جفنيه بهدوء . . ان صوتاً حقيقياً ناعماً يهمس :

ـ ياحسين ! !

وكان ثمة اصبع رقيق تخزه برفق :

ـ حسين . . لماذا تصرخ ؟

فتح عينيه ، وتأمل المرأة الواقفة : « أمامك الدمار أو . . هاهي في الحقيقة ، لافي الحلم ، بوجهها الحزين المتعب المتحدي . . امرأة سرحان السليم بنظرتها التي توشك أن تصرخ به : « أمامك الدمار أو الزواج » تقف فوق رأسه كأنما تستعد لتجري له الحساب الأخير . كل هذه المعاني رآها في لمحة خاطفة تشع على وجه المرأة المنتظرة ، ثم تختفي . .

وتهيأ ليستقبل حظه إلى نهايته ، محاولاً أن يلم التشتت الذي عاناه في كابوسه المنصرم ، فجمجم بعبارة غامضة ثم فرك عينيه وهو يجلس على فراشه . . ثم قال:

ـ ها ؟ . . أنت ؟ ! !

هزت المرأة رأسها ثم جلست قبالته :

ـ أنا . . نعم ، أكنت تنتظر واحدة أخرى ؟

استند على يديه ، بينما كانت نفسه المضطربة تستقر أكثر ، وتأملها ثم قال بلهجة لايستشف منها شيء :

ـ كيف دخلت ؟

ـ أبواب الصالحين غير مغلقة في وجوه الخاطئين .

قالت ذلك بسخرية جلية ثم جلست غير مكترثة .

الحق أن حسين السعيدي يستطيع أن يكسر فم أي إنسان في القرية يتوجه إليه بمثل هذه اللهجة ، دون أن يكون لذلك أي صدى . . . إنما . . . هذه المرأة ؟ ! ! هذه المرأة ؟ ! ! هذه المرأة تستطيع وحدها أن تتصرف بما لايجرؤ عليه أحد . . وأن تقول مالا يخطر في بال أحد ! ولايمكنه هو من جانبه إلا أن يتطلع إليها كاسفاً دون أن يقول شيئاً . ولابد أنها تدرك كل هذا . . وتستثمره كما يحلو لها . .

ولقد أدار حسين السعيدي وجهه بعد أن رمقها ببرود ثم دمدم :

ـ يا للخساسة !

ـ ماذا قلت يا شيخي ؟

ـ قلت انك اليوم لست كما يجب .

ـ كما يجب ؟ ! همه . . ! أتعني أنني أصبحتُ أقل جمالاً مما عرفتني ؟

ـ لا . .لا . . بل أنت الآن تشبهين ذئبة فقدت جراءها .

ـ قل لي يا حسين . . متى ستتزوج ؟ انني آتية لآخذ الجواب . . لا أكثر ! !

تأملها طويلاً وهي تحدق في وجهه ثم قال :

ـ اننا لن نتزوج !

ضحكت بخبث وقالت :

ـ أتظن أنك قادر على ذلك ؟

ـ أعتقد أنني لم أغير رأيي في هذه المسألة . . سوف لن أتزوج الآن أية امرأة أخرى .

ـ لكنني أحببتك طويلاً ياحسين ومازلت أحبك .

ـ الذي كان بيننا أمر آخر . . أنت تعرفينه جيداً .

ـ طيب . . إذن ستتزوجني قبل مساء غد .

لم تفته الرنة الخاصة في عبارتها الأخيرة وبدا له أن صوتها قد غدا فجأة شيطانياً

مثيراً للرعب . . ومع ذلك فإن « غضب الرجال » قد بدأ يتحرك في داخله وأحس أن عليه انهاء احلامها الجنونية هذه !

« الشيخ حسين السعيدي . . نعم . . حسين السعيدي نفسه يتزوج امرأة يعرف أنها عاهرة ؟ . . وفوق ذلك امرأة عاقر ؟ » بدا له ذلك مستحيلا تماماً . . . وماذا تستطيع هي أن تفعل حقاً إذا طردها ؟ ربما لاشيء أكثر من بعض الزعيق . . ثم . . ثم تنسحب إلى بيتها . . ومن المؤكد أنه سيساعدها في ايجاد زوج آخر غير سرحان السليم . . زوج تستطيع معه أن تنسى مغامرات الكهف وليالي اللذة المسروقة في الأيام الخالية . . . « حسناً . . ليس للكلب إلا العصا ! ! ان صوتك لايخيفني . . وعليك الآن أن تعرفي حدك وتقفي عنده ! آ »

قال لها بعد أن تأملها ، مستغرقاً قليلاً في أفكاره :

ـ من المؤكد أن هذه ستكون آخر زيارة لك إلى هذا المكان . . ولسوف تنسين أيضاً هذه الأحلام المضحكة بشأن زواجنا . . وسوف أبحث لك كدليل اخلاصي عن زوج ترضين عنه . . وإلا فانني مضطر . . .

ـ والا فأنت مضطر اطردني من بيتك طرداً . . ها ؟ أليس كذلك يا شبيخي ؟ أليس هذا ماتفكر فيه ؟

اخترقته نظرتها المتحدية وبسمتها الساخرة . كانت لهجته التي اصطنع لها كل الحزم ، أضعف من أن تؤثر فيها .

لم تدعه يكمل كلماته التي رتبها في نفسه . . « وأخيراً ستفهمين أيتها الشيطانة ؟ » ولكنها لم تفهم . . لقد أخذته الحيرة حقاً . . ما الذي يفعله الآن ؟ أيطردها ؟ غير أنها لم تترك له الاختيار ، بل فاجأته بقولها من جديد :

ـ حسين . . انني لاأزال أحتفظ بالزجاجة التي سقيت شرابها لسعدى .

ـ ماذا ؟

ـ لايتغير لونك ! ! وأظن أن أهلها ليسوا مقتنعين تماماً بطريقة موتها . . لقد احتفظت بالزجاجة من باب الاحتياط !

ـ آه . . ايتها الخبيثة ! !

تهالك على فراشه واضعاً رأسه بين يديه . . لابد أن هذه المرأة هي الشيطان نفسه . . نعم المرأة شيطان ! ! لقد قرأ هذا كثيراً في العديد من الكتب المنسوخة

بخط رديء ، ولكن . . . آه . . أي شيطان يستطيع أن يجري هذه الحسابات كما أجرتها ؟

ـ حسين ! إن ضجيجاً في الخارج . . ها . . إنها أصوات رجال . . حسناً ستعلن الآن زواجنا .

ـ لا . .

ـ بل نعم ! لاتطلب مني أن أختفي فلن أفعل . . وإياك أن تظن أنني لا أحبك حتى الجنون . . وإن كنت أنت لاتحبني ! ! هاهم يقتربون . . غيرّ هذه السحنة . . نعم . . ابتسم قليلاً . . إنهم سيطلبون مساعدتك ! ! حسين . . كن رجلي الذي أعرف ! نعم . . هكذا . . ابتسم . . . نعم . . لن تكون حياتنا بالسوء الذي تتصوره .

كانت قد جلست قبالته منتظرة دخول الرجال الذين نادوا باسم الشيخ حسين عند الباب فرد عليهم قائلاً :

ـ تفضلوا ! !

وبذل جهداً كبيراً للسيطرة على انفعالاته . . وسلم الرجال بأدب ، ونهض هو لاستقبالهم مراقباً علامات الدهشة الخفية التي تملكتهم عند رؤية المرأة تجلس قبالته وحيدة . . وساورت الشكوك بعض الحبثاء . . ونظر إليها محسن السلوم دون أن يخفي ابتسامته قائلاً :

ـ أراك هنا ؟ . .

ـ وإلى من تريد أن التجيء إن لم يكن إلى سيدنا الشيخ ؟ إنني بحاجة إلى مساعدة كل شريف . ولم يستطع حسين السعيدي أن يتأكد مما إذا كانت تسخر أم لا . . وكان يرعبه أن تتهور فتثير فضيحة . . ولكن اطمأن حين قال أحد الرجال :

ـ نِعْمَ الملجأ والله ! !

وأمن الجميع إلى القول فشكرهم وهو يتنفس ارتياحاً . . ولكن محسن أراد أن يعابثها :

ـ اسألي عمي الشيخ حسين أن يدعو الله ليرزقك عريساً فدعاؤه مستجاب .

وأحست فوراً أن عليها أن تطرق الحديد حامياً . . وأنها سوف لن تفلت حسين هذه المرة ، فاصطنعت الخفر وابتسمت مطرقة وهي تقول :

الحمد لله . . إذا كان قد حرمني من سرحان فقد رزقني من هو خير منه . .

توقفت قليلاً وأشرأبت أعناق الرجال ، وتبادلوا نظرة ذات مغزى على ضوء القنديل الخافت وتململ الشيخ في مجلسه . ورمقت الجميع من طرف عينيها ، واتسعت ابتسامتها وهي ترى حسين يضطرب كل هذا الاضطراب « وأخيراً وقعت في الفخ يا شيخي ! ! فانظر ما سأفعله بك الآن ! ! » . . وتابعت بوقار مصطنع :

لقد كان الشيخ حسين يحدثني منذ لحظات في . . حسنا . . قل لهم ياشيخ حسين مادام كل شيء سيتم غداً .

صعق حسين لهذه الجرأة الوقحة . . وسعل والغيظ يوشك أن يخنقه . . وأدرك أن الأمر قد انتهى وأنه ان لم يفعل فستسحبه هذه اللعينة من أذنه كما يسحب ثوب قذر ، فأدار بصره في الرجال وقال :

ـ الواقع يا أخوان . . لاعار في الحلال ! وأنتم تعلمون أن الرجل منا إذا عاش وحيداً سنة أو سنتين فلا بد له أن يشقى مالم يبحث عن زوجة صالحة تعينه على حاجات الحياة . . والعاقل من نظر إلى الدنيا على أنها زائلة ، فلا يغره فيها ما يغر الجاهلين . . والزواج سنة في الخلق . . . أي نعم ! وعلى الرجل أن يبحث عن المزوجة العاقلة الرشيدة اح . . احم ! ! و . . أنا . . قد فكرت طويلاً فوجدت اني لست أكرم على الله من الأنبياء والأولياء . . وكلهم تزوجوا . . وقلت في نفسي : والله يا شيخ حسين لقد آن الأوان . . . ووجدت أن من الأنسب لمقامي ان أبحث عن المرأة التي تحفظني في غيابي ، وتقدر أحوالي وأوضاعي . والواقع لولا مشاكل اليوم كنا ننوي أن ننهي هذه المسألة على بركة الله ! ! على كل حال إن شاء الله ففي غد تحل تلك المشاكل وتصطلح الأمور وتجري على مايرام .

لايستطيع أحد في الحقيقة أن يحيط بجملة المشاعر المضطربة والمتنافرة التي ألمت بخواطر الرجال وهم يستمعون إلى كل تلك الحكاية . . .

فكر بعضهم في أن الشيخ قد تغير . . وذهب آخرون بينهم وبين أنفسهم ، إلى أنه ينحدر وربما هو يفقد شيئاً من اتزانه ووعيه ، وتأكد لدى بعض الخبثاء منهم أن الاشاعات التي تبادلوها همساً ذات يوم حول هذا الشيخ العجيب ، لم تكن تنقصها الصحة . . وظن بعض البسطاء أن الله إنما أراد شراً بالقرية . . وأنه يعاقب الجميع على سوء أفعالهم ، وأن هذه الأحوال جميعاً ليست مقبولة .

غير أن كل هذا لم يزد على أن يكون زوبعة خفيفة تمر فجأة ثم تنتهي . . فأمامهم ما هو أهم . إنهم يريدون أن يعرفوا . . هل سيتصرف الشيخ معهم كما يتصرف الأفندي والأبتر ، بعد أن اصبح « صاحب رزق » ؟ ! فإذا كان مايزال هو الشيخ حسين الذي يعرفونه ، فسيطلبون إليه أن يقف إلى جانبهم ويفض المسألة مع الأفندي بعد أن يصل أصحاب الحق إلى حقهم . . . وإلا فسوف يتصرفون تجاهه ، على الأقل ، كما يتوجب لرجل باعهم بثمن زهيد . . . باختصار ، انهم يريدون اكتشاف معدن الرجل ! !

طالت لحظة الصمت قليلاً . . ثم قطعها محسن قائلاً :

على بركة الله . . من تزوج أكمل ثلثي دينه .

ثم توقف . . ومسح الشيخ بيده على وجهه . . بينما تابع الآخر منعطفاً رأساً إلى الموضوع المهم :

ـ الواقع يا شيخ حسين أن مصيبة اليوم كانت كبيرة . . ولقد فهمنا جميعاً أنها كانت من عمل الأفندي !

رد رجل آخر بلهجة ذات معنى :

ـ أعوذ بالله من شر الطمع وخبث الروح !

همهم آخرون :

ـ والعياذ بالله ! !

وأكمل محسن :

ـ أنت تعلم يا شيخي أن الذين أخذوهم اليوم إلى الحبس مغارسون عند الأفندي . . كلهم مغارسون ! والأفندي يريد أكل أتعابهم . . فدبر هذا « المقلب » بالاتفاق مع قائد قصيل الدرك ومدير المركز . .

جمجم الشيخ مرتبكاً :

ـ هكذا ؟ لا أدري . . ولكن . .

ـ نعم . . نعم يا شيخي . . القضية واضحة .

ـ قال الرجل هذا متفرساً في الشيخ الذي أطرق ، كأنما أخذ بالفكرة على غرة ، وفجأة سأله الرجل :

ـ قل لي يا شيخي . . ألست شريكاً للأبتر في شراء الأرض ؟

ـ أنا . . لست شريكاً تماماً . . لا . . أنا اشتريت نصف القطعتين « كرم الحجل » و . . « طلعة الدوار » . . نصفهما فقط ! !

ـ هذا يساوي ربع الأرض كاملة . . على كل حال لسنا في هذا الأمر . . أنت ياشيخي أفضل كثيراً من الجميع في تملك هذه الأرض . . ولكن . .

توقف الرجل . . وساد الوجوم . . فقال الشيخ مختلج الصوت :

ـ ولكن ماذا ؟ قل . .

ـ أردت ان اسأل سؤالاً . . وأرجوك السماح أولاً . .

ـ ها . . ؟

ـ هل يجوز شرعاً أكل حقوق هؤلاء الذين في الحبس ؟

ـ أستغفر الله ! أنت تتهمني إذن ؟ ؟

ـ لا ياشيخي لا . . ليس هكذا تماماً . . ولكن الأمر غامض . . ونحن نرجو منك توضيحاً .

ـ بالنسبة لي . . لقد أوضحت لك ماهي الأرض التي اشتريتها . . وأما الأبتر . . فالرجل دفع ماله !

ـ دفع ماله ؟ كيف تقول هذا ؟

ـ يا محسن . . الرجل يشتري بماله . . وحقهم في بطن الأفندي ! !

ـ وكيف يشتري بماله ؟ هل تقبل أنت أن أبيعك ، أنا ، النصف الآخر في « كرم الحجل » . . النصف الذي اشتراه أبو سلطان ؟

ـ هذا ليس مثل هذا . . وعلى كل حال فالموضوع لايخصني شخصياً .

ـ ولكن . . يجب أن تحل القضية

ـ الشيخ حسين لم يتأخر عن مساعدة من يستطع مساعدته قبل الآن . . وسوف أبذل جهدي من أجلهم غداً . .

ساد صمت عميق بعد ذلك . كانت المرأة قد انسلت خارجة أثناء النقاش . . وبينما راح الرجال يعبثون بأصابعهم ، كان ضيق شديد وكرب عظيم يسيطران على قلب الشيخ . ونهض الرجال فنهض هو مودعاً . . وتبادلوا التحية . .

وفي الطريق قال محسن الدلوم :

ـ أخيراً تركنا الشيخ نهالياً .

فعلق رجل من الطرف الآخر :

ـ لاتسيء الظن يا رجل .

ـ هذا واضح ! ! قال محسن وهو يشعل سيكارته التي كانت قد انطفأت أثناء المناقشة . . واكتفى بعضهم بأن قال :

ـ لاحول ولا قوة إلا بالله .

والواقع أن الكثيرين منهم قرروا ألا يعلقوا عليه اي أمل بعد الآن.

- ١٠ -

خلت القرية من رجال الدرك في اليوم الثاني ، ولكنها لم تخل من ظلالهم ! كان الجميع يبدون وكأنهم يستعدون لعمل شيء ما . .

الرجال يتوقفون في وسط الطريق فيحدث بعضهم بعضاً لدقائق قصيرة ، ثم ينفلتون ، كل باتجاه . وأحياناً تعلو أصواتهم ، صياء ، ثاقبة لاتلبث أن تنخفض دون صدى . . النسوة أيضاً تجمعن هنا وهناك ، ويدأن يتحدثن جميعاً ، دفعة واحدة . وفي كل مجلس لهن كان من العسير تمييز ما يقال ! كن يتكلمن . . ويتكلمن عن حادثة أمس ، دون أن يعني حديثهن أي شيء محدد .

امرأة واحدة كانت صامتة ، لاتكاد تنفرج شفتاها عن كلمة ! امرأة واحدة ظلت منعزلة عن الحلقات المنعقدة ، ولكنها لم تستطع أن تستقر . . انها تحدوج التي تحس الآن أكثر من أية لحظة في حياتها السابقة ، أنها بحاجة لتحطيم شيء ما . . أي شيء ! كانت أصابعها تقبض على الأشياء بتشنج يائس ، كأنما تريد أن تقلب كل العلاقات القائمة رأساً على عقب .

لم تكن قد استطاعت النوم تقريباً ، فحامد لم يعد إلى البيت حتى مابعد منتصف الليل بكثير . . ولم يرد على سؤالها الغاضب « اين كان ؟ » بل اكتفى بالاستلقاء في فراشه وإغماض عينيه ، والاستماع إلى صوتها المحترق الناقم . . . ولم يلبث أن استسلم لنوم عميق .

وفي المخفر لم يسمحوا لها برؤية زوجها . . . بل أخذوا الأشياء التي حملتها هي وامرأة ابراهيم التامر . . على ذمتهم ! وقيل لها أنه ليست هناك أوامر بمقابلة السجناء . وكانت هي قد احتجت بهدوء أولاً . . فرد الدرك عليها بخشونة ، ثم انفجر غيظها فذكرت اسم الأفندي مشفوعاً بإهانة عميقة ، فساقها الدرك هي ورفيقتها إلى دركي أرفع رتبة ، وحدثوه عن « جريمتهما » ، فأمرهما بمغادرة المركز فوراً ، وهدد خدوج بأنه إن رآها تقترب من هذا المخفر ثانية فلا تلُمْ إلا نفسها . . .

وصرخت خدوج :

ـ ولكنني اريد أن أراه . . انه لم يقتل قتيلاً ، ولم يرتكب جرماً . . فلماذا لاتسمحون لي برؤيته ؟ أكلكم تطيعون ذلك الكلب عاصي ؟ ؟

ـ الكلب أبوك ياملعونة الوالدين .

قالها الدركي ذو الرتبة ، بحدة ، وانهال عليها « بكرباجه » . . لم تكن تصدق أول الأمر أنه ينفذ تهديده . فمهما بلغت به السفالة ، فهل يضرب امرأة ؟ ؟

وحين ذاقت طعم « الكرباج » صدقت كل شيء . . ثم رأت ألاّ فائدة من الكلام ! ومع ذلك فهل كانت تستطيع ألاّ تؤكد في وجه هذا السافل أنها صاحبة حق ؟ ؟

ـ كلكم متواطؤون معه . . لقد سلب أرضنا وأتعابنا . . أأنتم « دولة » له وحده أم للجميع ؟ ؟ !

ـ قلت لك اخرسي ! عاهرة . . . تسبين الدولة ؟ ؟

ـ الدولة على راسي . .

ـ يابنت الكلب . . .

وانهال « الكرباج » ثانية ، وأنّت المرأة هذه المرة ، وصرخ الصوت آمراً بعد لحظات :

ـ أمامك خمس دقائق لتخرجي من هذا البلد . . وإلا فإنني أقسم بشرف هذه البدلة لأضعنك في السجن !

قال ذلك ممسكاً بأصبعه طرف سترته العسكرية ، وتأوهت هي تحت ثقل

آلامها . . واحمرت عيناها بالغضب والدموع . وشدتها امرأة ابراهيم التامر وهي تقول :

ـ أمرك يا سيدي سنخرج فوراً ، ولكن . . اتقوا الله في هؤلاء المساكين الذين في السجن . . فلا ذنب لهم ياسيدي . أقسم لك . . نحن .

ـ « يلعن أبوهم على أبوكم ! » . في القرية نفوسكم مثل الكلاب . وهنا ، مساكين دراويش . . هيا . . من وجهي !

وأسرعت المرأتان بالخروج . كانت خدوج تترنح ، وسقط احساسها بالعجز على صدرها كما يسقط الجبل ، وقالت امرأة ابراهيم التامر :

ـ يا أختي . . أناس لاذمة لهم . . فماذا نفعل ؟

وانطوى الطريق . . وانطوى الليل ! والجبل الذي سقط على الصدر كان يزداد ثقلاً ساعة بعد ساعة ، وهي ، وحدها ، تتأمل الجدران وفضاء البيت شبه المظلم ، وتزفر ، وتتحرك دون جدوى . . وحامد غائب دون أن تعرف له مكاناً . . ومع ذلك لم يكن بإمكانها صرف اهتمامها إليه . كان كل ما حدث يثير في ضلوعها ريحاً عاتية . . دوامة تكاد تفقدها اتزانها . . ويثير في رأسها صداعاً لا آخر له ، وحنقاً متزايداً يتجمع من قمة الرأس حتى أطراف الأصابع . . يتجمع ويتجمع . . كأنما ينذر بالانفجار .

وحين ارتفعت الشمس عند الصباح لم يكن حامد قد أفاق . . ولم تتساءل ما إذا كان سيذهب إلى المدرسة أم لا ! كل شيء قد تغيرت قيمته في نظرها . . انها الآن حانقة . . حانقة وكفى ! !

جالت في البيت دون غاية ، ثم جالت في الفسحة التي أمامه . . ثمة ريح شرقية ناعمة وواخزة ، ولكن الشمس ترتفع دون احتجاب . . والأصوات في القرية ترتفع هي الأخرى . . وعادت تدخل البيت ثم تخرج . . ثم تدخل ثم تخرج . . وأخيراً انسربت خطاها في الطريق .

كان الرجال قد استيقظوا باكراً . . وراحوا يتجمعون أمام دكان راشد ، ثم يعود بعضهم أدراجه . . ويلتقون في الطريق فيتجمعون ويلغطون . ثم يتجه قسم منهم إلى الدكان من جديد . . وقسم يجوب الطريق دون هدف ! ! والنسوة كنسن البيوت والزرائب بسرعة ، ثم عقدن تجمعاتهن !

ولم تدخل خدوج أي بيت . طافت الطريق مثل رجل . . وسمعت الأصوات الصاعدة والمختفية . . ورأت الهامسين والساكتين . . وقالت في نفسها : لن يقودكم هذا إلى شيء !

كان القلق واضحاً في الحركات وفي العيون . . وكان الجميع يحاولون إظهار بقية رجولة مقهورة . . وهزت خدوج رأسها ثم عادت . كانت قد مضت ساعتان على الشروق ولم يظهر العسكر ! لابد أن المدير ينتظر إحضار لطيف الثامر قبل أن ينفذ تهديداته ! ولكن . . أين ؟ . .

فكرت خدوج في أن « لطيف » هو الرجل الوحيد بينهم . . بين كل هذه المجموعة من صور الرجال . . نعم « صُور الرجال » . . إنها لاتعرف كيف واتتها هذه التسمية ؟ ! ولكن . . من لايرفع صوته في وجه الذين يظلمونه فليس رجلاً . . نعم . . ليس رجلاً ! و « لطيف » وحده هو الرجل . . . « فليحمك الله يا لطيف ! » وخطت على العتبة ، ودارت ببصرها في البيت شبه المظلم دائماً . . وها هو حامد يجلس ، وبين يديه الفأس القاطعة التي تشق بها الأخشاب ، وهو يُعمِل المِسَنّ فيها . . ثم يُمرّ ظفر ابهامه على حدها محاولاً أن يتأكد مما إذا أصبحت قاطعة أم لا . ولم يرفع رأسه حين دخلت . . ولا حين توقفت بجانبه . . .

كان في وجهه ملامح عزم لاتتفق مع عمره الفتيّ ! وسألته :

ـ لماذا لم تذهب أنت إلى المدرسة ؟

لم يرفع رأسه بل أجاب وهو يوالي عمله :

ـ لا أريد اليوم !

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ ؟

ـ قلت لك . . لا اريد أن أذهب اليوم !

ـ ها . . تترك المدرسة لتبقى هنا ، تلعب بالفأس والمِسَنّ ! !

ـ انني لا العب !

اثارتها قلة اكتراثه بها ، فصرخت به غاضبة :

ـ وماذا تفعل إذن ؟ ومن سمح لك بلمس هذه الأشياء ؟ ؟

ـ اتركيني الآن ! انني مشغول بما هو أهم من حديثك !

- أهم من حديثي يا كلب ؟ ! قم واترك هذه الأشياء . . هيا ! !

أوشك غضبها على الانفجار انفجاراً شديداً ، ولكن حنانها تغلب في اللحظة الفاصلة فخرج صوتها مزيجاً بين قوة الغضب وضعف الحنان المفاجيء ! حاولت أن تمسك بالفأس ، ولكنه أبعد يديها قائلاً :

- قلت لك اتركيني ! لست الآن قادراً على التسلّي بمثل هذا الحديث !

تراجعت يدها . . ولكنها صرخت :

- قلت لك اتركها . . وإلا جرحتك بالعين !

- اتركيني وشأني ! اتركيني . . يوه

- ولماذا تفعل هذا ؟ هل ستحارب الدرك بها يا ابن أبي حامد ؟

داخله الألم لهذه السخرية منه ومن ابيه . . ولكنه كظم غيظه وقال ببرود :

- نعم !

- هه ! الكبار لاخير فيهم ! ! أني الصعاليك مثلك سنجد خيراً ؟ !

- أنا لست صعلوكاً . . فهمتِ ؟ ؟ اتركيني من أحاديثك ! إذا كنت غاضبة من غيري فاذهبي وصبي غضبك عليه !

ابتعدت عنه دون أن تفارقه نظراتها . . ثم قالت بهدوء :

- طيب . . هل استطيع أن أعرف لماذا تسنّ هذه الفأس ؟

- لأن لي بها حاجة !

- حاجة ؟ أي حاجة ؟ ؟

- سأحارب بها الدرك .

قال ذلك وهو يخفي ابتسامته عنها ثم تابع :

- لقد أعلنت الحرب على الدولة منذ عدة ساعات . . .

- صحيح قل لي . . لماذا تسنها ؟ ثم اين كنت أمس ؟ ؟

- كنت أستعد للحرب !

- قلت : أين كنت ؟ . . ثم الا ترى أن من العيب أن تضحك وأبوك في السجن ؟

- عجيب ! أنت تلاحقينني بأسئلتك منذ دخلتِ . . فماذا تريدين ؟ ؟

ـ أريد أن أعرف اين كانت هذه السهرة الطويلة ، لأرى ما إذا كنت سأعاقبك أم لا !

ـ لن أقول لك ! !

ـ بل ستقول لي رغم أنفك ! !

نهض حاملاً الفأس بيد ، والمسنّ بالأخرى وقال :

ـ لن أقول لك ، فالنسوان لايحملن سراً ! !

ـ ماشاء الله . . ما شاء الله ! هل بدأت تتعلم سخافات الرجال ؟ إذن لابد أن تقول لي . . .

أمسكته من كتفيه وأدارته نحوها ثم التقطت أذنيه بأصابعها قائلة :

ـ هيا . . قل لي سرك !

ـ لا . . لن أقول لك !

ـ بل ستقول . . انني أمك ! !

ـ أعرف . . ولكن . .

ـ لن تستفيد شيئاً فلا تحاول التهرب !

ـ طيب . . أقسمي بالله أنك لن تقولي لأحد كلمة منه !

ـ هو إذن سر خطير ؟ ! !

ـ نعم . .

ـ طيب . . أقسم لك على ذلك !

ـ إذن . . . لقد كنت . . كنت . . عند لطيف التامر .

ـ لطيف ؟ ؟ آ . . قل لي إذن أهو قريب من هنا ؟

ـ لن اقول لك حرفاً واحداً زيادة عما قلته . . فاتركيني الآن !

أفلتت أذنيه ، ووقفت تتأمله وهو يضع الفأس والمسن في مكانهما . . وطافت بخيالها افكار وصور متباينة ، عن حامد الصغير . . وحامد الذي واجه الظلمة ليلة أمس وحيداً . . وحامد الذي يشارك « الرجل الوحيد » في القرية « عمله » العظيم . . ثم . . حامد الذي أعلن الحرب على الدولة ! ! « أعلن الحرب » ماذا تعني هذه الكلمة ؟ ؟ انها لم تفهمها تماماً ، ولكن الفخر ملأ نفسها بهذا الرجل

الصغير الذي تكتشفه الآن . . وأحست أن غضبها يزول ويتلاشى تقريباً ، فلا يخلّف وراءه إلا مرارة عميقة مخفيّة لا تكاد تدرك . .

ـ وهل ستأخذ الفأس له ؟

ـ قلت لك إنني لن أزيد حرفاً واحداً

وماذا سيصنع هو بها ؟

لم يرد عليها ، بل راح يتلهى بتقليب صفحات كتاب . . وتابعت هي تقول :

ـ نعم . . لابد أنه يحتاجها . . فالدنيا برد . وسيحتاج أن يشعل ناراً ليتدفأ . . أليس كذلك ؟

استمر على صمته . . وشعرت أن من العبث أن تحاول دفعه إلى الكلام ، فسكتت هي الأخرى وجلست تتأمله غير مصدقة . . وفجأة رفع رأسه نحوها قائلاً :

ـ سيتزوج اليوم سيدك الشيخ حسين .

ـ ممن ؟

ـ من امرأة سرحان السليم !

ـ امرأة سرحان السليم ؟ غير معقول . . لا اصدقك !

ـ طيب . . سنرى !

ـ وكيف عرفت ؟

ـ لقد سمعت ذلك بأذني من فمه !

ـ عجيب . . انني لا أفهمك اليوم ! !

ـ لاداعي ! ! افهمي فقط ما أقول . لقد سقط الشيخ حسين نهائياً . . وصحّت الاشاعات التي قيلت عنهما في الخفاء ذات يوم !

ـ أية اشاعات ؟ وماذا يدريك أنت بهذه الأمور ؟ ؟

ـ لاتحاولي أن تقنعيني بأنه مقدس ! ان « لطيف » نفسه قد قال لي ذلك بعد ان سمعنا الحديث .

ـ إذن كنتما قرب بيته

ـ لايهمك أين كنا ؟ ! ! كنا سنزوره ، ولكننا وجدنا البيت ممتلئاً بأهل القرية

وسمعنا كل ماقيل ، فرأينا أنه لافائدة منه بعد ! !

ـ عيب يا حامد ! !

ـ العيب على من يفعل العيب ياأمي ! ! !

* * *

بعد أقل من ساعتين دخل ، فجأة ، أبو حامد . .

كان حامد جالساً يفتش في أوراقه . . وخدوج تنخل الطحين لاعداد الخبز.

وسقط المنخل من يدي المرأة ، وانطبقت الأوراق بين يدي الصبي ، محدثة خشيشاً باهتاً ، وتوقف الرجل لحظة على العتبة ، ثم خطا مترفقاً . . ثم توقف ورسمت شفتاه ابتسامة مريرة ، وتحدرت دمعة واحدة من العين ، ثم تقدم من جديد وهو يعرج قليلاً ، ثم تنهد وهو يتأمل زوجته وابنه اللذين كانا قد نهضا واقفين . . حتى إذا توسطهما ، همست خدوج :

ـ لا أكاد اصدق . . ماالذي جرى لهم ؟

وزقزق حامد سائلاً :

ـ من هم ياأمي ؟

ـ الدرك ! . . ها . . لقد أطلقوكم .

ـ نعم . . لقد أطلقونا ! ! كيف حالكم ؟

ـ بخير

ألقى جسده على الحصيرة مستنداً بظهره إلى الحائط ، وظلت خدوج واقفة ، بينما اقترب حامد منه ، حتى التصق به وقال :

ـ لن أنسى منظركم ، أمس ، ماحييت !

ومد الرجل يده فداعب شعر ابنه ثم تنهد قائلاً :

لقد انتهى الآن كل شيء !

وارتعشت عروق خدوج ، فاندفعت خطوتين إلى أمام ، وسألته :

ماذا يعني « انتهى كل شيء » ؟

ـ يعني أنه انتهى !

ـ آه . . كل ماحدث كان من ذلك اللعين عاصي أفندي . . كله ! !

لكن . . قل لي . . هل أعطاكم الأرض .

تبسم بمرارة للمرة الثانية وصمت لحظة ثم قال :

- بل أعطانا السماء !

- ظننت أمس أنهم سيقودونكم إلى المشانق ! أتعرف ؟ لقد ضربوني في المخفر . . نفس الدرك الذين حملت لهم الحطب على رأسي إلى بيوتهم . . ضربوني ! ! وكل ذلك لأنني أردت أن أراك ! ! . فماذا حدث لهم اليوم حتى أطلقوكم ؟

لم يحدث شيء مهم ! ! كل مافي الأمر أن سعادة المدير أقنعنا بأن السماء أفضل من الأرض . وأنه يخيرنا . . فاخترنا الأفضل .

- أهذا وقت مزح ؟ قل لي ما الذي حدث ؟ اروِ لي بالتفصيل . .

كان حامد مستسلماً لمداعبات ابيه ، صامتاً . . حتى بدأت رنة الغيظ في صوت أمه ، فأدرك أنها ربما فجرت غضبها ضد هذا الرجل المسكين الذي لاحول له ولا قوة . فرفع رأسه إليها قائلاً :

- وماذا يروي لك ؟ أحضرهم المدير صباحاً إلى غرفته وقال لهم : الآن أطلقكم كرامة لعاصي أفندي ، ومن يطالب بالأرض ، فسأعيده إلى السجن . .

- اسكت أنت ! ماذا تعرف عن هذه الأمور ؟

- لم يخطىء فيما قاله لك ! ! . .

قال حامد بلهجة المنتصر :

- اتركها . . فلن تتغير نظرتها إلي أبداً . .

لم تهتم خدوج بقول حامد بل اتجهت الى زوجها وسألته :

- ماذا تقول ؟ يعني . . لم . .

لم يعد لدينا أي أرض ! ! لقد ضاعت اتعابنا . .

- ضاعت ؟ ؟ مستحيل ! قل لي كل شيء ! ! كل شيء . .

ما الذي يقوله لها ؟ بل أي شيء لم يقله لها بعد ؟ ؟ . . أصبح الآن يعرف ، أن الله في السماء وكرباج الدرك على الأرض ! فماذا يقول لها ؟ ! ! . وكرباج الدرك لا يتحرك من تلقاء نفسه . . فدائماً هناك اصابع تشير له حين يجب أن يرتفع ، وحين يجب أن ينزل . . حين يعلّق على الجدار ، أو حين يُقبض عليه

باليد التي لا ترحم . فماذا يقول لها ؟ ؟

حتى يوم أمس كان يظن أن الله وحده يحكم العالم . . ثم فجأة رأى نفسه وجهاً لوجه أمام كل الذين يتصرفون باسمه ! ! في لحظة مريرة انفجر غيظه المحتقن فقال للرجال الراقدين إلى جواره : « إن الله يتخلى دائماً عن الفقير » ! وهمهم الرجال بكلمات احتجاج على هذا الكفر . وقال أحدهم : « الله يمهل ولا يهمل ! » ولكن قدميه المتورمتين عادتا تخزانه كأنما ثقبتا بالمسامير . . فهمهم بدوره : « ليس لعقاب الظالم طعم إذا كان بعد فوات الأوان ! » ووافقه ثلاثة منهم ، أما ابراهيم التامر ، فقال بهدوء : « إن الله سبحانه ليس ضيق الصدر مثلكم . . لاتكفروا ياناس ، ولاتيأسوا من رحمة الله ! ! » وزمزم الرجال دون أن يقولوا شيئاً . . ثم مالبثت دموع الندم أن انحدرت من العيون . . كانت القلوب البيضاء أضعف من أن تطيق التجديف والشك في رحمة الله وعدله .

وتماسك هو . . ثم زفر . . ثم قال : الأمر لله ! . .

ولكن الصباح كان يحمل المفاجأة . . ففيه انتهى كل شيء . . وضاعت الأرض نهائياً ! !

فماذا يقول الآن لخدوج ؟ . ماذا يقول لها ؟

ـ لماذا لاتتكلم ؟ !

ـ لقد قلت لك ما أستطيع أن أقوله . .

ـ هكذا ؟ قالوا لكم اذهبوا وانسوا أرضكم . . فذهبتم ؟ !

ـ لا . لقد عرضوا علينا مالاً .

ـ هاه . . وأين هو المال ؟

تأملها لحظة ثم قال لها :

ـ لقد رفضت أن آخذه

ـ إي ؟

ـ أحضرونا في الصباح إلى غرفة المدير . . وجاء عاصي أفندي ، فرجا المدير أن يطلقنا . . تقولين : كأن بينهم اتفاقاً ! ! ادّعى أننا مثل أولاده ، ولانهون عليه . . وجاء الأبتر بعد ذلك . . ونصحونا بأن نطيع السلطة والدرك مثلما نطيع الله . . . وعند ذلك قاطعتهم ، وقلت لهم : أنصفونا أولاً فنطيعكم . .

توقف قليلاً عن الحديث . . وقد احمر خداه . . لقد اراد أن يصحح شيئاً في قوله هذا . . ولكنه عاد فرأى أن ذلك غير مناسب أمام خدوج . فالواقع أن الذي قاطعهم كان ابراهيم التامر وليس هو ! وأن المدير نظر إلى ابراهيم نظرات قاسية ولكن ابراهيم لم يتردد بل قال له :

ـ ياسيدي ! أرجو من سعادتك أن تترفق بنا . . .

وصرخ المدير :

ـ اخرس ! !

ـ يا سيدي . . دخيل عليك ! لن أسكت قبل أن أشكو قضيتنا لسعادتك . . فإذا أمرت بإهانتنا من جديد فلن يحدث لنا أكثر مما حدث أمس . . . « قدّ القرد وما مسخه ربه ! » . . نحن ياسيدي نعرف أن كل ماجرى ، إنما جرى لأننا طالبنا الأفندي بأتعابنا . .

عند ذلك سأل المدير الأفندي عن هذه الأتعاب ! . . المهم . . لابد أن يكمل الحديث لخدوج ! ! .

ـ إني..قلت له أنصفونا فنطيعكم ، فقال لي : والله يا ابني هذا حق . . تفضل ! . . يبدو لي أنك عاقل ومجرب . . بماذا ظلمناكم . . قل ! ! فقلت له : ياسيدي ، أرضنا . . . زرعناها وتعبنا فيها . . والأفندي باعها . . وهنا سأل الأفندي إن كان ما أقوله صحيحاً ؟ فقال:صحيح ! ولكن . . أنا مابعتها لأكل حقوقهم ، بل لأن أبا سلطان رفض أن يشتري إذا كان معه شركاء . . وخاصة في هذه الشراكات الصغيرة . . ونظراً لأنني أفوض نفسي في أمورهم ، كما يفوضون أنفسهم في أموري ، قلت : أبيعها وأعطيهم تعويضاً . . . وهنا قال المدير : لاباس بهذا الكلام . . .

ـ الكلاب ! ! اتفقوا عليها إذن ؟ يا ويلي . . ماذا نفعل ؟ حاميها حراميها . . .

ـ نعم . . نعم ! اتفاق بينهم . . ألم أقل لك ؟ . . وبعد حديث ومناقشة ، قدر المدير أتعاب كل منا بثلاثمئة ليرة .

ـ ثلاثمئة ليرة ؟ ياويلك ياخدوج ! ثلاثمئة ليرة . . نقلت بها حطباً إلى بيت هذا الظالم عاصي . . من غير الفراريج والسمن . . واللبن . .خدمة له ،

وحده ، عدو لله ! !

قاطعها أبو حامد متابعاً روايته :

ـ رفضنا أن نأخذ شيئاً . . ولكن المدير صرخ بنا : كلاب ! تخالفونني ! ؟ هاتها ياعاصي . . وقدمها عاصي له . . فراح يوزعها علينا ، واحداً واحداً ، حتى وصل إلي فقلت له : يا سعادة المدير . . أرفض ! فزجر : ترفض ؟ ! فقلت له : نعم ، أرفض . . لقد شربت هذه الأرض من دم كفيّ . . انظر ! وأريته الشقوق التي في يدي الاثنتين ، ثم قلت : نعم أرفض ! ! ليأخذوها بلا ثمن . . أما أن أبيعها ، فهيهات ! ضعني في السجن . . أفعل ماتريد . . ولكن . . لن ابيع أبداً . . أنا صاحب حق ، واترك أمري لله ! !

ـ همْ همْ ! !

ـ عند ذلك قال عاصي : اتركه ياسيدي ، أنا سأقنعه فيما بعد . . وهذه هي كل الحكاية .

كانت ركيتا خدوج ترتجفان . . ثم ماليثتا أن تراختا . . فسقطت جالسة في مكانها ، وراحت تتأمل وجهه الذي طال شعره ، واصفرت ملامحه ، ثم دارت الأشياء ، وغامت . . وغرقت هي في شرودها الحزين . . .

رغم كل ما سمعته قبلاً ، لم تكن قد فقدت الأمل ! أما الآن فكل أحلامها القديمة قد ذهبت هباء . . كل أتعابها خلال سنين . . كل عنايتها وجهدها ، وجهد هذا الجالس أمامها . . . هذا الذي « شربت الأرض من دم كفيه » . . طارت الآن ! ! !

كانت تلاحظ كل غرسة ، وتهتم بها كما تهتم بابنها الوحيد ، تحفر التراب حول عروقها . . تضع لها « زبل » الدواب الذي كانت تنقله على رأسها . . تلفلف أغصانها الصغيرة بالشوك كي لاتقضمها الدواب وهي ترعى بينها . . . ما الذي جنته بعد كل ذلك ؟ ؟ ما الذي جنته ؟ ؟ آه أيها الزمان الخائن . .

تنهدت كأنما تئن ! ثم ملأت عينيها الدموع فجأة . . . فاستسلمت لها قبل أن ينفجر صدرها الضامر المقهور بما يحمله من حنق وحزن . . وقال ابو حامد :

ـ لو اخذت هذه النقود التافهة ، لظللت العن نفسي طوال حياتي ! ! لاادري . . . أحسست كأنني أخونك أنت وحامد . . وأخون نفسي ايضاً . .

حين فكرت بأخذها ! ! قلت لنفسي لايجب أن تبيع عرقك يا أبا حامد بهذا المبلغ التافه ! . . أظن أنك لست نادمة على أنني لم آخذها .

هزت رأسها موافقة ، دون أن تنظر إليه . وداخله هو الاشفاق الشديد عليها . فلأول مرة في حياته يراها تبكي . . تبكي كطفل صغير .

ولم يطق أن يرى عذابها ، فذلك يذكره ، أول مايذكره ، بعجزه وضعفه عن أن يفعل شيئاً . . واشاح بوجهه عنها ، ولكن صوتها جاءه هادئاً هامساً :

ـ لو اخذتها لأحرقتها . . ثم تركت لك هذا البيت ! !

ولم يعلق على قولها ولم ينظر إليها . . وفجأة سأله حامد :

ـ وماذا عن لطيف يا ابي ؟

فرفع الرجل رأسه ونظر إلى ابنه . . كان مطرقاً ينكش الأرض الترابية برأس عود صغير، فتأمله لحظة ثم قال له :

ـ وعد الأفندي والأبتر بإرضائه ، واحضاره إلى المدير ، إذا تعهد بألا يهينه . . فوعد المدير بذلك .

صمت حامد . ولم يعلق على ذلك . . وكان صدره يمتلىء ، شيئاً فشيئاً بهمٍّ ثقيل ، وبحلم كبير خطير . . حلم بأن يمتلك ذات يوم بندقية . . وعندها سيطلق النار بغير شك ، على الأفندي ، والأبتر ، والشيخ حسين والمدير . . . وعلى كل رجال الدرك أيضاً ! !

- ١١ -

قال حامد ، وهو يقلب جمرة بعود طري ، داخل المغارة الصغيرة :

- ليس في عودتك اي خطر ! فلماذا لاترجع بدل أن تنام هكذا في البرد ؟

فتأمله لطيف متلمساً بيده حد الفأس القاطع ثم قال :

- لا ياحامد ! هؤلاء الناس : الأفندي . . والمدير . . والدرك جميعهم غدارون ، ماكرون كالثعالب ! . لاتظن فيهم خيراً ابداً ! !

عند ذلك تنهد حامد قائلاً :

- صدقت ! !

ومرت لحظات صمت ، قطعها لطيف بقوله :

- يجب الا تتأخر اليوم ! اذهب غداً إلى المدرسة . . يجب أن تتعلم وتصبح موظفاً كبيراً في المستقبل .

فضحك حامد ونظر عبر الليل المنتشر . . .

لم يشرق القمر بعد ! ولكن الأشياء تبدو كأنما تتأهب لاستقباله . السنديانة الكبيرة المائلة التي تستر باب المغارة ، تبدو مثل شبح رهيب مسيطر . . وحجارة السفح تتقاطع أشكالها الباهتة ، وتكسوها ظلال عميقة . . والسكون يطن في الوادي . . وليس هناك أية ريح ! !

وفكر حامد : « كيف يجرؤ لطيف على البقاء وحده هنا . . في هذه الظلمة

الموحشة ؟ » ثم قال في نفسه : « بعد حين سيطلع القمر . . ومع ذلك . . فلابد أن لطيف شجاع جداً ، سيكون ، هو ، هكذا حين يكبر . . نعم لابد له أن يصير هكذا ! !

قال له لطيف :

ـ حين يظهر القمر سأزور الكرم الذي زرعته بيدي . . والذي حرموني منه ! !

ـ حين يظهر القمر سيكون الليل أقل وحشة ! !

هز لطيف رأسه ثم قال :

ـ الانسان الوحيد يستوحش دائماً . . حتى في النهار ! ! إن ضوء القمر جميل حين تكون في نزهة ليلية مع أصدقائك . . أما وأنت بعيد هكذا . . فالأمر مختلف ! ! ان الضوء يا صديقي ، يطارد . . مثل رجال الدرك تماماً ! !

لم يفهم حامد هذا القول جيداً ! فاكتفى بهز رأسه . . والقى لطيف أعواداً جافة على النار من جديد ، فاستعرت . . ودار حامد ببصره في السقف الواطيء المتعرج المضاء بوهج النار . . ثم مر به على كومة الأغصان الجافة التي جمعها لطيف . . ثم تأمل الفراش الذي هيأه من أغصان الصنوبر . . وتابع لطيف قوله :

ـ ومع ذلك فإن الانسان يتعود يوماً وراء يوم . . على ظلال الحجارة . . على رطوبة الليل . . على أصوات أقدام الحيوانات الليلية . . على البرد ولذع الريح الشرقية . . وكل شيء يبدو أخيراً كأنه عادي ! ويتعود المرء أخيراً وحدته ، وهربه ! !

ـ انك لن تبقى هنا طويلاً . . يجب أن تعود . . فلم يعد هناك فائدة . . وليست الحكاية معقدة كما تظن ! !

ـ اسمع يا حامد . . انني لن اسلم تعبي . . لن أسلمه ابداً ! ! اتدري لماذا طلبت منك الفأس ؟ !

ـ لتشق بها الحطب من أجل النار . .

ـ بل هناك ما هو أهم . . ! ! انني لا أستطيع بمفردي أن أغير شيئاً . . غير أني لن اسلم تعبي وعرقي خلال عشر سنين لهذا الأبتر لينعم به . . لماذا اقول لك كل هذا ؟ ! ستعرف غداً كل شيء ! ! والآن هيا أوصلك إلى طرف القرية .

ـ أستطيع أن أذهب بمفردي ! !

ـ لاتكن عنيداً ! ! سنذهب معاً .

أخذ لطيف يخبىء الجمر في الرماد ، ثم باعد بين الأغصان المشتعلة ، فسقطت ظلمة كثيفة في المغارة . . وبدا بابها مضيئاً كقمر كبير منطفىء يخترقه جذع سنديان مائل . . ونهض حامد محني الظهر ، ثم هبط من باب المغارة . وما لبث لطيف أن تبعه ، ثم راحا يتلمسان طريقهما بين الحجارة نازلين إلى الوادي . ودس المسن في جيبه ، وقبضت كفه على القأس من رأسها ، بينما راح قلبه ينبض بسرعة لم يألفها من قبل !

* * *

طلع القمر كبيراً مدوراً فوق الأفق . . فبدا كرم الزيتون بأشجاره الصغيرة ، مثل أرض اسطورية تملؤها أشباح ساكنة .

وانحدر الرجل المطارد . . « لم يبق شيء من الحلم لك . . فلماذا يبقى للآخرين ؟ ! »

أغمض عينيه مستجمعاً صوراً قديمة في الذاكرة . ولكن الحلم ظل منطفئاً كامرأة عاقر .

الشمس والريح ينخطفان في لمحة ، وصورة رجل يقيم حائطاً ، ويمسح العرق تحت نسيم تشرين ! ! فما الذي بقي الآن ؟ ! !

المطر . . والرعد . . والسماء تنذر ! افتحي قلبك أيتها الأرض ! ان رجلاً يشمر عن زنديه في صميم الشتاء . . ثم يملأ قلبك بالزرع . . ثم يستقيم لاهثاً ، ويمسح بيده المتربة عرقاً عن الجبين ، تحت مطر كانون . . فما الذي بقي الآن ؟ الجليد المتسع ، فوق رؤوس الأعشاب الصغيرة ، وتحت الأقدام التي لاتكل ! . .

والرجل يفتح للصخرة درباً الى الخروج من التراب . . ثم ينفخ لاهثاً . . ثم ينحني . . ويسيل عرقه دون حاجة للأصابع . . فيذوب مع ذرات الطين ، ثم يدخل في النسغ البعيد . . .

فما الذي بقي الآن ؟ ما الذي بقي ؟ ؟

قالت الأصابع شيئاً للحد القاطع وهي تداعبه . . وتقدم الرجل المطارد . . ثم توقف ! عبثاً يتأمل المرء صورة القمر ! إن للأشياء حدودها . . وللأرض أسيادها ! حلم واحد فقط ! ذلك هو القوة المستمرة التي كانت تجعل القلب يخفق . . أما الآن . . . فالقمر أكبر ، ولكنه أقل ضوءاً وأشد بعداً ! !

« إذا كان الحلم لم يبق لك . . فلماذا تتركه للآخرين ؟ »

خاطبت الأصابع الحد من جديد . . . واقتحمت العينان ظلال الأغصان المرهفة . . .

كانت الجذوع فتية ، رقيقة كخصر عذراء . . أربع ضربات فقط ، ويسقط كل هذا الجمال الأخضر الذي يسرقه رجل بيد واحدة . . . وكل شيء سينتهي قبيل الصبح ! !

تقدم الرجل المطارد ثم توقف . . . غشيت غيمة رقيقة صورة القمر ، فارتعشت أطراف الرجل وهو يتأمله . . ثم مالبث ذاك أن تجاوزها مكملاً صعوده في قبة السماء .

ومرت نسمة خافتة بين الأغصان الرقيقة فتمايلت ثم خشّت كأنما هي ترحب ! وقال الرجل المطارد : يالـلأسف ، لقد أيقظتها خطواتي من نومها الهنيء . . .

قال الحد للأصابع : اضربي ! وتحفز الرجل المطارد ، ، ولكن النسمة جاءت من جديد ، فخشت الأغصان كأنها تبتسم . . وتوقف الرجل ! !

الأشجار تعرفه ! !الأشجار أطفال صغار يبتسمون حين يجيء الأب . . . ويلعبون .

قالت الأصابع : كيف يمكن للأب أن يقتل أطفاله ؟

وقال الحد : أنت مطاردة . . .

وكان قلب الرجل يرتعش ! ان اللحظة الفاصلة يجب أن تأتي . . فمن هو القادر على احتمال كل هذا العذاب ؟ ؟

قال القمر : أنا وحيد ، ولا أملك شيئاً ، والسماء صحراء لا آخر لها . . ومع ذلك لا أستطيع إلا أن أضيء . . ماذا أفعل ؟ لقد خلقت هكذا ! !

ان اللحظة الفاصلة يجب أن تأتي ! فلماذا أنت مطارد ؟ إن نور القمر يتسع . وأمامك يمتد تعب عشر سنين متصلة . . وغدا يسلخون الأرض من جلدها ليصنع منه الرجل ذو اليد الواحدة « خرجاً » لأمواله ! !

قال الحد : لن يضع ذرة عرق واحدة في كيسه ! إن الأشجار نفسها لن تكون عاتبة .

وقالت الأصابع : مستحيل ! انني أشعر بعجزي عن القطع . لقد خلقت لأزرع فقط ! !

استند الرجل المطارد على فأسه . . وأضاء القمر بكل قوته . . وكانت الأغصان ترتعش وهي ترى الحد الذي التمع في الضوء ، مثلما يرتعش عصفور ذبيح !

ـ لتكن مطاردة ذات شأن ! ولترتعشي أيتها الجذوع ! فإن الحد يلتمع ! !

ـ أمامك التسليم لكرباج الدرك أو وحشة الليالي الطويلة القادمة .

ـ ان الوحشة لاتخيف . . ولكن المشكلة هي أن الأب لايستطيع ابداً أن يذبح بنيه !

من الذي حكى له حكاية الطائر العجيب . . الذي يسمح لصغاره أن يشربوا دمه في زمن القحط وهو واقف يتألم بصمت . من ؟

عاد يغمض عينيه ساهماً ! لماذا كتب علينا أن نعيش كل هذا العذاب ؟

استمر على اغماض عينيه ،وعادت صور السنوات المتعبة الجميلة تمر في خياله!

كان يجب أن يكون كل شيء على غير ماهو عليه الآن ! يجب أن يكون كل شيء مختلفاً ـ وإلا فما معنى أن يملك رجل بيد واحدة ، أرضاً تحتاج لمئات الأيدي.؟

واقتربت خطاه من جديد . . ثم داعبت الأغصان الخضراء . . ثم نزلت ، برقة ، على الجذع متلمسة نعومته الفتية . . وقال الجذع لليد :

يا أمي ! !

وهمست الأصابع :

لقد كتبو اسمك في سجل أم غيري !

فأجهشت الأغصان محشرجة :

لا . . لا . .

قالت الأصابع :

بلى . . .

فعلا بكاء الأغصان . . وتوقف القمر لمحة وقال :

يجب أن يتغير كل شيء ! ولكن الأقمار لاتستطيع إلا أن تضيء ! !

وسمع الرجل المطارد قوله ! لقد انتهى الحلم . . انتهى ! وما أقل ما تصنعه

كلمات العزاء ! ! وبدأت عيناه تسحان دمعاً غزيراً . . ثم مالبث أن قبل الجذع قائلاً :

ـ الوداع

ولم يستطع أن يكمل . . فاستدار عائداً بخطا مترنحة . . وحين ألقى بقدميه المتعبتين على أول طريق القرية . . أغمض القمر عينيه بحزن . . وامّسح الحلم القديم دون أثر !

ثم لم يلبث أن ارتفع في السكون صوت ملتاع . . فقد أخذت الأشجار تبكي . . وتعول ، بلغتها السرية الخضراء !

- ١٢ -

النهار الأخير يزحف ، منطفئاً في ضباب صبحه الحزين . والمطر يسقط ، هادئاً دون توقف ، كأنه الدموع الصامتة ! !

هدأ الخوف وانتهى . . واستحال الغضب مرارة . . ثم استحال بؤساً .

وجه خدوج لايقول شيئاً . . لافرحاً ولاحزناً ، لاغضباً ولا رضى ! ! . . يتمدد في سكونه العجائبي على خلجان التجاعيد ، بينما يستقر صمت طعين على الشفتين المتيبستين اللتين بالكاد تنفرجان .

تستريح الدروب أخيراً . . دون وقع الخطا . . فاهمر أيها المطر ! !

قال محسن السلوم لراشد :

ـ أخيراً تزوج عمك الشيخ حسين دون ضجة ! لقد ربح « حاكورة » خصبة ، وامرأة عاقراً . . .

ولم يجبه راشد . . كان يتأمل ، عبر الرذاذ المتساقط ، صورة الرجل القادم بخطا غير مستعجلة ! !

ـ مسكين عمك الشيخ حسين يا راشد . . سيهجر درب الأموات دون أن يصبح مزاراً ! ! نسي دفعة واحدة كل براهينه . . ولم نعد نراه . .

ظل الصمت أكثر قوة من الكلمات . . وظلت خطا الرجل القادم على وقعها الرتيب .

منذ السجن لم يحلق أبو حامد لحيته . . لو لم يرفض المال لظل خزياناً طوال حياته ! ! ومع ذلك فإن وجه خدوج يظل متجلداً أبداً ، هامداً كوجه جثة .

يهدأ الشوق والحلم . . وعبثاً يبحث المرء عن شعلة لم تنطفىء ! حتى حامد نفسه أصبح أكثر تفكيراً وشروداً . . فانهمر اذن أيها المطر ! !

قال محسن السلوم :

ـ لم يضربوا لطيف التاجر في المخفر . . لقد حدثه الأفندي كأنه ابنه الصغير . . وقدم له الأبتر خمسمئة ليرة . . فسال لعابه قليلاً . . ثم ابتلعه ورفض . .

ظل راشد مستسلماً لرتابة خطا الرجل القادم الذي يذكّرُ بصورة مألوفة عنده . . ولايذكره . . في الوقت نفسه !

ـ أول البطولة ان ترفض لمس مال لامسته يد أعدائك ! ضحك بليونة ويسر . . ثم تأمل عبر الرذاذ مشهد الرجل الهادىء . . وبعد لحظة قال ساخراً :

ـ لاريب في أن زهوان قد جن . . انظر . . كأنه يتمشى تحت شمس الربيع ! !

ورد محسن السلوم معلقاً:

ـ ولكن زهوان لايجيء بدون حقيبة .

ـ بل هو زهوان . . تأمل . .

اشتد وقع المطر . . والبيوت أرسلت سحب الدخان كلهاث مصدور . . كل شيء يهدأ تحت المطر ، ويغتسل . . . إلا الحزن . صورة الحزن تهدأ . . ولكنها لاتغتسل أبداً . وقف زهوان أمام باب الدكان مسنداً كتفه إلى الحائط الطيني . . بينما ثيابه تساقط الماء كأنها منتشلة من بركة .

لم تكن العينان عاديتين . كان فراغ ثقيل يضرب في أعماقهما ، والشعر المهوش يمنح منظر الرجل اليائس أقصى دلالات الجنون . .

لم يبدُ عليه أنه يعرف أحداً ، ولا أنه يرى أحداً . . كان وجهه يكابد ، كأنما يبحث عن ذكرى غريبة في مكان خراب . .

صاح راشد :

ـ ادخل يازهوان !

وتحفز محسن السلوم وقد زايلته كل رغباته الساخرة .
ولم يجب زهوان . . كان بؤسه فاجعاً وعيناه فارغتين بلا قرار .
ـ ولكنك ستموت من البرد أيها المجنون . .
ظل يتأمل الأشياء في واجهة الدكان مندأ طرف الحائط الطيني . . وعاد راشد يصرخ وهو يقترب :
ـ يابن الكلب . . ادخل ! هل بدأت تجن لتقف هكذا في المطر؟ ادخل . .
شده من ذراعه ، وأجلسه قرب النار المضرمة ، فأطرق محدقاً في جمراتها الكبيرة المتوردة بينما راح بخار أبيض يتصاعد من ثيابه المهدلة . . .
ـ هيه . . أين الحقيبة ؟
لم يكن للسؤال موضع . . فالجمر يتوهج . والمطر يسقط ، ولن يستطع امرؤ ذات يوم أن يكابد آلام الآخرين أبداً . .
ـ انهض . . ونشف ثيابك على النار . لابد أن يميتك مثل هذا الجنون ! !
لم ينحرك الرجل ، بل تقلصت ملامحه ، واكفهرت . .
ـ هل تشرب كأساً ؟ سيدفئك الكأس في مثل هذا اليوم البارد ! ! هل أصب لك . . . ؟
نهض زهوان دون كلمة ومشى إلى الداخل ، ثم جلس على كرسيّ آخر . .
ـ لماذا تبتعد عن النار ؟ إنك مبلل حتى العظام ! ! فلماذا تبتعد عنها ؟ . .
نهض ثانية ، ثم اتجه إلى الباب ، وأطبق الصمت والترقب على الرجلين الآخرين . .
وعلى العتبة استدار وقال بصوت محشرج :
ـ لقد ماتت . .
ـ ماتت ؟ من هي . . ؟
ـ ماتت . . . طفلة . . طفلة في الشام . . اسمها . . لاأدري . . ماتت ! ! حين وصلت كانت مريضة ! قبلتني هنا . . آه . . لا . . بل على خدي هذا ثم قالت لي : بابا أنالم أحب أحداً مثلك أبداً . . ثم . . ثم . . ماتت ! !

وأمس ليلاً جاءت وقالت إنها قادمة ! ! ظننت أنها ستمر من هنا . . ولكنها ماتت . . ماتت ! !

ازداد المطر انهماراً . ومشى الرجل بنفس الخطا الحزينة عائداً في طريقه . . مطرقاً غير ملتفت إلى شيء . .

- صرخ راشد :

- زهوان . . زهوان ! !

ولكن الدروب تريد أقداماً ، مثلما تريد الغيوم الريح ! ! ومن العبث أن تظل الدروب بلا أقدام .

- زهوان . . زهوان ! !

وضع محسن السلوم رأسه بين راحتيه . . واستكان . . وهطلت دمعتان من عيني راشد عند الباب ، فاختلطتا بالمطر ، ثم ضاعتا في المياه الصبيبة . .

أخيراً سقط الحزن بكل أثقاله . . قبل أن يبدأ الزمن حركته من جديد ! !

ــ صدر للمؤلف ــ

الشعر

١ ــ أغنية ثلج ــ منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٠ .
٢ ــ حوارية الزمن الأخير ــ وزارى الثقافة بدمشق ١٩٧٢ .
٣ ــ القيد البشري ــ وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٨ .
٤ ــ قمر لعرس السوسنة ــ دار المسيرة ــ بيروت ١٩٨٠ .
٥ ــ أربعون الرماد ــ اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٨٩ .

الرواية

١ ــ دمشق الجميلة ــ اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٧٦
٢ ــ الخيول ــ وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٦ .
٣ ــ الأوباش ــ وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨١ .
٤ ــ تفاح الشيطان ــ دار الأهالي بدمشق ١٩٨٨ .
٥ ــ السيف المرصود

/مجموعة من ثلاث روايات للفتيان/

منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٩ .

المسرح

١ ــ الخطا التي تنحدر ــ اتحاد الكتاب بدمشق ١٩٧٢ .
٢ ــ مالكو يخترق تدمر ــ اتحاد الكتاب بدمشق ١٩٨٠ .

إضافة إلى مسرحيات:

الغراب ــ الكنز ــ ربيع دير ياسين ــ سفرة جلجامش ــ وهي منشورة على

التوالي في مجلات: المعرفة الدمشقية ـــ الموقف الأدبي الدمشقية ١٩٧٤ ـــ الآداب البيروتية ١٩٧٥ ـــ المعرفة الدمشقية ١٩٦٨ .

النقد

١ ـــ لغة الشعر:

بحث في المنهج والتطبيق ـــ منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٨ .

تاريخ

١ ـــ المجاهد سعيد العاص ـــ دار المستقبل ـــ دمشق ١٩٩٠ .

ـــ يصدر قريباً ـــ

١ ـــ جدل الموت والحياة ـــ دراسة نقدية في أعمال زكريا تامر وخليل حاوي.

صدر عن الدار

فلسطين والفلسطينيون

دراسة تاريخية شاملة عن تطور المجتمع خلال ما يزيد عن القرن (١٨٧٦ - ١٩٨٤) اجتماعياً ، اقتصادياً ، سياسياً والمراحل التي مرَّ بها مع تبيان لتطور القضية الفلسطينية ودور الفعاليات الفلسطينية السياسية والاقتصادية في الداخل وفي المنافي .

تأليف باميلا آن سميث

العنف و المقدس

تأليف رينيه جيرارد

سيصدر عن الدار

● **اللذة والمقدس**
تأليف: فيليب كامبي
ترجمة: عبد الهادي عباس

● **عمل الدعاة الاسلاميين في العصر العباسي**
تأليف: خيرالله سعيد

● **عين الزهور «سيرة ضاحكة»**
تأليف بوعلي ياسين

● **حكايات تحت شجرة القيقب**
«للأطفال»
تأليف : لاديسلافا تشابوفا
ترجمة: حسن خضر

نهض زهوان دون كلمة ومشى إلى الداخل ، ثم جلس على كرسي آخر . .
- لماذا تبتعد عن النار ؟ إنك مبلل حتى العظام ! ! فلماذا تبتعد عنها ؟ . .
نهض ثانية ، ثم اتجه إلى الباب ، وأطبق الصمت والترقب على الرجلين الآخرين . .

وعلى العتبة استدار وقال بصوت محشرج :
- لقد ماتت . . .
- ماتت ؟ من هي . . ؟
- ماتت . . . طفلة . . طفلة في الشام . . اسمها . . لاأدري . . ماتت ! ! حين وصلت كانت مريضة ! قبلتني هنا . . آه . . لا . . بل على خدي هذا ثم قالت لي : بابا أنالم أحب أحداً مثلك أبداً . . ثم . . ثم . . ماتت ! !

وأمس ليلاً جاءت وقالت إنها قادمة ! ! ظننت أنها ستمر من هنا . . ولكنها ماتت . . ماتت ! !

ازداد المطر انهماراً . ومشى الرجل بنفس الخطا الحزينة عائداً في طريقه . . مطرقاً غير ملتفت إلى شيء . .
- صرخ راشد :
- زهوان . . زهوان ! !
ولكن الدروب تريد أقداماً ، مثلما تريد الغيوم الريح ! ! ومن العبث أن تظل الدروب بلا أقدام .
- زهوان . . زهوان ! !
وضع محسن السلوم رأسه بين راحتيه . . واستكان . . وهطلت دمعتان من عيني راشد عند الباب ، فاختلطتا بالمطر ، ثم ضاعتا في المياه الصبيبة . .
أخيراً سقط الحزن بكل أثقاله . . قبل أن يبدأ الزمن حركته من جديد ! !

دار الحصاد للنشر والتوزيع
دمشق ص. ب: ٤٤٩٠
هاتف: ٢٤٦٣٢٦

صمم الغلاف
معد التغلبي

6 ه F